نقش الملك التوراتي يهوآش
نموذج لتزوير التاريخ الفلسطيني

د. عصام سخنيني

كلية الآداب - جامعة البترا

ملخص

كشف ثلاثة من جيولوجي مركز "المسح الجيولوجي لإسرائيل" التابع لوزارة البنى التحتية الإسرائيلية (في كانون الثاني ٢٠٠٢) انهم تاكدوا من صحة لوحة حجرية زعم انها نقشت في عهد يهوآش الذي جاء ذكره في الروايات التوراتية على انه ملك يهوذا الذي حكم في القدس في القرن التاسع قبل الميلاد. وفي هذه اللوحة المكونة من ١٥ سطرا، والمنقوشة باللغة العبرية باحرف فينيقية قديمة، يكيل يهوآش المدح والتمجيد لأعمال الترميم التي اجراها في "هيكل سليمان" باسلوب يماثل الأسلوب الذي كتبت به فقرات من التوراة تصف هذه الحادثة.

وقد اثار النقش عاصفة في الأوساط الأكاديمية. فقد اعتبره جيولوجيو المركز المذكور ومعهم عدد من الباحثين انه الدليل الأول من نوعه من مصادر غير توراتية الذي يتطابق مع الروايات التوراتية. وبهذا المعنى فقد زعم انه يؤكد وجود "الهيكل الأول"، ويسوغ بالتالي المطالبة اليهودية "بجبل الهيكل" - موقع الحرم القدسي الشريف.

غير إن باحثين آخرين تيقنوا من ان النقش مزور، وقد ضم هؤلاء علماء آثار وخبراء في الكتابات القديمة والنقوش واللغات السامية القديمة. وقد اقاموا حكمهم ذلك على فحوص أجروها على النقش نفسه (مواده ولغته ونقوشه) وعلى تقرير فريق المركز المذكور، وخلصوا من ذلك إلى نتيجة مؤداها أن النقش لا يمكن ان يكون قديما.

وتتفحص الدراسة الحالية هذا التزوير بتفصيل ضمن إطار وظيفته في تزييف تاريخ فلسطين القديم.

Biblical King Jehoash Inscription
An Example of Falsifying the Palestinian History

Dr. Issam Sakhnini
Faculty of Arts
The University of Petra

ABSTRACT

Three geologists from Geological Survey of Israel (GSI) of Israel's Infrastructures Ministry disclosed in January 2003 that they had authenticated a stone tablet purported to be inscribed in the age of Jehoash who in the Biblical narrative was the king of Judea and ruled in Jerusalem at the end of the ninth century B.C.E. In the 15-line tablet, written in Hebrew in ancient Phoenician script, Johoash lauds the repair work he carried out in "Solomon's Temple" in a manner which resembles that of passages in the Bible telling the same event.

The disclosure of the inscription has aroused a storm. The geologists themselves and other scholars deemed it to be a first-of-its kind piece of extra-biblical evidence describing events in a manner that adheres to the narrative in the Bible. In this sense, it confirms the existence of the "First Temple" and hence vindicates Jewish claims to the "Temple Mount" - the location of al-Masjid al- Aqsa.

Other scholars believe the inscription is a forgery. These included prominent archaeologists, paleographers, experts on the ancient Semitic languages and epigraphers. They rested their verdict on thorough examinations of the inscription (its material, language and scripts) and the report of the GSI team, concluding that the tablet cannot be considered ancient.

The present paper examines this fake.

الإطار المرجعي للبحث

نمت عملية كتابة التاريخ القديم لفلسطين على أيدي الغربيين في أحضان التوراة. فهي التي شكلت المرجعية التي تكاد تكون وحيدة لهذه العملية بحيث أسدل ستار كثيف على ماضي فلسطين القديمة فلا يرى إلا من خلال ما تقصه عنه الحكايات التوراتية. وبهذا المعنى فإن تاريخ فلسطين القديم ليس إلا تاريخ اليهود فيها، أما ما يخرج عن الإطار اليهودي فليس له إلا وظيفة واحدة هي أن يكون ملحقا بهذا الإطار أو حاشية ثانوية للمتن الأصلي دون أن يمتلك الحيثية التي تؤهله للتعامل معه مستقلا بنفسه، متخلصا من صفتي الإلحاق والتبعية. وهذه الحالة هي التي ينطبق عليها وصف وليد الخالدي بأنها "اعتقال التاريخ الفلسطيني بالعهد القديم [التوراة]"(١) ، او هي في الحقيقة "إسكات التاريخ الفلسطيني"، وفق تعبير كيث وايتلام(٢).

وكانت الحالة هي هكذا حتى وقت قريب، إلى مطلع تسعينيات القرن الماضي، عندما حدث ما يشبه الثورة في الدراسات التوراتية نفسها قلبت للتوراة ظهر المجن بعد أن ثبت لأعلام هذه "الثورة" أن هذا الكتاب لا يزيد في حقيقته عن أن يكون كتاب لاهوت من جانب، ومجموعة من الحكايات الأسطورية من جانب آخر - بعضها مختلق بالكامل، وبعضها تكرار بصياغات مختلفة لأساطير أقوام وحضارات قديمة - لفقت معا لصياغة تاريخ مشتهى لليهود، وهو في كلا الحالتين (اللاهوتية والأسطورية) لا يصلح أن يكون وثيقة لمعرفة تاريخ فلسطين القديم، وبالتالي لكتابة هذا التاريخ اعتمادا عليه.

وقد نجم عن هذه "الثورة" صراع بين أعلامها من جهة وخصومهم التقليديين، من جهة ثانية، وهم الذين تمسكوا بأهمية التوراة كوثيقة أساسية في عملية التأريخ. وفي هذا الصراع أطلق على هؤلاء الأعلام صفة Minimalists التي يمكن اقتراح

كلمة عربية مقابلة لها هي لفظة "المهوّنين"، في مقابل صفة Maximalists التي أطلقت على الخصوم التقليديين، والتي يمكن اقتراح مقابل عربي لها بلفظة "المغالين"(٣).

وقد توزع اعلام هذه "الثورة"، وهم جميعا أساتذة وباحثون كبار في الدراسات التوراتية، أو علم الآثار، أو اللغات القديمة، على جانبي الاطلسي كليهما، فاشتهر على الجانب الغربي منه توماس طمسن(٤) Thomas L. Thompsom الذي لم تتحمل الأوساط "الأكاديمية التوراتية" هناك جرأته في محاولاته كتابة تاريخ لفلسطين مستقل عن التوراة، فـ"هاجر" إلى الدنمارك ملتحقا بجامعة كوبنهاجن. اما في الجانب الأوروبي فاشتهر من هؤلاء الأعلام نيلز بيتر لمكه(٥) Neils Peter Lemche، من جامعة كوبنهاجن بالدنمارك، وكيث وايتلام(٦) Keith W. Whitelam وفليب ديفز(٧) Philip R. Davies من جامعتي ستيرلنج وشفيلد البريطانيتين على التوالي، وجيوفاني جابريني(٨) Giovanni Gabrini من جامعة روما، لنذكر فقط أسماء قليلة. أما عربيا فقد كان مَن شارك في هذه الثورة قلة من الباحثين، وكان في الطليعة منهم الباحث السوري فراس السواح(٩)، كما كانت للباحث الحالي مساهمة جزئية فيها في دراسة له سابقة(١٠).

ومن خلال النتائج التي توصل إليها هؤلاء "المهوّنون" اخذت تتراءى معالم جديدة للتاريخ الفلسطيني القديم قائمة على دعامتين: الأولى هدم الأسطورة التوراتية عن ماضي اليهود في فلسطين ووضعها في مكانها الصحيح من حيث هي مجموعة من الحكايات المختلقة لا تثبت للنقد التاريخي وقد ابتدا محررو التوراة بصياغتها في العصر الفارسي الذي غلب على فلسطين (٥٣٨-٣٣٢ ق.م) وتوسعت الصياغة واستقرت في العصر الهلينستي (٣٣٢-٦٣ ق.م)، حتى عد بعض المؤرخين التوراة كتابا هلنستيا. اما الدعامة الثانية فهي التوجه نحو كتابة تاريخ مستقل لفلسطين القديمة متحرر من

ربقة الأخيولة التوراتية ومعتمد على الوثائق المشرقية القديمة، وعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا)، وتاريخ تطور المناخ الذي يوفر معلومات وافية عن أنماط الاستيطان البشري في المنطقة، ومعطيات علم الآثار.

غير إن علم الآثار لم يكن في الحقيقة بمنجى عن السطوة التوراتية. فذلك الجانب منه المتصل بالمنطقة أطلق عليه منذ أن نشأ في القرن التاسع عشر اسم علم الآثار التوراتي . *Biblical Archaeology* وقد انحصرت مهمته تحديدا في التنقيب عن الآثار التي تعزز المرويات التوراتية وبالسعي إلى أن يكتشف في باطن الأرض وعلى سطحها ما يمكن أن يدل على شخصية من الشخصيات الوراد ذكرها في التوراة، أو حدث قد سجلته، أو موقع أشارت إليه. وفي هذه الحالات جميعا أصبحت السمة المجازية لعالم الآثار المنقب في الأرض الفلسطينية هي سمة من يحمل المعول في يمناه والتوراة في يسراه ليكمل بأحدهما الآخر.

لكن على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها "علم الآثار التوراتي" الذي لم يترك حجرا على حجر في فلسطين إلا قلبه ليثبت به صلة ما بين الآثار فيها والحكايات التوراتية، فقد كانت نتائجه مخيبة لآمال أصحابه إذ لم تزد حصيلته في محيط الأرض الفلسطينية عن "أثر" واحد احتفي به لإثبات ادعاء هذه الصلة[11]. ذلك "الأثر" هو الذي عرف بنقش تل دان نسبة للمنطقة التي "اكتشف" فيها (تل دان هي تل القاضي العربية في الجليل)، وهو مكون من كسرتين (إحداهما "اكتشفت" في تموز ١٩٩٣ والأخرى في حزيران ١٩٩٤) اعتبرتا نصبا حجريا يعود لأحد ملوك دمشق الآراميين في القرن التاسع قبل الميلاد وقد سجل عليه بعض انتصاراته في حروبه في المنطقة. وموطن الاحتفاء كان ورود تعبير (ب ي ت د و د) في النقش وقد كتب بالآرامية (ورسم بالأحرف اللاتينية *byt dwd*) وفهم على أنه (بيت داوود)، ليستدل منه على

الأسرتين الحاكمتين في كل من السامرة ويهوذا المتحدرتين زعما من الملك داوود. واستطرادا لذلك ربط ما بين هذا النقش والحكايتين الواردتين في الإصحاحين ٢٠ و٢٢ من سفر الملوك الأول عن هزيمة آخاب ملك السامرة (أو إسرائيل) ويهوشافاط ملك يهوذا (أورشليم) أمام من يسميه هذان الإصحاحان "بن هدد" ملك دمشق الآرامي. غير إن هذا النقش الذي دخل في "علم الآثار التوراتي" على أنه أول وثيقة من "مصدر مستقل" تثبت الصلة ما بين الرواية التوراتية والآثار لم يستطع أن يقف صامدا امام النقد الصارم الذي وجه له والذي أظهر في النهاية أنه "مزيف". وقد اثبت الزيف طائفة من علماء الآثار واللاهوت واللغات السامية القديمة والنقوش (الإبيغرافيا)، ووصل الحد بجيوفاني غابريني، استاذ الساميات بجامعة روما، بعد أن درس النقش دراسة معمقة، إلى اتهام مكتشفي النقش الإسرائيليين عالم الآثار ابراهام بيران، والعالم بالنقوش الآرامية جوزيف نافيه، بانهما هما اللذان كانا وراء التزييف[١٢].

كان "نقش تل دان" بالمصير الذي آل إليه هو الوحيد، كما أكدنا، الذي "اكتشف" في فلسطين بهدف تأكيد الصلة ما بين الروايات التوراتية واللقى الآثارية وإثبات إمكانية قراءة تلك الروايات في ضوء تلك اللقى، ومن أجل الوصول في النهاية إلى التسليم بمصداقية التوراة في رواياتها التاريخية. غير إننا نستدرك بالقول بأن نقشا آخر قد "اكتشف" حديثا في فلسطين، في القدس هذه المرة، لم يقل الاحتفاء به (منذ أن أعلن عنه في كانون الثاني ٢٠٠٣) عن ذاك الذي استقبل به "نقش تل دان". وقد نسب هذا النقش الى يهوآش الذي جاء ذكره في الروايات التوراتية بصفته ملكا على يهوذا (أورشليم) في القرن التاسع قبل الميلاد. لكن على الرغم من كل التبجيل الذي لاقاه هذا النقش الجديد والاستدلالات والمعاني التي استخرجت منه واستنطاقه بالشهادات عن صحة الروايات التوراتية فقد وجد أن حظه من الصدق التاريخي لم يزد

عن حظ سلفه المزور نقش تل دان.

وصف النقش ومحتواه[١٣]

النقش عبارة عن لوحة من حجر البازلت المائل إلى السواد على شكل مستطيل بأبعاد ٦١×٣٠×٨ سم (انظر صورته في الملحق). وهو يحتوي على نص من ١٥ سطرا كتب باللغة العبرية القديمة بأحرف فينيقية. الجزء الأعلى من اللوحة مكسور وبذلك سقط منها اسم الملك الذي ينسب إليه النقش وهو يهوآش (وفق ما يرسم الاسم في الترجمة العربية للتوراة، بينما يرسم في اللغة الإنجليزية Jehoash .) غير أن أصحاب النقش استدلوا على صاحبه المزعوم من أن السطر الثاني في النقش ابتدأ بكلمة "هزياهو" وهي اسم أبي يهوآش لكن تنقصه الألف في البداية. فالاسم كما يرد في العبرانية هو "أهزياهو"، بينما ترسمه الترجمة العربية للتوراة "أخزيا"، ويرد في الترجمات الإنجليزية برسم Ahaziah وعلى هذا جرى افتراض أن السطر الأول من النقش الذي ضاع نتيجة الكسر الذي أصاب أعلى اللوحة كان يتضمن "يهوآش بن"، وبهذا نسب النقش إلى يهوآش بن أخزيا (وفق رسم الاسم في الترجمة العربية للتوراة)، وافترض أنه صنع في القرن التاسع قبل الميلاد.

يظهر في اللوحة صدع قطري في الحجر ينحدر من الهامش الأيمن قرب السطر الثامن وينتهي بالحرف الأخير من السطر الحادي عشر، عابرا بعشرة أحرف في أربعة سطور. ويغطي اللوحة غشاء تعتيق *patina* يشمل اللوحة بما فيها من نقوش وصدع. ويظهر في هذا الغشاء ذرات كربونية، وأيضا ذريرات من الذهب الخالص.

وقد جاء النص المنقوش في اللوحة بصيغة المتكلم المفرد، بمعنى أن يهوآش كان هو نفسه يتحدث عن العمل الذي قام به وسجله على الحجر. وقد قرئ النقش وترجم على

أن يهوآش بسط يده لجمع الفضة من كل مكان في يهوذا لكي يدفع ثمن الحجارة والخشب وقضبان البرنز لترميم البيت المقدس (الهيكل)، وهو قد فعل ذلك في البيت نفسه وفي أبوابه وممراته، ويختتم بوعد بالبركة من يهوه - اسم الإله العبراني.

وسبب الاحتفاء بهذا النقش انه ياتي في مضمونه مطابقا للرواية التوراتية عن ترميم الهيكل الأول (هيكل سليمان) الذي قام به الملك يهوآش. ووفق الكرونولوجيا التوراتية ملك هذا في أورشليم ما بين ٨٣٦ و٧٩٨ ق.م، وفي السنة الثالثة والعشرين لحكمه امر الكهنة بترميم ما تهدم من البيت فجمع هؤلاء الفضة، وعندما توفرت وحسبوها "دفعوا الفضة المحسوبة إلى ايدي عاملي الشغل الموكلين على بيت الرب وانفقوها للنجارين والبنائين العاملين في بيت الرب، ولبنائي الحيطان ونحاتي الحجارة ولشراء الأخشاب والحجارة المنحوتة لترميم ما تهدم من بيت الرب ولكل ما ينفق على البيت لترميمه"(١٤).

قصة "العثور" على النقش

أعلن رسميا عن النقش في الثالث عشر من كانون الثاني ٢٠٠٣، وكانت الجهة التي أعلنته هي مركز "المسح الجيولوجي لإسرائيل" التابع لوزارة البنى التحتية. وكان المسؤولون عن هذا الإعلان ثلاثة باحثين من المركز هم شمعون إيلاني Shimon Ilani وامنون روزنفيلد Amnon Rosenfeld ومايكل دفورشيك Michael Dvorchik، وهم كانوا قد فحصوا النقش وأجروا عليه الاختبارات العلمية اللازمة وثبت لديهم نتيجة ذلك أنه "موثوق به وأصيل".

أما كيف وصل النقش إلى هذا المركز فموضوع روي بما يشبه القصص الدرامية التي تحيط بها أستار من الغموض وتتضمن كثيرا من الأسرار. فقيل إن الحجر عثرت

عليه دائرة الأوقاف الإسلامية تحت الحرم الشريف في القدس عندما كانت تقوم بالحفريات تحت الحرم في مطلع سنة ٢٠٠٠، وهي القته، دون وعي منها، في جملة ما القت من الركام الناتج عن هذه الحفريات في وادي قدرون القريب، وقد عثر عليه هناك "عربي" باعه من تاجر آثار إسرائيلي. ولا تذكر الروايات اسم هذا التاجر ولا تعرف شيئا عن هويته، سوى أنه كان يمثله، في مراحل أخرى من تطورات القصة، محام إسرائيلي مشهور هو إسحاق هيرتزوج، وهو نائب سابق في البرلمان الإسرائيلي كما كان مستشارا لرئيس الحكومة إيهود باراك.

وتمضي الرواية بالقول إن مالك الحجر المجهول، أو من يمثله، عرضه في صيف ٢٠٠١ على جوزيف نافيه عالم النقوش المشهور من الجامعة العبرية (وهو نفسه الذي اتهم بتزييف نقش دان - انظر اعلاه)، وتصف الرواية هذا الحدث كما يلي: "اتصل شخص مجهول بنافيه وطلب منه أن يتاكد من مصداقية النقش. وقد وافق نافيه على أن يراه فارسل إليه الشخص صورة للنقش، غير أنه بعد أن تفحص الصورة طلب أن يرى الحجر نفسه. وهكذا التقى نافيه، في موعد حدد له، في فندق في القدس مع هذا الشخص الإسرائيلي وشاب عربي ظل صامتا خلال الاجتماع... وكان أمام نافيه متسع من الوقت لفحص الحجر... واستنتج من هذا الفحص أن النقش يمكن جدا أن يكون شيئا مزورا"[١٥]. ويبدو أن مالك هذا الحجر المجهول لم يرض بهذا الحكم فقام بعرضه على المتحف الإسرائيلي للنظر في صدقيته، وبالتالي بيعه من المتحف، إلا أن المسؤولين هناك ابلغوه بأنهم لا يستطيعون أن ينفوا إمكانية أن يكون مزورا[١٦]. غير إن هذا "التاجر" لم يقعده الياس عن عرض بضاعته فقام - من خلال محاميه إسحاق هيرتزوغ - بعرض الحجر (في أيلول ٢٠٠١) على مركز "المسح الجيولوجي لإسرائيل" حيث تولى العلماء الثلاثة المذكورون آنفا إجراء الفحص "العلمي" اللازم للتاكد من

صدقيته، وأعلنوا بالتالي (في كانون الثاني ٢٠٠٣) النتائج التي توصلوا إليها والتي قالوا فيها إنه ثبت لديهم أن النقش صحيح وموثوق.

نتائج الفحص المعلنة

ركز جيولوجيو المركز في فحصهم على ثلاثة امور: غشاء التعتيق patina الذي غلف الحجر، وذرات الكربون التي وجدت في الغلاف، وكريات الذهب الصغيرة التي وجدت عليه.

فقد ذكر تقريرهم[١٧] أن الحجر مغلف بغشاء بني مصفر مكون من العناصر الكيميائية نفسها التي يتكون منها الحجر بالإضافة إلى عناصر اخرى دخلت عليه جاءته من الأرض التي دفن فيها. ويغطي الغشاء الحجر بكامله بما فيه الجزء المكسور في أعلاه، والصدع الحادث فيه، والحروف المنقوشة عليه. ويستنتج التقرير من ذلك أن هذا الغشاء أصلي وقد تكون بفعل الزمن (معتق)، وليس هناك احتمال بأن يكون شخص ما قد حصل على حجر معتق من الأصل وقام بنقش الحروف فيه. كذلك لم ير الجيولوجيون مادة لاصقة على الحجر تفتح مجالا للقول بأن شخصا ما أيضا قام بعمل النقوش والصدع على حجر "نظيف" ثم الصق عليه الغشاء الدال على القدم. كذلك درس الجيولوجيون الصدع في الحجر واستنتجوا عدم إمكانية نقش الحروف المار بها الصدع، وإلا لكانت اللوحة قد تعرضت للكسر. والنتيجة التي توصلوا إليها من هذا الفحص تذهب إلى أن الغشاء قد تكون بعد نحو من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ سنة بعد أن تم النقش على الحجر نتيجة فعل الزمن، وأيضا بسبب دفنه في الأرض مدة طويلة. والخلاصة أن النقش صحيح وهو ليس من صنع مزور.

أما ذرات الكربون في الغشاء فقد أخضعت للفحص من جانب مختبر أميركي هو

Beta Radiocarbon Dating Laboratory at Miami, Florida، وكـان الهـدف من الفحص هو معرفة عمر هذه الذرات باستخدام تكنولوجيا قياس نسبة الكربون المشع (الكربون ١٤) فيها، وهي تكنولوجيا مستخدمة في علم الآثار والجيولوجيا لتحديد عمر الأجسام التي تحتوي في تركيبتها عنصر الكربون. ونتيجة الفحص، كما يذكر التقرير، تبين أن عمر هذه الذرات المكربنة العالقة في الغشاء يعود إلى ما بين سنتي ٣٩٠ و٢٠٠ ق.م. وبذلك يتوصل التقرير إلى الوثوق بصحة النقش بدليل قدم هذه الذرات التي هي بالتأكيد، وفق جيولوجيي المركز، ليست من صنع حديث.

كذلك فُعل بكريات الذهب الميكروسكوبية التي بين التقرير أنها من الذهب الخالص وهي عالقة في الغشاء فلا يمكن أن تضاف إليه، فهي بذلك دليل آخر على قدم النقش.

من هذه النتائج تم التوصل إلى الخلاصة التالية: إن النقش قديم يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وقد بقيت اللوحة التي حملته سليمة، ربما معلقة على أحد جدران الهيكل الأول (هيكل سليمان) إلى حين تدمير أورشليم على يد البابليين سنة ٥٨٦ ق.م. وفي عملية التدمير هذه دمر الهيكل وأصيب بحريق والذرات المكربنة في الغشاء هي من آثار هذا الحريق. أما كريات الذهب العالقة في الغشاء فهي قد وصلت إلى الحجر من الذهب الذي كان يغشي جدران الهيكل وقد انصهر بفعل الحريق.

وقبل أن نمضي قدما في عرض هذه النتائج على محك النقد نلمّ بردود الفعل الاحتفائية التي استقبل بها هذا "الاكتشاف" وبالمعاني والدلالات التي اشتقت منه.

المعاني والدلالات

مثل النقش مستندا لـ"المغالين" لتعزيز دفاعهم عن "تاريخية" التوراة وأداة لسحب

البساط من تحت اقدام "المهوّنين". فهو لدى الأوائل اثر ومصدر مستقل يثبت أن الروايات التي جاءت بها التوراة صحيحة. وقد وصف الآثاري الإسرائيلي سيلبرمان هذا الوضع بقوله: "إنه في الوقت الذي أصبح فيه تاريخ تأليف التاريخ التثنوي[١٨] مسالة خلاف حاد بين المغالين والمهوّنين، يقدم نقش يهوآش اجابة قوية منقوشة في الحجر على أولئك الذين ينكرون أن التاريخ التثنوي يتضمن تسجيلا معتمدا عليه للحوادث التي وقعت"[١٩].

وفي التفصيل اعتبر هرشل شانكس، رئيس تحرير مجلة *Biblical Archaeology Review* الصادرة من واشنطن والواسعة الانتشار وعميقة التاثير في الأوساط الأكاديمية التوراتية، أن النقش "تأكيد غير عادي للنص التوراتي"، ويؤكد ـ وهو نفسه من "المغالين" ـ أن النقش يدعم تاريخية سفر الملوك[٢٠]. وفي هذا الاتجاه نفسه ذهب غابرييل باركاي أستاذ الآثار في جامعة بار إيلان (بإسرائيل) الذي رأى أن النقش ـ في حال إثبات صدقيته ـ هو أكثر اللقى الآثارية أهمية في القدس وفي إسرائيل فهو "الدليل المادي الأول من نوعه الذي يصف الأحداث باسلوب متوافق تماما مع الروايات التوراتية"[٢١]. كذلك ذهب إلى أن هذه هي المرة الأولى التي توثق فيها "السلالة الداوودية" في مراحلها الأولى في مصدر غير توراتي[٢٢].

غير إنه إلى جانب هذه الأهمية التي أظهرها النقش لفريق "المغالين" في تأكيدهم صحة الحكايات التوراتية التي سوغتها اللوحة "المكتشفة" فقد احتلت مسألة إثبات تاريخية "الهيكل" مكانة أبرز في جملة اهتماماتهم. فوفقا لبركاي فقد وفر النقش الدليل على وجود "الهيكل" وبذلك ينبغي أن يتاح للعلماء فحصه، والا يبقى محاطا بالسرية[٢٣]، في إشارة إلى حالة الغموض الدرامي التي لفعت بها قصة "اكتشافه". أما

شانكس فقد أراد من النقش أن يكون محورا في النزاع القائم حول "جبل الهيكل"، أو بتعبير أصح موقع المسجد الأقصى. فهو كتب في المجلة التي يرأس تحريرها: "إذا ثبتت صحة النقش فهو يقدم الدليل على حق مطالبة إسرائيل بجبل الهيكل، أما إذا كان مزورا فهذا يعني أن إسرائيليا ما كان يحاول أن يصنع دليلا على حق إسرائيل بالمطالبة بجبل الهيكل، أو ربما أن فلسطينيا ما كان يحاول أن يغرس شيئا مزورا لكي يقوض به حق إسرائيل المفترض في المطالبة بجبل الهيكل"[٢٤]. غير أن هذه الاحتمالات التي أوردها شانكس لا تبطل رايه في ترجيح أن يكون النقش صحيحا[٢٥].

أما الأكثر وضوحا وصراحة من هذه الآراء التي طرحها كل من بركاي وشانكس عن أهمية النقش في إثبات الأسطورة التوراتية عن "الهيكل"، فقد كان الحملة التحريضية التي قادتها منظمة "أمناء جبل الهيكل" لترويج أفكارها انطلاقا من هذا "الاكتشاف". وهذه المنظمة اليهودية المتطرفة التي قامت نواتها الأولى بعد حرب ١٩٦٧، تقوم افكارها، من جملة امور اخرى، على ركيزتين: الأولى "تحرير جبل الهيكل من الاحتلال العربي (الإسلامي)" وبذلك فإنه من الواجب هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وإعادة بنائهما في مكة، والثانية "بناء الهيكل الثالث[٢٦] وفقا لكلمات جميع الأنبياء العبرانيين"[٢٧]. وقد تمسكت المنظمة بالنقش "المكتشف" معتقدة اعتقادا جازما بصحته وبانه فعلا من عمل "الملك" يهوآش، وبانه "اهم الاكتشافات الأثرية في تاريخ ارض إسرائيل والقدس واكثرها إثارة".[٢٨] واستنادا إلى ذلك اعتبرت المنظمة أن هذا الاكتشاف إنما هو "رسالة من الله بعثها إلى جيلنا من خلال الملك يهوآش قائلا: لقد حان الوقت لبناء بيت للرب... وبذلك فإن من واجب الشعب في إسرائيل أن يبني بيته [بيت الرب]... كما إنه لن يسمح لأي شخص في إسرائيل بل في العالم بأجمع بأن يقف موقفا سلبيا تجاه هذا المشروع الفائق الأهمية على مدى الأزمان"[٢٩].

وغير ذلك، فقد حذرت المنظمة العرب من أن يقفوا في وجه هذه "الرسالة الإلهية"، مبينة "أن جبل الهيكل ما يزال مليئا ببقايا الهيكل ومواده المقدسة، لذلك نحذر الأعداء العرب المتوحشين الموجودين على جبل الهيكل من محاولة المس بها أو تحطيمها. ذلك بأن أعين إله إسرائيل وقلبه وعنايته موجهة، ليل نهار، إلى شعبه، وإلى أرضه التي وهبها إلى إسرائيل، وإلى أورشليم، وإلى جبل الهيكل الذي هو أقدس موقع في الدنيا. وهكذا فإن من الأفضل لهم أن يحذروا ويخشوا غضب الله وحكمه عليهم. فإله إسرائيل ينصحهم بأن يتركوا جبل الهيكل وشأنه ويناوا بأنفسهم من موقع الإله المقدس وهيكله. فالله عازم على أن يعيد بناء الهيكل، ولن يسمح لأعدائه بأن يوقفوه عن ذلك"[٣٠].

التزييف

منذ أن أعلن عن "اكتشاف" النقش في منتصف كانون الثاني الماضي سال حبر كثير بعضه ليسجل موقفا مصدقا بتاريخية النقش، لكن أكثره ليعلن رفضه له، رفضا استند إلى إجراء دراسات معمقة لكل ما يتعلق بالنقش من حيث الشكل واللغة التي كتب بها والحروف التي استخدمت فيه. وعلى الجانب الأول وقف بالتأكيد فريق مركز "المسح الجيولوجي لإسرائيل" الذي أعلن أنه فحص النقش وتبين له صدقه. وغير هؤلاء دافع عن النقش، بدرجات متفاوتة من الحماس، عدد من أساتذة علم الآثار في الجامعات الإسرائيلية، ومجلة Biblical Archaeological Review المتخصصة بـ "الآثار التوراتية" والتي تصدر في واشنطن، ومجلة Forward اليهودية التي تصدر في نيويورك، بالإضافة إلى "منظمة أمناء الهيكل" الإسرائيلية المتطرفة.

أما في الجانب الآخر فبرزت كثرة من الباحثين الإسرائيليين الذين أثبتوا زيف النقش وبطلان تاريخيته[٣١]. من هؤلاء كان ناداف نِعمان Nadav Neeman، المؤرخ

والأستاذ في جامعة تل ابيب الذي كان في بعض مؤلفاته قد طور "نظرية" تفترض أن محرر بعض الروايات في سفر الملوك كان قد استند إلى "وثائق" تاريخية توفرت لديه أمدّته بأصول هذه الروايات، ومنها ما جاء في هذا السفر عن الترميمات التي أجراها يهوآش في"الهيكل الأول". وكان من المفروض أن يكون ظهور النقش سببا يدعو نعمان إلى الابتهاج بانه جاء ليعزز "نظريته"، إلا أنه فعل على العكس تماما إذ القى ظلالا كثيفة من الشك على هذا النقش حتى مال إلى رفضه. وهو يعلل ذلك بما يلي: "إن النقش مثير للشك والجدل، فهو ليس كاي نقش ملكي من الشرق الأدنى القديم أنا على دراية به، فهو وحيد في نوعه في جميع الأحوال. إنه يحتوي على كلمات عديدة لا تظهر في التوراة، وخاصة خاتمة هذا النقش المفترض به أن يكون ملكيا وهي تدعو إلى أن تحل بركة الرب على الشعب. ذلك بان النقوش الملكية من الشرق الأدنى القديم المعروفة لدينا تنتهي عادة بإنزال اللعنة على اي شخص يصيب النقش بالضرر، أو تنتهي أحيانا باستمطار البركة على الشخص الذي كتب النقش، أما الدعاء بالبركة على الشعب فليس هناك شيء آخر يشبهه"[٣٢]. كذلك يرى أن التاكيد الذي جاء في النقش على مساهمة الشعب في يهوذا بأعمال الترميم التي قام بها يهوآش في المعبد هي حالة فريدة لأن العادة جرت في النقوش الملكية على تاكيد الملك على نشاطاته هو شخصيا مع تجاهل تام لجميع الآخرين الذي شاركوا في البناء. ومع هذا فهو يتساءل: أليس من الجائز أن يكون ملوك يهوذا قد كتبوا باسلوب مغاير لما فعله انداهم غير اليهود في الشرق الأدنى القديم؟ وهو يجيب بان الوسيلة الوحيدة لإثبات، أو عدم إثبات الزعم بوجود أسلوب كتابة مختلف في يهوذا هي العثور على نقش ملكي يهوذي آخر يمكن أن يشكل أساسا للمقارنة.

غير أن الشكل الأسلوبي للنقش لم يكن هو موضوع النقد الوحيد، فقد توقف

آخـــــرون عند اللغة المستخدمـــــة فيه. وفي هـــــذا الصدد توصـل إد جرينشتاين Ed Greenstein، خبير اللغات السامية القديمة والأستاذ بجامعة تل أبيب، إلى أن هناك استعمالات لغوية وردت في النقش لا تنتمي إلى عبرية القرن التاسع قبل الميلاد - الزمن المفترض للنقش، بل هي استعمالات أخذت دلالاتها بعد ذلك بقرون وأساء أو أخطأ من اختلق هذا النقش عندما أدرجها في النقش على أنها قديمة. ومن هذه الاستعمالات تعبير (ب ي د ك ب ا ي ت) bedek bayit وفق ما رسمه جرينشتاين بالأحرف اللاتينية) الذي يعني في العبرية التوراتية "تشققات البيت"، وقد ورد في النقش أن يهوآش صنع هذه التشققات ما يعني أنه سبب تصدعات في البناء وخربه وهو خلاف ما قصد من النقش. فقد أراد مختلقه أن يقول إن يهوآش عمل ترميمات في البيت فاستعار تعبير bedek كما تطور في العبرية الحديثة بمعنى "الترميم" دون أن يعرف مدلوله القديم. كذلك استعمل مختلق النقش كلمة (ي د و ت) edut بمعنى الشاهد: "ليكن هذا اليوم شاهدا" على العمل، بينما لم تعرف العبرية التوراتية القديمة هذه الكلمة بهذا المعنى، فقد كانت تشير إلى معنى "الميثاق" أو "الاتفاق"، وتطور بعض مشتقاتها في العبرية الحديثة ليعني "الشاهد"، فانتزعها المختلق من هذا الاستعمال الحديث واستخدمها في النقش "القديم". ويستخلص جرينشتاين من هذين المثلين وغيرهما أن النقش مزور بالتأكيد(٣٣).

كذلك تعرضت الأحرف التي كتب بها النص للنقد الشديد وهي قد أظهرت زيف النقش. فروبرت دويتش Robert Deutsch من جامعة حيفا، وهو نفسه تاجر آثار، وجد أن النقش "تزييف هزيل وكائن خرافي هجين، فقد جمع معا ما بين الأحرف المؤابية والفينيقيـــة والعبرية"، كما ذهب إلى هذا الرأي كريستوفر رولستون Christopher Rollston الخبيـــر بالنقوش السامية القديمة ورئيس تحرير مجلة

Maarav المتخصصة باللغات والكتابات السامية، الذي رأى أنه "ليس من الصعب فضح التزوير في النقش لأنه ليس متقن الصنع. فهو يختلف كليا عن جميع النقوش المؤكدة التي تعود إلى لغة عصر الحديد العبرية (من حيث الدمج بين اشكال من أزمنة ولغات مختلفة) حتى انه لا يمكن ان يؤخذ بجدية على انه قديم"(٣٤).

لكن ماذا عن أولئك الجيولوجيين من مركز "المسح الجيولوجي لإسرائيل" (ايلاني وروزينفلد ودفورشيك) الذين فحصوا النقش وأعلنوا ثقتهم الكاملة بتاريخيته دون أن ينتابهم اي شك؟ لقد ابدى بعض الباحثين ارتيابا فيهم وإن كان بأدب وكياسة. فناداف نِعمان يقول: "إنني لا اشك في الجيولوجيين الذين فحصوا الحجر في مركز المسح الجيولوجي لإسرائيل، إلا إن علينا ان نستمع لآراء إضافية، كما إن هذا النقش، اكان مزورا ام اصليا، ينبغي ان يكون عرضة للفحص من أي عالم، ولا يمكن أن يظل مخفيا لدى جامع (للآثار) بصفته الشخصية". وذهب إلى مثل هذا الراي آفي هورفيتز Avi Hurvitz الخبير في تطور اللغة العبرية الذي بدا مترددا في الاعتماد على الجيولوجيين الذين فحصوا النقش، فعلى الرغم من أنه زكاهم إلا إنه طالب بأن يفحص النقش جيولوجيون إضافيون، وربما من مدارس بحث اخرى، ليكون بالإمكان تقرير ما إذا كان صحيحا(٣٥).

اكثر من هذين وضوحا وحسما كان يوفال غورين Yuval Goren الأستاذ في دائرة الآثار وثقافات الشرق الأدنى القديم بجامعة تل أبيب الذي أوضح "أن النتائج التي توصل إليها باحثو مركز المسح الجيولوجي لإسرائيل متحيزة بإفراط. فالبيانات المعدنية والكيميائية التي تشير إلى غشاء التعتيق، والمواد التي تظهر على اللوحة تبين بشكل حاد أشياء شاذة تثير شكوكا جادة حول صدقيتها، او على الأقل تجعلها مجال تساؤل كبير. ومن الواضح انه لو كان لدى هؤلاء معرفة أكثر بتقنيات التزييف

العامة فربما كانوا أقل حماسا لنشر هذه القصة المخادعة وكانوا قد توصلوا إلى نتائج مغايرة"[٣٦].

وقد فحص غورين النتائج التي توصل إليها جيولوجيو المركز المذكور كما أعلنوها في تقريرهم الرسمي[٣٧]، وتوصل إلى عدد من الخلاصات المهمة التي تنقض من الأساس تلك النتائج. فبالنسبة لغشاء التعتيق، وهو ما عول عليه الجيولوجيون كثيرا لإثبات قدم اللوحة، بيّن أن تركيبته الكيماوية المعلنة لا يمكن أن تكون قد تكونت بمنطقة القدس ولا في المنطقة الهضبية جميعا التي تقع فيها المدينة، وذلك لاختلاف مكونات التربة في هذه المنطقة عن المكونات التي دخلت في تركيبة الغشاء. كذلك عرض لعمر الذرات المكربنة العالقة بالغشاء باعتماد مقياس الكربون المشع (الكربون ١٤) فأوضح الأخطاء التي وقع فيها الجيولوجيون في طريقة احتسابها. أما ذريرات الذهب الكامنة خلف الغشاء والتي ذهب الجيولوجيون إلى أنها من الذهب الذي كان يغشي جدران "الهيكل" والتي ذابت نتيجة حرق البابليين إياه، فقد سخر غورين منها ومن الجيولوجيين الذين فحصوها، فقال إنه "إذا كانت ذرات الذهب قد نجمت من حريق هيكل سليمان المحترق، فإن النقش عند ذاك يدحض التوراة بدلا من أن يبرهن عليه، لأن الهيكل وفق سفر الملوك الثاني كان قد انتهبه البابليون بالكامل قبل أن يحرقوه".

غير أن الأكثر إثارة مما سبق كانت التجربة التي قام بها غورين نفسه وأنتج فيها - باستخدام أدوات وتقنيات مختبرية معينة - نقشا مماثلا تماما بمواصفاته لنقش يهوآش المزعوم، من حيث نوع الحجر المستخدم، وغشاء التعتيق الذي يغلفه، وذرات الذهب الخالص والكربون المشع (الكربون ١٤) العالقة فيه[٣٨]. فهو قد اختار حجرا من النوع نفسه الذي كتب عليه نقش يهوآش وقام بإضفاء غشاء تعتيق عليه مماثل تماما لغشاء ذلك النقش، وحمّله بذرات الكربون المشع التي يمكن الحصول عليها من المتاحف

الإسرائيلية وهي التي يكون قد حدد عمرها التاريخي من قبل، كما أضاف إلى الغشاء ذريرات الذهب الميكروسكوبية، بحيث بدا النقش الجديد نسخة مادية أخرى لذلك المنسوب ليهوآش. وخلص غورين من هذه التجربة إلى القول: "إنه ينبغي تأكيد أننا لو اخذنا هذا الأثر الفني الذي أنتجناه إلى مركز المسح الجيولوجي لإسرائيل واخضعناه لمجموعة التحليلات نفسها [التي اجراها المركز] لأعطى النتائج التحليلية نفسها [التي اعطاها تحليل نقش يهوآش]".

كشف التزوير إذن وظهر الحجر على حقيقته عاريا من الصحة، وكان على سلطة الآثار الإسرائيلية أن تتدخل وتقول كلمتها، وهي صاحبة الاختصاص، في هذا الذي يجري وينبعث منه ضجيج كبير ساد الأوساط الأكاديمية المهتمة بالآثار والدراسات التوراتية معا. وقد جاء تدخلها ليس فقط بسبب ما اثاره "نقش يهوآش" من جدل، بل أيضا بسبب ضجة مماثلة زامنته وقد تسبب بها "اكتشاف" مثير آخر - أعلن عنه مع "اكتشاف" النقش - لصندوق حجري مخصص لدفن عظام الموتى ossuary نقشت عليه عبارة "جيمس بن يوسف اخو المسيح"[٣٩] ، وهو الذي اعتبر أول دليل آثاري على الوجود التاريخي للسيد المسيح. ومثلما تصدى علماء عديدون لـ"نقش يهوآش" واثبتوا زيفه، كذلك فعل آخرون بما أصبح يعرف بـ"بصندوق جيمس" وبينوا زيفه ايضا مع وجود معارضة شديدة واجهوها من جانب من صدّق بتاريخية هذا الصندوق.

وفي ظل هذه الأجواء تحركت سلطة الآثار الإسرائيلية للإدلاء برأيها في هذين "الأثريين". ومن أجل ذلك شكلت لجنتين لفحصهما من علماء مختصين وأساتذة جامعات، إحداهما لفحص النقوش عليهما من حيث شكل الحروف وقواعد اللغة وبناء الجمل، والأخرى لفحصهما ماديا (فيزيائيا)[٤٠]. وقد أعلنت السلطة نتائج ما توصلت إليه اللجنتان يوم ١٨ حزيران الماضي، وأكد تقريرها أن "الأثرين" كليهما مزوران

استنادا إلى فحص النقوش عليهما، واللغة التي كتبا بها، والمادة التي صنعا منها، وغشاء التعتيق الذي غلفهما[٤١].

من هم المزورون؟

ثبت، إذن، أن "النقش" مختلق، لكن من هم الذين قاموا بعملية التزوير ولماذا هم فعلوا فعلتهم تلك؟ هناك نقاط، وفي الوقت نفسه هي تساؤلات، قد تصلح مؤشرات إلى الجهة أو الجهات التي قد تكون وراء ذلك:

اولا: لا يمكن ان يكون النقش من اختلاق شخص واحد قد يخطر على الظن بأن يكون تاجر آثار، أو لص آثار. فمن المؤكد انه من صنع "فريق" يضم متخصصين بعضهم في الدراسات التوراتية، وآخرون في اللغة العبرية القديمة، وتاريخ الكتابة (الحرف الفينيقي)، وعلم الآثار، كما لا يمكن نفي ان يكون قد شارك في هذا "الفريق" متخصصون في الكيمياء وعلوم الأرض والتعدين ليصنعوا غشاء التعتيق ومرفقاته من ذرات الذهب والكربون المشع. مثل هذا "الفريق"، الذي لا بد أن يكون قد عمل بتناغم واتساق، ينبغي أن يكون له "راس مدبر" على درجة عالية من الكفاءة العلمية مكنته من وضع مخطط لاختلاق اثر تمكن به من أن يخدع عددا من العلماء الذين اقتنعوا بصحته، فمن هو هذا الراس؟ الجواب بالقطع إنه "عالم كبير" وليس مزور آثار عاديا.

ثانيا: حبكت قصة اكتشاف النقش والإعلان عنه إبان اشتداد المعركة ما بين "المهوّنين" و"المغالين" الذين كنا اشرنا إليهم في مطلع هذه الدراسة، فهل احتفاء "المغالين" بالنقش احتفاء ملفتا للنظر يمكن أن يشكل قاعدة لتوجيه إصبع الاتهام لهم، خاصة وهم الذين ينقصهم الدليل المادي القائم على اللقى الآثارية التي تدعم اعتقادهم بصحة الروايات التوراتية، فكان أن صنعوا هذا النقش ليكون هذا الدليل، وبذلك فإن

"الرأس المدبر" نجم من صفوفهم؟

ثالثا: كان أشد الناس حماسا للنقش هم الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة، ومنهم على وجه الخصوص منظمة "أمناء جبل الهيكل" التي أوردنا ذكرها أعلاه، فمضمون النقش مثل بالنسبة لهم نوعا من البشارة باقترابهم من أهدافهم في بناء "الهيكل الثالث"، فهل كان ذلك العالم الذي أدار الفريق الذي صنع النقش واحدا من صفوفهم، أو مقربا من أوساطهم؟

رابعا: نستذكر أن دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس قامت أواخر العام ١٩٩٩ ومطلع العام ٢٠٠٠ بأعمال حفريات تحت موقع المسجد الأقصى لفتح باب آخر لما عرف باسم المسجد المرواني (والذي يعرف بالأدبيات الإسرائيلية باصطبلات سليمان). وقد أثارت هذه الأعمال ضجة كبرى عند ذاك تعرضت فيها الدائرة لحملة إسرائيلية شعواء ركزت ـ من جملة القضايا التي أثارتها ـ على أن الدائرة تدمر بعملها "الآثارية التوراتية" الواقعة على "جبل الهيكل". وقد ذكر آنذاك أن الدائرة كانت تلقي بالركام الناتج عن هذه الأعمال في وادي قدرون إلى الشرق من موقع المسجد الأقصى. وقد أثار هذا الركام اهتمام الآثاريين الإسرائيليين لما يمكن أن يجدوا فيه من شواهد تدل على صحة الروايات التوراتية، وخاصة منها تلك المتصلة بـ"أورشليم اليهودية" و"الهيكل". فوفقا لروني رايخ Ronny Reich من "سلطة الآثار الإسرائيلية" والمتخصص بتاريخ القدس القديمة، فإن المواد التي جرفت من منطقة "جبل الهيكل" يمكن أن تساهم في "المناظرة" القائمة حول ما إذا كانت أورشليم مدينة مهمة في القرن العاشر قبل الميلاد أي في زمن الملك داوود[٤٢]. وأهمية المدينة في ذلك العصر، وما إذا كانت فعلا عاصمة لمملكة كبرى تحت حكم الملكين داوود فسليمان، أم مجرد قرية زراعية صغيرة كما تدل التنقيبات الآثارية التي أجريت في الموقع والتي تنفي وجود تلك

المملكة من الأساس، هي إحدى القضايا الرئيسية المثارة بين "المهونين" و"المغالين"، فهل كان "المغالون" يريدون من هذا الركام المتجمع أن يكون دليلا على نظرياتهم؟

خامسا: نشطت "سلطة الآثار الإسرائيلية" نشاطا منقطع النظير وهي تُعمل معاولها في ثنايا ذلك الركام المحمول من أعمال الحفريات في المسجد المرواني وفحص خبراؤها كل شي فيه. وفي هذا يقول جون سليجمان Jon Seligman من هذه السلطة، وهو المسؤول عن أعمالها في منطقة القدس، إن سلطته قد تفحصت هذا الركام بدقة، وبشكل رئيسي الكسر الفخارية وقطع النقود حتى بعض المسامير، وقد وجدت أن ما بين ٤٠ و ٤٥ بالمئة منها تعود إلى العصر البيزنطي (من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادي) والعصر الإسلامي المبكر (في القرنين السابع والثامن الميلاديين)، بينما تعود نسبة اثنين بالمئة منها إلى فترة "الهيكل الأول" المتأخرة (من القرن السابع إلى القرن السادس قبل الميلاد).[٤٣] وفي مثل هذا الوضع من العمل الكثيف الذي قامت به "سلطة الآثار الإسرائيلية" كيف حدث أن كل هذه الجهود التي بذلها خبراؤها (التي وصلت حد تفحص المسامير) لم تعثر على النقش وترك أمر العثور عليه إلى ذلك "العربي" المجهول، الذي قيل إنه وجد النقش، ليكون له شرف الحصول عليه؟ أم إن ذلك "العقل المدبر" قد استغل الضجة التي أثيرت حول أعمال دائرة الأوقاف الإسلامية واتخذها متكأ له لاختلاق النقش، لكن مع الابتعاد عن جهة رسمية هي "سلطة الآثار الإسرائيلية" لكيلا يقع في الحرج إزاءها فكان أن أدخل في القصة تفصيلة "العربي المجهول" ليحمي نفسه من المساءلة القانونية؟

وبإجمال، فإن هذه التساؤلات تؤدي إلى خلاصة تقول إن طرفين كانت لهما مصلحة في اختلاق هذا النقش: "المغالين" وأصحاب التطرف الديني في إسرائيل. لكن أليس من الجائز القول بأن تياري الطرفين كليهما التقيا عند مصب واحد ما دامت

مصالحهما في النهاية متطابقة، فكان النقش هو نقطة التقائهما؟

خاتمة

تزوير تاريخ فلسطين القديم مسعى شرع به كتبة التوراة في العصر الفارسي الذي ساد فلسطين واستكمل في العصر الهلنستي، عندما اراد هؤلاء أن يكتبوا تاريخا مشتهى لليهود، فنسجوا الحكايات الأسطورية عن ماض لهم مزعوم، أوقعت حقائق التاريخ في احبولتها وما لبثت أن أسكتتها. وعلى امتداد قرون عديدة ظلت الأخيولة التوراتية هي المصدر الذي يكاد يكون وحيدا للكتابة عن تاريخ فلسطين القديم، خاصة في أزمنته التي سبقت العصر الهلنستي. أما في العصر الحديث، ومع نشوء علم الآثار وارتقاء سلطته المرجعية للتعرف على التاريخ القديم، فقد بذلت جهود محمومة للعثور على أي اثر مادي في فلسطين يثبت صدق المرويات التوراتية ويمنحها الشرعية التاريخية. وفي هذا الصدد، قرئت بعض هذه الآثار التي اكتشفت - وهي في اي حال قليلة عددها عدد أصابع اليد الواحدة (انظر الحاشية رقم ١١) - بتأويلات وتفسيرات مختلف عليها علميا ولا تقطع باليقين بتطابق المروية التوراتية مع ما سجل على تلك الآثار من نصوص. إلا أن الأخطر منها كان عملية التزوير المتعمد التي أرادت أن تقدم شهادة مادية منقوشة على الحجر تبرهن صحة ما روته التوراة من أخبار، فكان أولا ما اشتهر باسم نقش دان (انظر اعلاه) الذي تأكد تزويره، وما لبث أن تلاه ما عرف باسم نقش يهوآش الذي سقط سقوطا ذريعا عند فحصه علميا على الرغم من كثرة المصدقين به.

وهكذا إذا كانت التوراة قد ثبت أمرها حديثا على انها سجل لتزييف تاريخ فلسطين القديم ومصادرته فإن من لا يزالون يؤمنون بصدقيتها التاريخية - أو يريدون

الأيمان بذلك - يقاومون بهدف الإمعان في هذا التزييف، مرة باستنطاق اللقى الأثرية بغير ما قالته، ومرة باستحداث لقى من عدم وتقويلها كلمات وردت في الحكايات التوراتية.

الحواشي

(1) Walid Khaldi, Islam, *The West and Jerusalem* (London: Hood Books, 1996), p. 22.

(2) Keith W Whitelam, "Western Scholarship and the Silencing of Palestinian History", in: Michael Prior (ed.), *Western Scholarship and the History of Palestine* (London: Melisende, 1998), p. 11.

٣ - وردت مقارنة معمقة لما بين هذين التيارين والجدل الخلافي الدائر بينهما لدى زيوني زيفت، الاستاذ في"جامعة الدراسات اليهودية" في لوس انجليس الأميركية، كما يلي:

Ziony Sevit, "Three Debates about Bible and Archaeology", *Biblica* 83(2002), pp. 1-27.

٤- من أعماله:

Early History of the Israelite People: From the Written and Archaeological Sources (Leiden: Brill, 1992); *The Bible in History: How Writers Create a Past* (London: Jonathan Cape, 1999).

وقد ترجم الكتابان إلى العربية هكذا على التوالي: **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٥) **الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ**، ترجمة عدنان حسن (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١).

٥- من أعماله:

Ancient Israel: A New History of the Israelite Society (Sheffield: Sheffield Academic Press, 1995); *The Archaeology of Israel: Constructing the Past, Interpreting the Present* (Sheffield: Sheffield Academic Press, 1997).

٦- من أعماله:

The Invention of Ancient Israel, The Silencing of Palestinian History (London: Routledge, 1996).

وقد ترجم الكتاب إلى العربية هكذا: **تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠).

٧- من أعماله:

In Search of Ancient Israel (Sheffield: Sheffield Academic Press, 1992).

٨- من أعماله:

History and Ideology in Ancient Israel (London: SCM, 1988).

٩- في كتابيه: آرام دمشق وإسرائيل: **في التاريخ والتايخ التوراتي** (دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٥)، **تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود** (دار علاء الدين، ٢٠٠١).

١٠- عصام سخنيني، **فلسطين والفلسطينيون: صيرورة تكوين الاسم والوطن والشعب والهوية** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣)، الفصل الأول.

١١- حصرنا القول هنا في الآثار المكتشفة في فلسطين وحدها. اما خارجها فقد كانت هناك لقى لا يزيد عدها عن عدد اصابع اليد الواحدة اوردت أسماء لشخصيات او مواقع جرى ربطها بما ورد في الروايات التوراتية عن هذه الأسماء، وهي على كل حال قد اختلف علماء الآثار واللغات القديمة في معانيها ودلالتها الحقيقية وما هو مقصود بها، ويخرج عن نطاق بحثنا هذا التفصيل فيها، لكن نشير هنا إلى بعضها: نصب مرنفتاح (الفرعون المصري ١١١٢-١١٠٣ ق.م) والذي ورد فيه التعبير الغامض المختلف عليه "يسريل" او "جزريل" والذي فهم على انه "إسرائيل"، والنقش المعروف باسم المسلة السوداء الذي سجل فيه الملك الآشوري شلمنصر الثالث اخبار اعماله العسكرية غرب الفرات، وقد ورد فيه ذكر لآخاب من ملوك السامرة، ويعود النقش إلى ٨٤٠ ق.م واكتشف في منطقة نمرود في العراق سنة ١٨٦٤، ونصب

ميشع ملك مؤاب الذي سجل فيه أخبار انتصاره على عمري ملك السامرة ويعود النقش إلى حوالي العام ٨٣٠ ق.م. واكتشف في ذيبان بالأردن سنة ١٨٦٨، ونقش الملك الآشوري سنحاريب بن سرجون الثاني (٧٠٥-٦٨١ ق.م) الذي يرد فيه ذكر لحزقيا ملك يهوذا.

(12) Giovani Garbini, "The Aramaic Inscription from Tel Dan", translated by Ian Hutch-sson, as maintained on server: www.geocities.com, while the original article appeared in: *Atti della Accademia Nazionale dei Lincei. Rendiconti, Sceinze Morali*,vol.s.9 (1994), pp. 461-471.

١٣- وردت أوصاف للنقش في عدد من التقارير منها:

Hershel Shnks, "Is It or Isn't? King Jehoash Inscription Captives Archaeological World", *Biblical Archaeological Review* (March/ April 2003); *Forward* (January 31, 2003); Nadav Shragai, "Sensation or Forgery? Researchers Hail Dramatic First Temple Period Finding", *Haaretz* (English e-edition, January 13, 3003).

كذلك نشر النص الكترونيا باحرفه الفينيقية وترجمتين له إلى العبرية الحديثة والإنجليزية على الموقع التالي:
www. web. infoave. net.(The transcription is the work of Jack Kilman).

١٤- الملوك الثاني، ١٣: ٦، ٧، ١٠-١٢.

(15)Shanks, *op. cit.*

(16) B.A. Robinson, "Jehoash Inscription: 9th Century BCE Relic or 20th Century Forgery?", maintained on server: www. religioustolerance.org. Originally written January 19, 2003, latest update: March 18, 2003.

١٧- نشر التقرير كما يلي:

Ilani, S., Rosenfield, A. and Dvoracheck, K., "A Stone Tablet with an Ancient Hebrew Inscription Attributed to Yehoash, King of Judea - Archaeometry and Epigraphy", *Geological Survey of Israel Current Research*, 13 (2003), pp.109-116.

١٨- ينسب التاريخ التثنوي Deuteronomic History إلى سفر التثنية، السفر الخامس من اسفار التوراة، إلا إنه يقصد به الروايات "التاريخية" التي ادرجت في الأحد عشر سفرا بدءا من السفر الثاني (سفر الخروج) حتى السفر الثاني عشر (سفر الملوك الثاني).

(19)Neil Asher Siglberman, "On Relics, Forgeries and Biblical Archaeology", in: *Religious Studies News/ SBL* edition, Vol. 4, No. 2 (February 2003), as maintained on server: www . sbl-site.org/Newsletter/ 02_2003.

(20) Shanks, *op. cit.*

(21) Cited in: Nadav Shragai, *op. cit.*

(22) Cited in: *Times Online* (January 18, 2003).

(23) Cited in: Shragai, *op. cit.*

(24) Shanks, *op. cit.*

٢٥- ظهر هذا الترجيح واضحا في: المرجع نفسه، كذلك فيما كتبه كما يلي:

Hershel Shanks, "Between Authenticity and Forgery", *Religious Studies News/ SBL edition*, Vol. 4, No. 2 (February 2003), as maintained on server: www . sbl-site.org/Newsletter/

٢٦- وفق الحكايات التوراتية فإن الهيكل الأول هو الذي اقامه سليمان، والثاني هو الذي اقيم في مطلع العهد الفارسي بعد "عودة" اليهود من منفاهم في بابل، اما الهيكل الثالث فهو ما يدعى إلى بنائه على انقاض المسجد الأقصى.

٢٧- تعلن المنظمة أهدافها على الإنترنت كما يلي:
"Long term Objectives", as maintained on server: www. templemountfaithful. Org
(28)"A Major Exciting Event on the Temple Mount", as maintained on server: www. templemountfaithful. Org/news/20030113.htm

٢٩-نفسه.

(30)"More Exiting Information about the King Jehoash Inscription Found on the Temple Mount", as maintained on server: www. templemountfaithful. Org/News/ 20030114.htm

٣١- لم نجد ما يهدينا إلى ان النقش لفت انتباه اي من المتخصصين العرب في علم الآثار او اللغات القديمة ما يمكن ان يشكل مرجعا لنا للتعرف على زيف النقش، فنرانا مضطرين لحصر البحث في ما عرضه الباحثون الإسرائيليون عن هذا الموضوع.

(32) Cited in: Nadav Shragai, "There Is Nothing Else Likd It", *Haaretz English e-Edition* (January 16, 2003).

(33) Cited in: "More on the King Solomon Stone Tablet", as maintained on server: www mailbox.univie.ac.at/~muehelb9/kingofs. html.

(34) cited in: Hershel Shanks, *op. cit.*

(35) Cited in: Nadv Shragai, There is nothing... *op.cit.*

(36) Yuval Goren, "An Alternative Interpretation of the Stone Tablet with Ancient Hebrew Inscription Attributed to Jehoash, King of Judah", as maintained on server: www. bibleinterp. Com/articles/alternative_interpretation.htm

٣٧- نشر هذا التقرير في مجلة المركز كما يلي:
Ilani, S., Rosenfield, A. and Dvoracheck, K., "A Stone Tablet with an Ancient Hebrew Inscription Attributed to Yehoash, King of Judea - Archaeometry and Epigraphy", *Geological Survey of Israel Current Research*, 13 (2003), pp.109-116.

٣٨- نشر غورين تقريره المفصل عن هذه التجربة والخطوات التي اتبعها والأدوات والمواد التي استخدمها مع صور واضحة تبين النتائج المادية التي توصل إليها على الموقع التالي بشبكة الانترنت:
www. bibleinterp. com/presentation/index.htm.

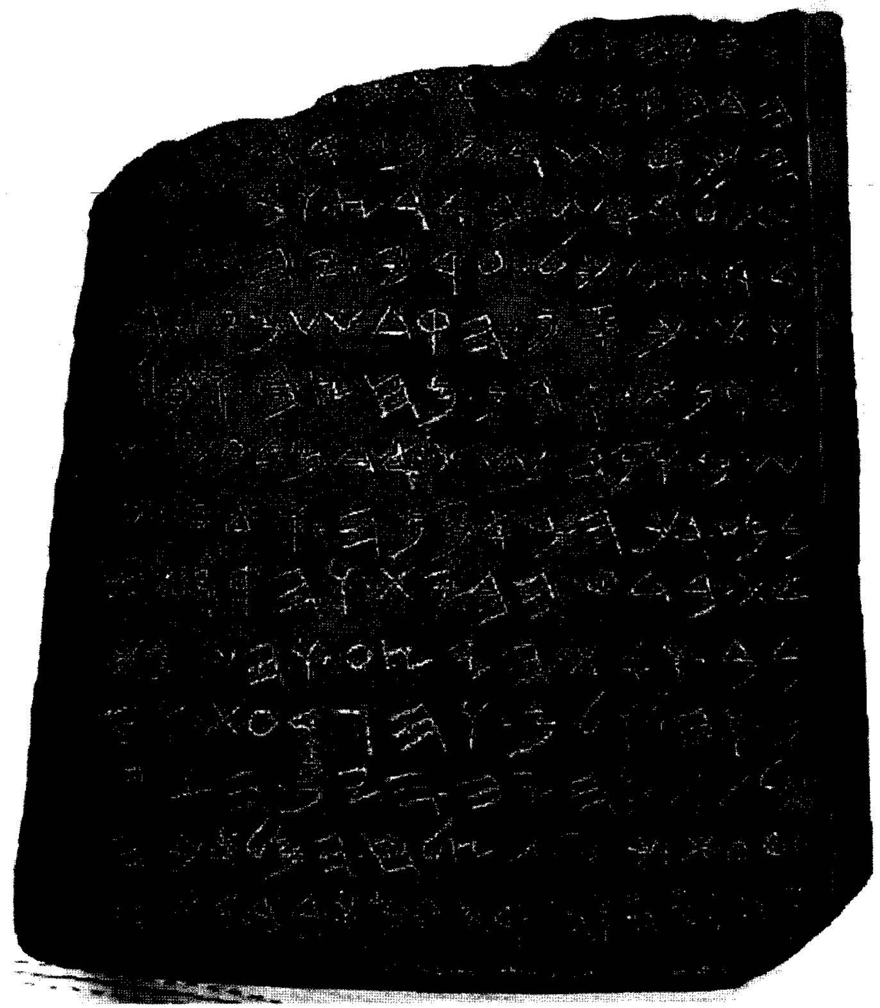
٣٩- في بعض الروايات الدينية أن السيد المسيح كان له أخ من يوسف والسيدة مريم هو جيمس. ووفقا للمؤرخ اليهودي الروماني فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus رُجم جيمس حتى الموت سنة ٦٢ للميلاد.

٤٠- ضمت اللجنة الأولى في عضويتها كلا من: Avigdor Victor Horwitz وShmuel Ahitov من جامعة بن غوريون في النقب، وRonny Reich من جامعة حيفا، و Amos Kloner و Ester Eshel من جامعة بار - إيلان، و Hagai Misgav من الجامعة العبرية في القدس، و Tal Ilan من سلطة الآثار الإسرائيلية. اما اللجنة الثانية فضمت كلا من: Yuval Goren من جامعة تل أبيب، و Avner Ayalon من مركز المسح الجيولوجي لإسرائيل، وElisabetta Buaretto رئيسة مختبر التاريخ بالكربون المشع في معهد فايتسمان للعلوم، وJaques Neguer رئيس دائرة الترميم في سلطة الآثار الإسرائيلية، و Orna Cohen من خبراء الآثار.

٤١- نشرت خلاصات عن تقرير سلطة الآثار الإسرائيلية في: *Archaeology* (of Archaeological Institute of America), June 18, 2003; as maintained on server: www. Archaeology.org/ magazine.

(41) Cited in: "Furor over Temple Mount Construction", Biblical Archaeology Review (March/ April 2000).

٤٢-نفسه.



طُرُقُ الْمُتَلَقِّي فِي إِنْتَاجِ مَعْنَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ
آياتٌ مِنْ سُورَةِ الرَّحْمنِ نَمُوذَجًا

د. خالد عبد الرؤوف الجبر

قسم اللغة العربية - جامعة البترا

ملخص

يتغيّا هذا البحثُ التّعريفَ بالطُّرقِ التي سلَكَها مُتَلَقُّو النّصِّ القرآنيِّ بُغْيَةَ إنتاجِ مَعناهُ، ويَحصُرُها في طريقيْنِ اثنتيْنِ، هُما التّفسيرُ والتّأويلُ؛ ذلكَ بما عَدَّ الشَّرْحَ صِنْوَ التّفسيرِ، وبما أخْرَجَ التّأوُّلَ من طُرُقِ إنتاجِ مَعنى النّصِّ لأنّه لا ينطلقُ من النّصِّ، بلْ من فِكرةٍ عندَ الْمُتَأوِّلِ يَلْوِي عُنُقَ النّصِّ لِكَيْ يُوافِقَها.

وقد فرَّقَ الباحثُ بيْنَ فَهْمِ الْمُتَلَقِّي لِمَعْنَى النَّصِّ، وتَعبيرِه بالكلامِ عن ذلكَ الْمَعْنى، كَما فرَّقَ بينَ التّفسيرِ بما هُوَ نَقْليٌّ ثابتٌ يَنْبَغي أنْ لا يكونَ للرّأيِ أثرٌ فيه، والتّأويلِ بما هُوَ عَقليٌّ مُتغيِّرٌ يعتمِدُ على قُدراتِ الْمُؤَوِّلِ ومَوْقِفِه. وقد استندَ الباحثُ في هذا كلِّهِ إلى ما اسْتَقْصاهُ منْ آراءٍ ونُصُوصٍ لِلعُلَماءِ الْمُسْلِمِين.

وسَعْيًا منهُ لتجسيدِ القضايا النّظريّةِ في صَدْرِ البَحْثِ، أقامَ الباحثُ دراسةً تطبيقيّةً لِمَجْمُوعةٍ من آياتِ سُورَةِ الرَّحْمنِ في اثنينِ وعشرينَ تفسيراً مثّلت اتّجاهاتٍ متباينةً، واتّخذها نَموذَجًا يوضّحُ به الفرقَ بينَ التّفسيرِ والتّأويلِ والتّأوُّلِ، ونظرَ في توظيفِ سياقِ الآياتِ الْجُزْئيِّ، وسياقِها القرآنيِّ الكُلِّيِّ، ومَعارِفِ الْمُتَلَقِّينَ، مِنْ أَجْلِ إنتاجِ معاني تلكَ الآياتِ.

The Recipient's Means in Producing the Meaning of Quran Text: Verses from Sorat AL-RAHMAN as a Case - Study

Dr. Khaled Al-Jaber

Faculty of Arts

University of Petra

ABSTRACT

This research aims at identifying the conducts adapted by the Quran text recipients in order to produce its meaning. Two means; elucidation and interpretation bring the meaning of the text forth. Whereby elucidation is considered to be a way of explaining the text, illumination on the other hand, is not to be considered as one because the meaning does not reside in the text itself but in the mind of the illuminator who twists and transforms the text to suit his/ her own ideas and codes of reference.

The researcher has made clear the difference between the interpreter understanding of the text and his/ her spoken interpretation of the meaning he/ she understood. He also clarifies the difference between the fixed elucidation that explains the text without depending on the interpreter's own ideas and the variable mental interpretation which depends on the interpreter's stands and abilities.

Thus, the researcher has included Moslem scientists' opinions and texts to back up his argument. And in order to reinforce the theoretical issues included in the paper, an applicatory study has been conducted on some verses of Sorat Alrahman and twenty two elucidations that represent different methodologies which have been used as a sample to clarify the difference between elucidation, interpretation and illumination. The researcher has studied the context of the partial verses, the wholistic Quran context and the reception theorists in order to produce the meanings of these verses.

حالاتُ التّلَقّي

قدْ يَبدو للوَهْلَة الأولَى أنّ الْمُتَلَقّي إنّما يَقُومُ بعَكْسِ ما يَقومُ به الْمُبْدِعُ لِفَهْمِ الْمَعْنى وتَجْسيدِه، وتَميلُ النّظرَةُ السّائدَةُ إلى أنّ الْمُبدِعَ يُودِعُ نصّهُ رِسالةً (شيفرَةً) يقومُ الْمُتَلَقّي بتَحْليلِها ليَصلَ إلى الْمَقْصُود، وهذا يَجْعَلُ النّصَّ الإبداعيَّ كأيِّ نصٍّ لغويٍّ آخرَ، بل يُفقدُه إنسانيَّتَهُ ويُحيلُه إلى دائرةِ تَحليلِ الرُّموزِ العسكريّة، وهوَ إنْ كانَ يُلامسُ الحقيقةَ من جانبِ أنّ بعضَ النّصوصِ - كالألغازِ والْمُعَمّى - صِيغَتْ لِتَكونَ كذلكَ، فإنّ نُصوصًا أُخرى كثيرةً لا يَمَسُّها هذا التّحليلُ من قريبٍ ولا من بعيدٍ، لا سيّما تلكَ التي يَصِلُ مَعناها إلى النّفسِ بِغَيرِ واسطَةٍ ولا تَحليل.

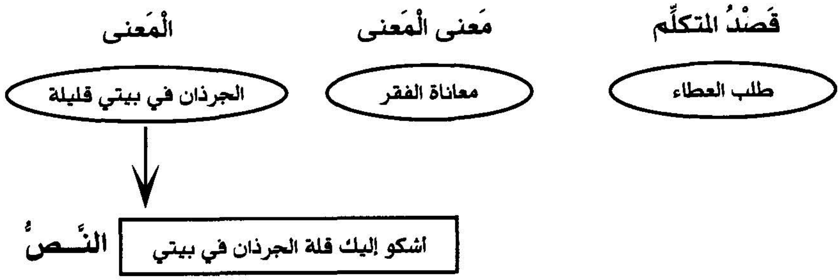
ومن الْمُهِمِّ هُنا أنْ نُعيدَ النّظرَ في وَصْفِ عبد القاهر الْجُرْجانيِّ للكيفيَّةِ التي تترتَّبُ فيها ألفاظُ النّصِّ بِحسبِ ترتُّبِ الْمعاني في نفسِ المبدِع، ثمَّ كيفيَّةِ ترتُّبِ الْمَعاني في نفسِ الْمُتلقّي بحسبِ وُصولِ الألفاظِ إلى سَمْعِه، فالْمُبْدِعُ "لا يستَطيعُ أنْ يجيءَ بالألفاظِ مُرتَّبَةً إلاّ من بعدِ أنْ يُفكِّرَ في الْمَعاني ويُرتِّبَها في نفسِه". أمّا الْمتلقّي فإنَّ "الْمعاني لا تَقَعُ مرتَّبَةً في نفسِه إلاّ من بَعْدِ أنْ تقعَ الألفاظُ مُرَتَّبَةً في سَمْعِه"[١]. ويؤكِّدُ في مواطنَ أُخْرى أنّ المتلقّي لا يَنْظُر إلى مَعاني الألفاظِ مُفرَدَةً حسبُ، إنّما يَحْصُلُ من جُمْلَةٍ مثلِ (ضَرَبَ زيدٌ عَمْرًا يومَ الجُمعة ضربًا شديدًا تأديبًا له) "مِنْ مَجموعِ هذه الكَلِمِ كلِّها على مفهومٍ هُوَ معنًى واحدٌ، لا عدَّةُ مَعانٍ كَما يتوهَّمُه النّاسُ"[٢]، ولا يُدرِكُ المعنى إلاّ "من بعدِ أنْ ينتَهيَ الكلامُ إلى آخرِه"[٣]، وهو ما يؤكِّدُه مرّةً أُخْرَى حينَ يتكلَّمُ على أنّ بعضَ التَّشْبيهِ يُنْتَزَعُ ويُفْهَمُ من مَجموعِ الكلامِ[٤].

ولعلَّ ما يصِفُه عبد القاهرِ يُمثِّلُ الحالةَ المثاليَّةَ للتّلقّي باعتبارِ وُصولِ المتلقّي إلى تَمامِ مَعنى المبدِع ومَقْصدِه، لكنّهُ يَكشِفُ عن حالاتٍ أُخرى من قبيلِ الاستدلالِ بمعنى

ما قـالَ على مَعنى آخرَ يتـضمَّنُه، ويُمكنُ تَمثـيلُ حالاتِ التّلقّي بحسبِ مـا تقدّم في أربَعٍ هيَ:

١ ـ حالَةُ كَمـال التّلقّي: ويَستَدِلُّ فيها المتلقّي بالنّصِّ على المعنى الذي قصدَ إليه المبدِعُ تَماماً من غيـرِ زيادَةٍ ولا نُقصان، ويكشِفُ عن مَقْصَدِهِ وغَرَضِه، ويُمَثِّلُها مثلُ قولِ الأعرابيَّةِ التي عبَّرَتْ للْخَليفَةِ عنْ حاجَتِها بِقِلَّةِ الْجُرذانِ في بيتِها: (اشكو إليْكَ قِلَّةَ الْجُرْذانِ في بيْتي)، وظنَّ أكثَرُ مُتلَقّي كلامِها أنّها تصِفُ حُسْنَ الحالِ، على حينَ فَهِمَ الخليفَةُ المقصودَ بقِلَّةِ القُوت:

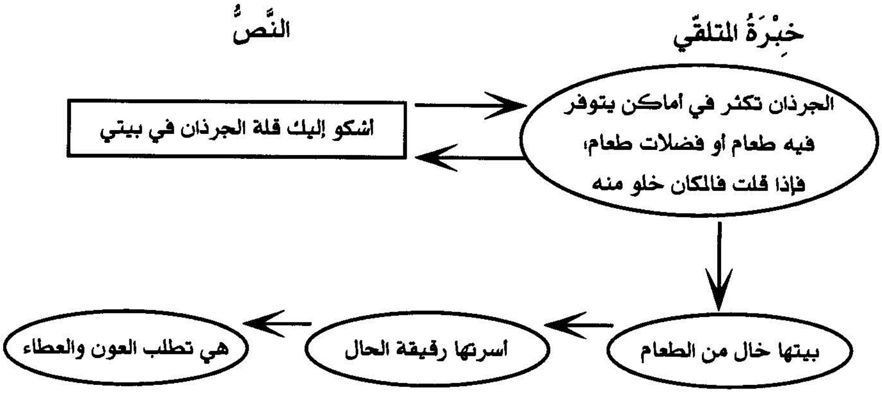
١ ـ عَمَلُ الْمُبدِع



وَيَتَوَصَّلُ الْمُتَلَقِّي إلى قَصْدِ المرأةِ مُستَدِلاً بالنّصِّ على مَعناهُ الظّاهِرِ، لكنَّ فيه تَناقُضاً لا يَسْتَقيمُ فهمُه للعاقِلِ، إذ إنّ قِلَّةَ الجرذانِ مِمّا يُحْمَدُ فَلا يُشْتَكى مِنْهُ، فَيَسْتَدِلُّ بهذا المعنى على مَعناهُ، وهو أنّ قِلَّةَ الجرذانِ دليلُ قِلَّةِ ما تَقتاتُ به، فهيَ تَكثُرُ حيثُ يتوفَّرُ لها طَعامٌ أو فضلاتُ طَعام، وقِلَّتُها دالَّةٌ على انعدامِ شيءٍ من ذلك (خِبْرَةُ المتلقّي). لكنَّ ثَمَّةَ ما يثيرُ تَساؤُلَ المتلقّي عن هَدَفِ المرأةِ، إذْ لِمَ تَلطَّفَتْ في قولِها واتّخذتْ من الإشارةِ مَوْلِجاً ؟ ولِمَ تَشكو إلاّ إذا اعتقدت أنّ مَنْ تُخاطِبُه قادرٌ على أنْ يُعينَها على فقرِها ؟ هذا إلى أنّ بِساطَ الحالِ وهيئَةَ الأداءِ لا بُدَّ دَلاّ على غرضِها من شَكواها، وهو طَلَبُ العَوْنِ

والعطاء :

٢ ـ عَمَلُ المتلقّي



٢ ـ حالَةُ قُصورِ التّلقّي: لكنَّ كَمالَ التّلقّي المتقدِّم قدْ لا ينطَبقُ إلاّ على حالاتٍ قليلة، ودليلُ ذلكَ أنّ بقيَّةَ المتلقّينَ سوى الخليفَةِ في المثال المتقدِّم لَمْ يَعُوا ما الذي تُريدُ إليهِ المرأةُ، وقد يكونُ لَنا أمثِلةٌ كثيرَةٌ أُخرى في هذا القبيلِ، كشَكوى امرأةٍ قِلَّةَ ما يأتيها زَوْجُها لِعُمَرَ (رض) وعليٍّ (كرّم) إلى جِوارِه: (إنّ زوجي يقومُ الليلَ ويَصومُ النّهارَ)، فلَمْ يُدرِكْ عُمَرُ مُرادَها حتّى نبَّهَهُ عليٌّ عليهِ. ولِهذا فإنّ المُتَلقّي قدْ يُقصِّرُ عن مُرادِ المبدِعِ ومَعناهُ، وهو الحالَةُ الأخرى، وذلكَ حينَ يقتَصِرُ المتلقّي على المعنى الظّاهرِ من النّصِّ، ولا يستَدِلُّ به على مَعنىً هُوَ مَعناهُ، وهذا الذي وصَفوهُ بأنْ يُؤتى المتكلِّمُ من سوءِ فَهْمِ السّامعِ. وقد اصطَلَحوا على مثلِ هذه الحالةِ بغَلَطِ السّامعِ في فَهْمِ المرادِ(٥).

٣ ـ حالَةُ فَيضِ التّلقّي: وفيها قَدْ يُخالِفُ المعنى الذي يتوصَّلُ إليهِ المتلقّي ذلكَ الذي أرادَهُ المبدِعُ، لكنَّهُ لا يَقِفُ في فَهْمِه عندَ ظاهرِ المعنى، ولا يتوصَّلُ إلى مقصدِ المبدِعِ، بل يَستَنْبِطُ مَقْصَداً آخرَ غيرَ ذاكَ، ويظَلُّ مَعنى المعنى واحِداً دونَ تغيير، وليسَ بالضّرورةِ أنْ يكونَ هذا الذي توصَّلَ إليهِ مُناقِضاً لما أرادَ إليهِ المبدِعُ، لكنَّهُ ليسَ هُوَ تَماماً. ولعلَّ

خبرَةَ المتلقي، وإلْمامَهُ بما آلَتْ إليه افْهامُ غيره من المتلقّين، هُما ما يَقْدَحُ ذِهْنَهُ ليتوصَّلَ إلى مقصدٍ مُغايرٍ، ويُمْكِنُ التّمثيلُ لهذه الحالة بِما أوْرَده ابنُ رشيقٍ في باب الاتّساع(٦).

فقد علّقَ على تاويلاتٍ متعدّدة لبيتٍ لامرئِ القيسِ قائلاً: "ولعلَّ هذا ما مرَّ قطُّ ببالِ امرئ القيسِ، ولا خطرَ في وهْمِه، ولا وقعَ في خَلَدِهِ ولا رُوعِه"، وحينَ عرضَ لبيتِ ابي نُواسٍ:

ألا فاسقِني خَمْرًا وقُلْ لي هِيَ الخَمْرُ ولا تَسقِني سِرًّا إذا أمكَنَ الجَهْرُ

قالَ: "فزَعَم مَنْ فسَّره انّه إنّما قالَ (وقل لي هيَ الخمْرُ) ليَلْتَذَّ السَّمْعُ بذِكْرِها كما التَذّت العينُ برُؤْيَتِها، والأنفُ بشمِّها، واليَدُ بلَمْسِها، والفَمُ بذَوْقِها. وابو نُواسٍ ما اظُنُّه ذهبَ هذا المَذهبَ، ولا سلَكَ هذا الشِّعْبَ، ولا اراهُ ارادَ إلاّ الخلاعةَ والعبَثَ الذي بَنى عليه القصيدة"، ثُمَّ حاولَ تاكيدَ رُؤْيَتِه بتحليلاتٍ أُخْرى(٧).

وحينَ يعرضُ لبيتِ الفرزْدَق:

أخَذْنا بآفاقِ السَّماءِ عليكُمُ لَنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ

وما ذهبَ إليهِ الكسائيُّ - ممّا علَّمَه الأمينَ والمامونَ - من انّ المقصودَ بالقَمَريْنِ إنّما هُوَ الشّمسُ والقمرُ على جهَةِ التّغليبِ، لأنّ القمرَ دائرٌ في الاستعمالِ اكثرَ من الشّمس، وقَوْلِ المفضَّلِ في تفسيرِ البيتِ: "بل مُرادُه بالقَمَريْنِ جَدّاكَ إبراهيمُ ومُحَمَّدٌ صلّى اللهُ عليهما، وبالنُّجومِ الطّوالعِ انتَ وآباؤكَ الطَّيِّبون"، عقَّبَ القيروانيُّ بقوله: "فأعْجبَ الرّشيدُ بذلكَ ووَصَلَهُ. والفرزْدَقُ ما قصدَ إلى شيءٍ من ذلكَ ولا ارادَهُ، ولا علِمَ انّ الرّشيدَ بعدَه يكونُ اميرَ المؤمنين، وإنّما ارادَ انّ كلَّ مشهورٍ فاضلٍ فَهُو لَنا عليكُم، ومِنّا لا منِكُم، فنَحْنُ اشرَفُ بيتاً، واظْهَرُ فضلاً، وابْعَدُ صوْتاً. إلاّ انّ التي جاءَ بِها المفضَّلُ مُلْحَةٌ افادَتْ مالاً"(٨).

٤ ـ حالَةُ سُوء التَّلقِّي: وهيَ تتَّسعُ لتشملَ غَيرَ الحالاتِ المتقدِّمة، ويدْخُلُ فيها ما يُمكنُ تسميَتُه حِوارَ الطُّرْشانِ، حيثُ لا تَكونُ العبارَةُ مُفْهِمَةً المرادَ، ولا يتوصَّلُ المتلقِّي لمعنىً يحتَمِلُه النّصُّ، أو لا يتوصَّلُ لمعنىً مّا على الإطلاقِ، وليسَت هذه الحالاتُ ممّا نُريدُ الخوْضَ فيه لأنّ الأسبابَ الكامِنَة وراءهُ تزيدُ على الحصرِ، ولا سبيلَ لتحديدِها، وإنّما اقتصرْنا في بحثِنا هذا على حالتَي كَمال التّلقّي وفَيْضِه، بِما أشرْنا في البدْءِ إلى أنّ مفهومَ المتلقّي المقصودَ يرتَكِزُ على كوْنِه واعِياً قادِراً على الفَهْمِ وإنْ بالتّلميحِ والتّعريض.

المُتَلَقِّي وفَهْمُ مَعْنَى النّصِّ

رأى الأستاذُ الجابريُّ أنّ أسرارَ البلاغةِ ودلائلَ الإعجازِ في الكلامِ العربيِّ "المُبينِ كامِنَةٌ في كونِ الأساليبِ البلاغيَّةِ العربيَّةِ تَجعل المخاطَبَ أو المتلقّي يُسهم في إنتاجِ المعنى المَقصودِ بواسطةِ عمليَّةٍ استدلاليَّة، ينتقلُ فيها من خلالِ اللفظِ ومَعناهُ المتَعارَفِ عليهِ إلى المعنى الذي يقصدُه المتكلِّم"[٩] غيرَ أنّ التلقّي لا يَتِمُّ "إلاّ مع تَمامِ فَراغِ البالِ"، وقد لا يَفْهَمُ المتلقّي المعنى "إلاّ بالتّفهُّمِ" سَعْياً وراءَ المعنى والقصدِ[١٠].

وقد تأكّد لَنا أنّ "الكلامَ نفسَهُ هُو الدّالُّ على الْمُرادِ به إذا تَكامَلت شرائطُه"، وأنّ العارفينَ باللغةِ قادرونَ على الاستدلالِ به على مَعانيه، وجازَ أنْ يُفسِّروه، وإنْ تقدَّمَ "البعضُ على البعضِ من حيثُ يتقدّمُ في معرفةِ اللغة، ويُبَرِّز فيها، فيكونُ بهذه الطريقةِ أعرفَ، وهذا إنّما يتفاوَتُ حالُ العلماءِ فيه إذا كانَ الكلامُ في المتشابه وما يلتبسُ"[١١]. وأنّ النّصَّ الذي لا يُعالَجُ إلاّ بالتّأويلِ "يتفاوَتُ تفاوُتاً شديداً، فمنْهُ ما يقربُ مأخَذُهُ ويسهُلُ الوصولُ إليه، ويُعطي الْمَقادَة طَوعاً، حتّى إنّه يكادُ يُداخِلُ الضّربَ الأوّلَ

الذي ليسَ من التّأوُّلِ في شيء، ...، ومنهُ ما يُحتاجُ فيه إلى قدرٍ من التّأمُّل، ومنه ما يدقُّ ويغمُضُ حتّى يُحتاجَ في استخراجِه إلى فضْلِ رويَّةٍ ولُطفِ فِكرَة"(١٢).

وتأكّدَ أيضاً أنّ دلالَةَ النّصِّ الحاسِمَةَ على المعنى نادرَةٌ في النّصوصِ الإبداعيَّة، ومنهم من جعلَها نادرَةً في كتابِ اللهِ وسُنّةِ رسولِه الكريم، من حيثُ كانَ المقصودَ بها "الاستِقلالُ بإفادَةِ المعنى على قَطْعٍ مع انْحِسامِ جِهاتِ التّأويلِ والاحتِمال"(١٣). على أنّ النّصَّ قد يكونُ دالاً على المرادِ أحياناً بذاته، أو بقرينَةٍ تقتَرِنُ إليه، أو يدلُّ هو مع القرينَة، فهو دالٌّ على مَعناهُ بوجْهَيْنِ، إمّا بِمُجَرَّده، وإمّا به وبالقرينَة، وهو الذي توجِبُه اللغَةُ، أمّا ما تشابَهَ على المتلقّي أمرُهُ فهُو غيرُ دالٍّ إلاّ بالعَقْلِ لا بالنّصِّ(١٤)، وبهذا يُصبِحُ المتشابِهُ والمحكَمُ سِيَّيْنِ، لأنّه لا يَجوزُ في الحكمَةِ أنْ يُخاطَبَ بكلامٍ إلاّ ويُرادُ به مَعنىً مّا.

وإذا كانَ العارِفُ باللُّغةِ يستَدِلُّ بالنّصِّ المحكَمِ على مَعناهُ بظاهِره، ويستَغني عن فِكرٍ مُتَجدِّد، وكانَ المتشابِهُ "لا بُدَّ من فِكرٍ مُجَدَّدٍ" لِعُبورِه(١٥)، لأنّهُ "رُبَّما يَدِقُّ ويلتَبِسُ كَما يَدِقُّ كثيرٌ من المدرَكاتِ، فيُحْتاجُ في تمييزِه إلى تكرارِ الإدراكِ والتّأمُّل"(١٦)، فإنّ أمرَ الوصولِ إلى المعنى والتّعبيرِ عنه متعلِّقٌ بطريقَةِ الاستِدلالِ والاستِنْباطِ، فقد يُتَوصَّلُ إلى مَعانٍ كثيرَةٍ أو قليلَةٍ، وتَكونُ هذه القلَّةُ والكثرَةُ "بِحَسَبِ النّظرِ وتكلُّفِ المشقَّةِ وما يُسَهِّلُه اللهُ عزّ وجلّ بفضلِ الذّكاءِ والفطنَةِ نَحْوَ مَعرِفَةِ الكلام"(١٧). وفي هذا بَيانٌ عن أنَّ مُعالَجَةَ النّصِّ غَيْرَ مَرَّةٍ قدْ تُتيحُ مَعانيَ أُخرى لا يُلْتَفَتُ إليها من المرَّةِ الأولى، وأنّ التّفتيشَ عنها وترجيعَ النّظرِ في النّصِّ يَكشِفانِ عن أشياءَ منها قد لا تُواتي أوّلَ الأمرِ.

وقد أشارَ الجاحِظُ إلى دَرَجاتٍ في تلقّي النّصِّ نفسِه حينَ أهدى كُتُبَه في الإمامةِ

للمامونِ بقولِه: "ولَمّا قرا المامونُ كتبي في الإمامةِ فوجَدها على ما امرَ به، وصِرْتُ إليه وقد كانَ امرَ اليزيديَّ بالنظر فيها ليُخْبِرَه عَنها. قالَ لي: قد كانَ بعضُ مَن يُرتَضى عقلُه، ويُصَدَّقُ خبَرُه، خبَّرَنا عن هذه الكتُبِ بإحكامِ الصَّنعة وكثْرَةِ الفائدة، فقلنا له: قَدْ تُربي الصِّفَةُ على العيان! فَلَمّا رايْتُها رايتُ العيانَ قد ارْبى على الصِّفَةِ، فلَمّا فَلَيْتُها ارْبى الْفَلْيُ على العيان كَما اربى العيانُ على الصِّفة"(١٨)، فهذه درجاتٌ في تلقّي النَّصِّ سَماعاً من متلقٍّ آخرَ، ثُمَّ بقراءتِه قراءةً عاديَّة، ثُمَّ بتامُّلِه وفَلْيِه وتفتيشِه.

ويؤكِّدُ اكثَرُ العلماءِ انّ النّصَّ يَجِبُ فَهْمُه كَما ارادَ مُبْدِعُه، لأنّ في غيرِ ذلكَ إضاعَةً لحِكْمَةِ التّخاطُبِ باللغة بينَ النّاسِ، ولذلكَ احترَزَ الغزاليُّ في التاويلِ بانْ قصَرَهُ على الخواصِّ الرّاسخينَ في العلمِ، وهم في رايِهِ الأولياءُ الغارقونَ في بِحارِ المعرفةِ، المتجرِّدونَ من دُنيا الشّهوات، وحرَّمه على العوامِّ لأنّ فَهمَهم قاصِرٌ عن إدراكِ حقيقةِ كثيرٍ من الآياتِ الموهِمَة للتّشبيه. وبهذا رفضَ الظّاهريّون إدراجَ القياسِ والإجماعِ في مصادر التّشريعِ، وصرَّحَ ابنُ حزمٍ قائلاً: "إنّما علينا طلَبُ احكامِ القرآنِ والسّنَنِ الثّابتةِ عن رسولِ اللهِ (ع)، إذ ليسَ الدّينُ في سِواهُما اصلاً، ولا مَعنى لِطَلَبِنا هل أُجْمِعَ على ذلك الحكمِ او اخْتُلِفَ فيه"(٢٠)، وبمِثْلِه ايضاً رفضَ التّاويلَ والإلْهامَ تَمَسُّكاً باوّليَّةِ النّصِّ وظاهرِ ما يدلُّ عليه(٢١)، دونَ القطْعِ بانّ احْتجابَ المعنى دالٌّ على عَدَمِه(٢٢).

لكنَّ النّصوصَ بذاتِها مُتفاوِتةٌ في درجَةِ حاجَتِها إلى التّاويلِ والنّظر، وترْجيعُ النّظرِ فيها قد يُنتَجُ عنه مَعانٍ متعدِّدة، فالمعنى المستَنبَطُ إذنْ لا يُمكنُ انْ يكونَ واحداً في النّصِّ نفسه، "لأنّ الملحوظَ بسيطٌ والمدْروكَ بعيدٌ، والنّاظرينَ كثيرونَ، والباحثينَ مختلفونَ" كما راى المنطقيُّ ابو سليمان، والكثرَةُ في رايه "فاتِحَةُ الاختِلاف، والاختِلافُ جالِبٌ للحيْرَة"(٢٣).

ودرجاتُ الفَهمِ تختلفُ بحسبِ حالاتِ المستَمعِ، "فهُناكَ مَنْ لا حظَّ له في الفهمِ سِوى الاستِلذاذ، كأنّه يسمَعُ الكلامَ ويَلَذُّ لِموَقعه من أذُنيْه حيثُ إنّ حظّه في الاستلذاذِ لا في الفَهمِ، وهُناكَ سَماعُ الشّباب وأربابِ الشّهواتِ الذينَ يؤوِّلونَ الكلامَ حسبَ أحوالِ أنفُسِهم، فإذا كانَ عاشِقاً أوّلَ كلَّ ما سَمِعَه في العشْقِ وإنْ لم يَكُنْ منه. وهُناكَ من يَسمَعُ الكلامَ ويؤوِّله على أحوالِ نفسِه في مُعامَلَتِه مع اللهِ عزّ وجلَّ، وهُوَ سَماعُ المريدينَ، إذ لا مقصدَ لديْهِم سِوى معرفةِ الله، فإذا سَمِعَ ذِكرَ وصْلٍ وهَجْرٍ أو طَمَعٍ أو يأسٍ أنْزَلَها على أحْوالِ نفسِه، وأوّلها تأويلاتٍ تُناسِبُ هذه الأحْوالَ"[٢٤].

وقد يقتَضي فَهْمُ معنى النّصِّ المعرِفَةَ بِسياقِه، لا سيَّما إذا كانَ نصّاً مقروءاً، فالسِّياقُ في النّصِّ الذي يُتَلَقّى سَماعاً مُواكِبٌ للتّلقّي، غَيْرَ أنَّ تلقّي النّصِّ المكتوبِ يُواجهُ عَوائِقَ كَثيرَةً لِما يفتَقِرُ إليهِ أحياناً من تحديدِ سياقِه وتنغيمِه وإعرابِه بِما يُلبِّسُ مَعناهُ، وبهذا برزَتْ قضيَّةُ أسباب النُّزولِ في التّفسيرِ بِما تُساعِدُ على فهمِ الآياتِ، إذ من فوائدِها "الوقوفُ على المعنى وإزالَةُ الإشكالِ. قالَ الواحديُّ: لا يُمْكِنُ تفسيرُ الآيَةِ دونَ الوقوفِ على قِصَّتِها وبَيانِ نُزولِها. وقالَ ابنُ دقيقِ العيدِ: بَيانُ سببِ النّزولِ طريقٌ قويٌّ في فَهمِ معاني القرآنِ. وقال ابنُ تيميةَ: معرفَةُ سببِ النّزولِ يُعينُ على فهمِ الآيةِ، فإنّ العلمَ بالسّببِ يُورِثُ العلمَ بالْمُسَبَّبِ"[٢٥].

ومن الْمَشهورِ الذي هُوَ في حُكْمِ الْمُسَلَّمِ أنْ يُفْهَمَ النّصُّ في ضوءِ شبيهٍ بِه، قريبٍ منه في المعنى واللفظِ، وهذا ما درَجَ عليهِ الشُّرّاحُ والمفسِّرون والمؤوِّلون، إذ الجمْعُ بينَ المتقاربَيْنِ أدلُّ، وقدْ يكونُ قِياسُ النّصِّ الجديدِ على نصٍّ مَعروفٍ مِثلِه ممّا يكشفُ عن بعضِ جَوانبِه، ولهذا شاعَ أنْ يُفسَّرَ الشِّعرُ بالشِّعرِ، والقرآنُ بالقُرآنِ، والحديثُ بالحديثِ، أوْ أيُّها بِنفسِه وبغيرِه .

وينبَغي التَّنبيـهُ في هذا المقامِ على أنَّ مُجرَّدَ فَهْمِ مَعنى النّصِّ إنّما هُوَ الأصْلُ في إنتاجِ مَعناه، وليسَ التّعبيرَ بالكلامِ أو بغَيْرِه عن ذلكَ الذي فُهِمَ[٢٦]، وقد لا تَكونُ عِبارةُ المتلقّي عن المعنى الذي فَهِمَهُ مُمَثِّلَةً حتّى لفَهْمِه هُوَ، وعليهِ فإنّ نَصَّ المتلقّي في التّعبيرِ عن ما يفْهَمُه من مَعاني النّصِّ الإبداعيِّ يَظلُّ خاصّاً به، ولا يُعبِّرُ بالضّرورةِ عن المعنى الذي أُريدَ إليهِ في النّصِّ. ومن هُنا نَفْهَمُ قولَ التّوحيديِّ: "إنّ الكلامَ على الكلامِ صَعْبٌ ... فإنَّهُ يَدورُ على نفسِه، ويلتَبسُ بعضُهُ ببعضٍ"[٢٧]، لأنّه مُحاوَلةٌ في الأصلِ للإمساكِ بمعنى النّصِّ، ثمَّ مُحاوَلَةٌ للتّعبيرِ عن ذلكَ المعنى بِنصٍّ جديد، وبيْنَ النّصِّ الأصليِّ والجديدِ يَظْهَرُ الفرقُ واضِحاً!

طرُقُ المُتَلَقّي في إنتاجِ مَعْنَى النّصِّ

١ ـ تَفسيرُ النّصّ:

يَميلُ الباحثُ إلى عَدِّ التّفسيرِ والشّرحِ بِمَعنى واحدٍ وإنِ اقتَرنَ التّفسيرُ في الأغلبِ الأعمِّ بالنّصِّ القرآنيِّ، والشّرحُ بالشِّعر وغيرِه، لأنّ القضيَّةَ لا تَعْدو أنْ تَكونَ تفريقاً بينَ النّصّيْنِ[٢٩]، فَهُما على هذا الاختِلافِ الطّفيفِ لا يُؤدّيانِ مَعنَيَيْنِ مُختلفيْنِ بينَهُما حدٌّ فاصِلٌ، ولهذا قالَ احَدُ العلماءِ في عُسْرِ تفسيرِ القرآن: "أمّا عُسْرُه فَظاهِرٌ من وجوهٍ، اظْهَرُها انّه كلامُ متكلِّمٍ لَمْ يصِلِ النّاسُ إلى مُرادِه بالسّماعِ منه، ولا إمكانِ الوصولِ إليه، بِخلافِ الأمثالِ والشِّعر، فإنّ الإنسانَ عَلِمَهُ بِمُراد المتكلِّم بانْ يسْمَعَ منه"[٣٠]، كَما توارَدَ على تسْمِيَةِ الشّرحِ تفسيراً عِدَّةٌ من العلماء، مثل ابنِ جنّي الذي سَمّى كُتُبَهُ الشّارِحَةَ لديوان المتنبّي (الْفَسْرَ)[٣١].

والتّفسيرُ في اللغةِ راجعٌ إلى مَعنى الظّهورِ والإبانَة والكَشف، والمفسِّرُ شانُه انْ يكشِفَ

"شانَ الآيَةِ وقصَصَها وَمعناها والسَّببَ الذي أُنْزِلَتْ فيه، ...، فالتّفسيرُ كَشْفُ الْمُغْلَقِ من الْمُرادِ بلفْظِه، وإطلاقُ المحْتَبِسِ عن الْفَهْمِ به"[٣٢]، وقد اشترطَ عبد القاهر انْ يكونَ التّفسيرُ بَياناً للمفسَّرِ، "فلا يَجوزُ انْ يَبْقى من مَعنى الْمُفَسَّرِ شيءٌ لا يؤدّيه التّفسيرُ ولا ياتي عليه، لانّ في تَجويزِ ذلكَ الْقَوْلَ بالْمُحالِ، وهو انْ لا يَزالَ يَبقى في مَعنى الْمُفسَّرِ شيءٌ لا يكونُ إلى العلمِ به سبيلٌ"[٣٣].

وقد قرَنَ السّجلماسيُّ التّفسيرَ بالنّصوصِ غَيْرِ المستقلّةِ بذاتِها في الدّلالةِ، الْمُفْتَقِرةِ إلى غَيْرِها لإبْهامٍ فيها عَرَضاً او قَصْداً، وجَعَلَهُ قَسيمَ البَيانِ الذي تستقلُّ فيه النّصوصِ بذاتِها في الدّلالة[٣٤]، على حين اشارَ بعضُهم إلى انّ تَفاسيرَ السَّلَفِ تختلفُ من جِهَةِ انّهم قريبو عَهْدٍ بلِسانِ العربِ، وانّهم كانوا يُدرِكونَ تلكَ المعاني كلَّها من غيرِ توقُّفٍ ولا تَعلُّم، ولذلك كانت اكثَرُ تَفاسيرِهم "شَرحَ لُغَةٍ ونَقْلَ سببٍ ونَسْخٍ وقصصٍ"[٣٥]، وبسببٍ من هذا راى ابنُ عاشورٍ انَّ عدَّ التّفسيرِ عِلْماً تسمُّحٌ، ولا يُقبَلُ بعدَّه كذلكَ إلاّ كَما لَو كانَ شَرْحُ الشِّعرِ عِلْماً[٣٦].

إنّ المفسِّرَ الشّارحَ يدْخُل في مفهومِ المتلقّي بما لَهُ من حضورٍ في إنتاجِ مَعنى النّصِّ، لكنَّهُ يَسِمُ المعنى بِسِماتٍ خاصَّةٍ قدْ تُخالفُ المعنى الْمُرادَ، لانّهُ في الأصلِ منبَثِقٌ في التّفسيرِ والشّرحِ من معرفَةٍ وخِبْرَةٍ وبيئةٍ اجتِماعيَّةٍ وعلميّةٍ وثقافيَّةٍ، ويُباشِرُ "قراءتَهُ وهو مُنْطَوٍ سَلَفاً على انساقٍ معرفيَّةٍ قبْلِيَّةٍ سابِقَةٍ على حدَثِ القراءة، تُسْهِمُ في تَكييفِ فَهْمِه لمَعنى المقروء، او ادائه له"[٣٧]، وإذا سلَّمْنا بانّ النّصَّ يُنْتَجُ اصلاً في ظروفِه الخاصَّةِ مِمّا يُقابِلُ ما تقدّم، بمَعْنَى انَّ لَهُ حُدوداً خاصَّةً بِه تَحْكُمُ مَعْناهُ الّذي يُريدُهُ مُبْدِعُهُ[٣٨]، فإنّ توقُّعَ مُغايَرَةِ فَهْمِ المتلقّي لمقصودِ المبدِعِ امرٌ يكادُ يكونُ طبيعيّاً منطقيّاً لا سبيلَ إلى دَفْعِه[٣٩].

لقد اكتَظَّ تُراثُنا التّفسيريُّ بالتّنازُع حَوْلَ كيفيَّةِ إدراكِ المعنى في القرآنِ، وتَمَحْوَرَ "هذا التّنازُعُ حوْلَ اتِّجاهَيْنِ، أحدُهما يُقدِّسُ المأثورَ بالسَّماعِ، والثّاني يُعلي من شأنِ العقلِ والاجتِهاد في تقديمِ ما يتـرتَّبُ على إعمالِ الرّأي"(٤٠)، ووقَفَ كثرَةٌ من السّلَفِ في تفسيرِهم عندَ حُدودِ النّصِّ، باعتِبارِه مُستقِلاً لا يَحْتاجُ شيئاً من خارِجه في الاستِدلالِ على مَعانيه(٤١)، وزادَ أهلُ الظّاهرِ بأنْ أخذوا بِظَواهرِ النّصوصِ في مَعناها، فلا يُضيفونَ شيئاً من عندِهم، ولا يحذِفونَ من مؤدّاها البسيطِ شيئاً، وأنْكَروا أنْ يكونَ في القرآنِ رمزٌ، وإنّما هُوَ حقٌّ على ظاهره(٤٢).

ومُسْتَنَدُ أصْحابِ النّقلِ والرّوايةِ في التّفسيرِ كامِنٌ في أنّ الأوائلَ كانوا أقرَبَ عهداً بالنّصِّ، وهمْ لذلكَ أدْرى بمعانيهِ ومقاصِده، ونَظروا في أيِّ تفسيرٍ يُخالفُ المأثورَ بوصْفه خُروجاً على ذلكَ الفَهْمِ(٤٣)، مُتّكِئينَ على رِواياتٍ وآثارٍ لَمْ تُفْهَم حقَّ فَهْمِها، مُتوجِّسينَ خِيفَةً من أنْ يقَعوا في المَحظورِ. ورغمَ علمِهم أنّ القرآنَ أُنْزِلَ هُدىً للنّاسِ، وأنّه حُجَّةُ اللهِ على خَلقِه، وأنّه لا يَكونُ حُجَّةً إلاّ بَعدَما يُعْلَمُ تفسيرُه، وأنّ طلبَ تفسيرِه واجِبٌ، فإنّهم توقّفوا عندَ حدِّ قولِه عليهِ السّلامُ: (مَنْ قالَ في القرآنِ بِغَيْرِ علمٍ فلْيَتَبوأْ مقعَدَه من النّار)، وفي رِوايَةٍ أُخرى: (مَنْ فسَّر القرآنَ برأيِه)(٤٤).

ويبدو أنّ ثَمَّةَ خَلْطاً في الفَهْمِ بيْنَ التّفسيرِ بالرّأيِ والتّفسيرِ بِغَيْرِ المأثورِ، إذ إنّ بعضَ المفسِّرينَ يُوظِّفونَ الرّواياتِ المأثورةَ والنُّقولَ في التّفسيرِ، لكنَّهم يَصِلونَ إلى غيرِ ما يَصِلُ إليهِ غيرُهم، فالأحاديثُ المتقدِّمَةُ لا تُحَرِّمُ النّظرَ في النّصِّ القرآنيِّ أجْلَ الوصولِ إلى مَعناهُ، وإنّما تُحرِّمُ التّفسيرَ بِغَيْرِ عِلْمٍ قَصْداً إلى الرّأي، ويَظْهَرُ ذلكَ من قوْلِ أبي بَكرٍ (رض) حينَ سُئِلَ عنْ الأبِّ في قولِه تعالى(٤٥): (وفاكِهَةً وأَبّاً)، فأجابَ: "لا أدري ما الأبُّ! فقيلَ له: قُلْ من ذاتِ نفسِكَ يا خليفَةَ رسولِ اللهِ. قالَ: أيُّ سَماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ

تُقلُّني إذا قلْتُ في القرآنِ بما لا أعْلَمُ"[٤٦].

كَما نَرى جِلاءَ ذلكَ الخلْطِ في رواياتٍ كثيرَةٍ أُخرى، فالسّيوطيُّ يُقرِّرُ أنّ التّفسيرَ بالرّأي يقصَدُ به إلى تفسيرِ الآيَةِ لأجْلِ مذهَبٍ حادثٍ يعتَقدُه المفسِّرُ، ولا سيَّما إذا كانَ للصّحابةِ والتّابعينَ والأئمَّةِ في الآيةِ تَفسيرٌ مّا[٤٧]، وردَّ الفضلُ بنُ عيسى على أحَدِ منتَقديه بأنّه يُفسِّرُ القرآنَ برأيه قائلاً: "فَهل تَراني أحرِّمُ حَلالاً أوْ أُحلُّ حَراماً ؟"[٤٨]، ورأى الماورديُّ أنّ بعضَ المُتورِّعينَ قد حملَ حديثَ الرّسولِ (ع) في تحريمِ التّفسيرِ بالرّأي "على ظاهره، وامتَنع من أنْ يستَنبطَ معاني القرآنِ باجتهاده لوْ صَحبَهاالشّواهِدُ، ولَمْ يُعارِضْ شواهِدَها نصٌّ صريحٌ"[٤٩].

والوصولُ إلى مَعنى النّصِّ في التّفسيرِ بالنّقلِ أو الرّوايةِ والمأثورِ ليسَ يسيراً على ما يُظَنُّ، بل هُوَ أعْسَرُ مسْلَكا من النّظر في النّصِّ دونَ رُجوعٍ إلى رواياتٍ ورَدَتْ عنهُ، ويتَطلَّبُ تحديدَ الرّوايةِ ومصْدَرَها ورُتْبَتَها: أهيَ عنِ الرّسولِ (ع)، أمْ عنِ الصّحابَةِ، أم التّابعينَ، وينبَغي التّثبُّتُ من دِقّتها وسَنَدِها حتّى لا يَكونَ التّفسيرُ ضرباً من الْهَذَيانِ، وأهلُ هذا النّهجِ يعتَمدونَ التّفسيرَ اللغويَّ في آخرِ المراتِبِ بعدَ انْعِدامِ نَقْلٍ يُطْمَأنُّ إليه[٥٠].

وقد استَنَد أصحابُ التّفسيرِ بالرّأيِ والدّرايَةِ والعقلِ إلى حُجَجٍ منطقيَّةٍ في جَوازِ طريقَتِهم في مُعالجةِ النّصِّ لِفَهْمِ مَعناه، إذ إنّ ما رُويَ عن النّبيِّ (ع) في التّفسيرِ قليلٌ، واللهُ تعالى "لَمْ يامُر نبيّهُ بالتّنصيصِ على الْمُرادِ"، ولهذا أضْحى "العلْمُ بالْمُراد يُسْتَنْبَطُ بأماراتٍ ودلائلَ، والحكمَةُ فيه أنّ اللهَ تعالى أرادَ أنْ يتفكَّرَ عِبادُه في كِتابِه ... فَصارَ ذلكَ دليلاً قاطِعاً على جَوازِ التّفسيرِ من غيرِ سَماعٍ من اللهِ ورسولِه" [٥١].

ومن الجديرِ بالذّكر أنّ بعضَ المفسِّرينَ تفهَّموا خُطورةَ التّوقُّفِ بالتّفسيرِ عند

المنقولِ، لارتباطِ التفسيرِ بالعلومِ الأخرى ولما يؤدّيه من وظيفةٍ معرفيَّة وفكريَّة، ولأنّه يُناقِضُ الحكْمَةَ القائلةَ بِصلاحِ النّصِّ لكلِّ زمانٍ ومَكان، وقد نتجَ عن الولَعِ بالتّوقيفِ والنّقلِ انْ اصْبَحَ النّاسُ يَغْفرونَ فيهِ "النّقلَ ولو كانَ ضَعيفاً او كاذباً، ويتّقونَ الرّأيَ ولو كانَ صَواباً حقيقاً"، ولذلكَ فإنّ كثيراً من التّفاسيرِ إنّما هيَ "عالَةٌ على كلامٍ سابقٍ بحيثُ لا حظَّ لمؤلّفه إلاّ الجمْعَ على تَفاوُتٍ بينَ اختِصارٍ وتطويل"، ولهذا آلَ الأمرُ بالتّفسيرِ إلى انْ اصْبَحَ "تسجيلاً يُقَيِّدُ بِه فَهْمُ القرآنِ، ويُضيِّقُ به مَعناه"[٥٢].

ولَمْ تَكُ هذه النّظرَةُ مِمّا رآهُ الدّارِسونَ حديثاً حسبُ، إنّما هيَ ضارِبَةٌ بجذورِها في التّراثِ بِعُمقٍ، فقد نَعى الغزاليُّ على اولئكَ الذينَ يقتَصِرونَ في تفسيرِهم على حِكايَةِ المنقولِ، ولَمْ يُسمِّهم مُفسِّرينَ بلْ جعلَهم مُؤدّينَ لِما سَمِعوا، فهم مثلُ حَفَظَةِ القرآنِ وحامِلي الأخبارِ والأحاديثِ، وهؤلاءِ وإنْ كانَ لَهم دورٌ إيجابيٌّ ففي النّقلِ والحفظِ لا غيرَ، "ودرَجَةُ الحافظِ النّاقلِ كدَرَجةِ مُعلِّمِ القرآنِ الحافظِ له، ودرَجَةُ من يعرفُ ظاهرَ مَعانيهِ كدَرَجةِ المفسِّرِ، ودرجَةُ من يعتَني بعلْمِ اسامي الرّجالِ كدرَجة اهلِ النّحوِ واللغة، لأنّ السَّنَد في الرِّوايَةِ آلةُ النّقلِ"، وهؤلاء جَميعاً عُلَماءُ القشورِ والأصدافِ[٥٣].

ودَعا الغزاليُّ إلى استنْباطِ العلومِ من القرآنِ، لا بقصدِ العلومِ الطّبيعيّة حسبُ، وإنّما العلوم التي لا تتحقّقُ إلاّ لأربابِ الفَهمِ والمختصّينَ بالفُيوضات، ومثلُها لا يتحقّقُ بمُجرَّدِ الوقوفِ على ظاهرِ النّصِّ، لأنّ "مُجرَّدَ ظاهرِ التّفسيرِ لا يُشيرُ إلى ذلك، بلْ كلُّ ما اشْكَلَ فيهِ على النُّظّارِ، واختلفَ فيه الخلائقُ في النّظريّاتِ والمعقولات"، ورأى أنّ هذا العلمَ لا يقعُ في القرآنِ بتفصيلاتِه، بلْ فيهِ رموزٌ تُشيرُ إليهِ، وهيَ لا تتأتّى إلاّ بالعُبورِ من القِشْرِ إلى اللُّبِّ[٥٤].

ويَميلُ الباحثُ بعدَ هذا الإيجازِ إلى جَعلِ التّفسيرِ مقصوراً على النّقلِ والرّوايَةِ

والأثَر، وإلى انّه ممّا يتعلّقُ بفَهْمِ المعنى الظّاهر للنّصِّ دونَ تعمُّقٍ فيه، فَهُوَ سطْحيٌّ يُعالِجُ القُشورَ بأنْ يَكْشِفَ وَجْهَ النّصِّ لا اكثَرَ، سواءُ اكانَ ذلكَ بتفسيرِ بعضِ كلماتِه، ام بذِكرِ سِياقِه ومُلابَساتِه، امْ بشَرْحِ مُجْمَلِ عِبارَةِ النّصِّ بِعبارَةٍ أُخرى تُساويها(؟) في المعنى.

٢ ـ تأويلُ النّصّ:

إذا كانَ التّفسيرُ والشّرحُ يَتعامَلانِ مع المعنى الظّاهرِ السّطحيِّ للنّصِّ، ويُعالِجانِ قُشورَهُ، فإنّ مُجْمَلَ تعريفاتِ التّأويلِ دالَّةٌ على انَّهُ يُعنى بِمَعنى المعنى، وبما يَحجُبُه اللفْظُ الكثيفُ من مَعنىً لطيفٍ، فَهُوَ صَرْفٌ للفظِ عنْ ظاهرِ مَعناهُ إلى مَعنىً يحْتَمِلُه بِدَليلٍ يعضُدُه حتّى يصيرَ اغْلَبَ على الظّنِّ من المعنى الظّاهرِ[٥٥]، وعلى هَدْيٍ من هذا عالَقَ بعضُ العلماء بينَ التّأويلِ والْمَجازِ، فجَعَلوه شَبيهاً بالبَحثِ عن المقصود بالْمَجازِ في النّصِّ بما هُوَ صَرفٌ للمعنى عن دلالةِ النّصِّ الظّاهرةِ بقرينَةٍ تكشِفُ المرادَ[٥٦].

ويرتَبِطُ التّأويلُ في الفكر العربيِّ الإسلاميِّ بمفهومَي الظّاهر والباطن، وتَعدُّدِ وُجوهِ القرآنِ الكريمِ، ويروونَ في هذا المعنى احاديثَ فيها[٥٧]: (إنّ للقرآنِ ظَهْراً وبَطْناً وَحدّاً ومَطْلَعاً)، ورِواياتٍ أُخرى عن الصّحابَةِ فيها عن ابنِ عبّاسٍ قولُه[٥٨]: "القرآنُ ذَلولٌ ذو وُجوه، فاحْمِلوهُ على احسنِ وُجوهِه"، وقولُ أبي الدّرداء[٥٩]: "لا يَفْقَهُ الرّجلُ كُلَّ الفقْهِ حتّى يَجْعَل للقرآنِ وُجوهاً"، ولعلّها هي الوجوهُ التي قصدَ إليها ابنُ عبّاسٍ بقولِه[٦٠]: "أنْزَلَ اللهُ القرآنَ على اربَعةِ اوْجُه: حَلالٍ وحَرام، ووجهٍ لا يسَعُ احداً جَهالَتُه، ووجْهٍ تَعرِفُه العربُ، ووجهِ تأويلٍ لا يعلَمُه إلاّ اللهُ".

وفي رِوايةٍ أُخرى ذكرَها الطَّبرْسيُّ: "انّهُ قسّمَ وجوهَ التّفسيرِ على اربَعةِ اقسام:

تفسيرٍ لا يُعْذَرُ أحَدٌ بجَهالتِه، وتفسيرٍ تعرفُه العربُ بكلامِها، وتفسيرٍ يعرفُه العلماءُ، وتفسيرٍ لا يعرفُه إلاّ اللهُ عزّ وجلّ". ويفصِّلُ الطّبرسيُّ القولَ فيها قائلاً: "فأمّا الذي لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالَتِه فهوَ ما يَلزَمُ الكافّةَ من الشّرائع التي في القرآنِ وَجُمَلِ دَلائلِ التّوحيد، وأمّا الذي تعرفُه العربُ بلِسانِها فهوَ حقائقُ اللغةِ وموضوعُ كلامِهم، وأمّا الذي يعلَمُه العلماءُ فهوَ تأويلُ المتشابِه وفُروعُ الأحكامِ، وأمّا الذي لا يعلَمُه إلاّ اللهُ فهوَ ما يَجري مَجرى الغيوبِ وقيامِ السّاعة"(٦١).

وقد اختلفت تأويلاتُهم للنُّصوصِ المتقدِّمَة، فمنْهُم مَنْ رأى "أنّ ظاهرَ الآياتِ تِلاوَتُها، وباطِنَها التّأويلُ"، ورأى بعضُهم أنّ ظَهرَها ما ظَهَر منها لأهلِ العلمِ بالظّاهرِ، وبطْنَها ما تضمَّنَتْهُ من الأسرارِ التي أطْلَعَ اللهُ عليْها أرْبابَ الحقائق(٦٢)، وينقلونَ في هذا المعنى روايةً عن ابنِ مسعودٍ (رض) أنّه قالَ: "أمّا الظّهرُ والبطنُ ففي مَعناهُ أوجُه، أحدُها أنّكَ إذا بَحثْتَ عن باطِنِها وَقِسْتَهُ على ظاهِرِها، وَقفْتَ على مَعناها"(٦٣)، وهي روايةٌ ظاهرَةُ التّلفيقِ، إذ قياسُ الباطِنِ على الظّاهرِ يقتَضي مَعْرفَتَه أصلاً ليُقاسَ، فإذا عُرِفَ فما الدّاعي لِقياسِه بِه؟

بهذا الفَهْمِ يُضحي الباطِنُ أهَمَّ من الظّاهرِ لأنَّ فيهِ الْمُبْتَغى، وعليهِ التّعويلَ في فَهْمِ المقصودِ، ويُصبِحُ التّأويلُ هُوَ المسارَ الوحيدَ لِعُبورِ الظّاهرِ إلى الباطِنِ، ولهذا مالَ الشّاطبيُّ إلى أنَّ كُلَّ مَنْ زاغَ وَمالَ عنِ الصِّراطِ فَبِمِقدارِ ما فاتَهُ من باطِنِ القرآنِ فَهْماً وعِلْماً، وكلَّ من أصابَ الحقَّ وصادَفَ الصّوابَ فَعلى مِقدارِ ما حصلَ له من فَهْمِ باطِنِه، إذِ الباطِنُ غالباً ما يحوي المعاني التي بها تُشْهَدُ الرُّبوبيَّةُ وتَتَحقَّقُ العبوديَّةُ(٦٤).

ومَدارُ قضيَّةِ التّأويلِ قَبولاً ورَدّاً نابعٌ من آيَةِ الرّاسِخينَ في العلْمِ، وهيَ قولُه تعالى(٦٥): (هُوَ الذي أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ منهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكِتابِ وأُخَرُ

مُتشابهاتٌ فامّا الّذينَ في قُلوبِهم زَيْغٌ فيَتّبِعونَ ما تَشابَهَ منه ابْتغاءَ الفِتْنَةِ وابْتغاءَ تاويلِه وما يَعْلَمُ تاويلَهُ إلاّ اللهُ والرّاسِخونَ في العِلْمِ يَقولونَ ءامَنّا به كلٌّ من عنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكّرُ إلاّ أولوا الألبابِ)، وقد اشْكَلَتْ هذه الآيَةُ حتّى بلَغَتْ وُجوهُ تفسيرِ المتشابِه فيها ما يَرْبو على خَمْسَةَ عَشَرَ وَجْهاً، واختلفَ المفسِّرونَ في الوقْفِ على (إلاّ اللهُ)، فمنهُم مَنْ جعلَهُ الأصْلَ، ومنهم مَنْ وقَفَ على (في العلْمِ) وجعلَ الكلامَ بعدَهُ مستأنَفاً[٦٦].

فَممّا ذكرهُ الشريف الرّضيُّ - بعدَ انْ اتى على الأقوالِ المختلفةِ في الآيَةِ - انّ العلماءَ المحقِّقينَ يَقِفونَ "على منزلَةٍ وُسْطى وطريقَةٍ مُثْلى، فلا يُخرِجونَ العلَماءَ ههنا عَن ان يَعلَموا شيئاً من تاويلِ القرآنِ جُمْلَةً، ولا يُعطونَهم منزلَةَ العلمِ بجَميعِه، والاستيلاءِ على قليلِه وكَثيرِه، بل يقولونَ: إنّ في التّاويلِ ما يعلَمُه العلماءُ، وفيهِ ما لا يعلَمُه إلاّ اللهُ تعالى، من نَحوِ تعيينِ الصّغيرَةِ، ووقْتِ السّاعةِ، وما بيْنَنا وبيْنَها من المدَّةِ، ومقاديرِ الجزاءِ وما اشبَهَ ذلكَ"[٦٧]، ويتّفِقُ الزّركشيُّ مع هذا الفهْمِ بِلا خِلافٍ[٦٨]. وهؤلاءِ مالوا إلى انّ الكلامَ تَمَّ عندَ قولِه تعالى (إلاّ اللهُ)، وانّ الرّاسخينَ يَعلَمونَ تاويلَهُ بردِّ المتشابِه إلى المحكَمِ، والاستِدلالِ على الخفيِّ بالجليِّ، وعلى المختَلَفِ فيهِ بالمتّفَقِ عليه، واللهُ يعلَمُه بالعِلمِ القديمِ، لا بتَذكُّرٍ ولا تفكُّرٍ ولا دَليلٍ[٦٩].

امّا الذينَ وقَفوا على قولِه (إلاّ اللهُ)، فمقصودُ البَحثِ عندَهم انّ مُحْكَمَ القرآنِ يُعْمَلُ به، ومتشابِهَهُ يُؤْمَنُ به، ويُوْقَفُ في تاويلِه إنْ لَمْ يُعيِّنْهُ دليلٌ قاطِعٌ[٧٠]. وامّا مَنْ قالَ بانّه ليسَ في القرآنِ شيءٌ استاثَرَ اللهُ بعلْمِه، "بل اوْقفَ العلماءَ عليه، لانّه تعالى اوْرَدَ هذا مدحاً للعلماءِ، فلو كانوا لا يعرِفونَ مَعناهُ لَشارَكوا العامَّةَ وبطَلَ مدحُهم"، ووقفَ هؤلاءِ على(في العلمِ)، لانّ مقصودَ البحثِ عندَهم انّ الكتابَ فُصِّلَت آياتُه وبُيِّنَت[٧١]، ولانّ حديثَه (ع)[٧٢]: (وبيْنَهما مُتشابِهاتٌ لا يعلَمُهنَّ كثيرٌ من النّاسِ) دالٌّ على انّ

القليلَ من النّاسِ يعلَمُها[٧٣].

وإذا جازَ للباحثِ أنْ يُدْلِيَ برأيه، فإنّ صَريحَ الآيَة دالٌّ بما لا يَقْبَلُ شَكّاً على:

١ - أنّ القرآنَ فيه مُحْكَمٌ وفيه مُتشابهٌ، وإذا كانَ المحكَمُ هُوَ المستَقلَّ بذاته في الدّلالةِ على مَعناهُ، غيْرَ المحتاجِ إلى غيره في تفسيره وفَهْمه، الظّاهرَ مَعناهُ من ظاهرِ لفْظِه، فإنَّ قِسْماً من القرآنِ يتَّصِفُ بالْمُحْكَمِ، والمتشابهُ يُمثِّلُ القِسْمَ الآخرَ منهُ!

٢ - أنَّ للْمُتَشابِهِ من القرآنِ تأويلاً بحُكْمِ النّصِّ، والخلافُ قائمٌ على اشتراكِ الرّاسخينَ في العلمِ في فَهْمِه، وليسَ على وُجودِه في الأصلِ من عَدَمِه .

٣ - أنَّ ذَمَّ طَلَبِ تأويلِ المتشابه من القرآنِ مُعَلَّقٌ بالذينَ في قلوبِهم زَيغٌ لا بِعامَّةِ طالبي التّأويلِ، وبما يبتَغي أولئكَ الفِتْنَةَ، فإنْ بطَلَتِ العِلَّةُ بطلَ المعلولُ، وعليه فإنّ النّصَّ يَحْكُمُ بوُجوبِ طلبِ التّأويلِ على أنْ لا يكونَ ابتغاءَ الفتنَةِ، وأنْ لا يكونَ مأخوذاً عَن مثلِ أولئك إنْ عَلِموا.

٤ - أنّ المتشابِهَ - بما يمثِّلُ نسبَةً لا بأسَ بها من آياتِ الكتابِ العزيزِ - هُوَ مَناطُ الخلافِ بيْنَ المسلمينَ، لأنّه ممّا يُخْتَلَفُ فيه لِعَدَمِ ظُهورِ مَعناهُ من ظاهرِ لفْظِه، ولَمّا كانت الآياتُ الموهِمَةُ بالتّشبيهِ والتّجسيمِ داخِلَةً فيه، وكانَ فَهْمُها على غيرِ المرادِ ممّا يُضِلُّ ويُخرِجُ من المِلَّةِ، كانَ فَهْمُه وتأويلُه على الوَجْهِ الْمُرادِ أصلاً من أصولِ الدّينِ والاعتِقاد، وإلاّ كانَ في القرآنِ ما يَحْتَمِلُ النّقيضَيْنِ.

٥ - أنّ الخِطابَ بالمهمَلِ ممّا لا يَجوزُ على اللهِ أنْ يُخاطِبَنا بِه، وإلاّ انتقضت الحِكْمَةُ من الخِطابِ أصلاً، والخِطابُ بما لا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاّ هُوَ -جلَّ شأنُه- مُماثِلٌ للخطابِ بالمهمَلِ، إلاّ إذا كانَ ممّا أرادَ به أنْ يختَلِفَ النّاسُ فيه، وعلى هذا يَكونُ تعالى سبباً في اختِلافِهم وهو يَدعوهم إلى نبْذِ ذلكَ، ويَنعى على من فرّقوا دينَهم شِيَعاً، وفَرِحَ

كلُّ حزبٍ بِما لديْهِم[٧٤].

٦ ـ أنَّ اللهَ تعالى أمرَ بتدبُّرِ القرآنِ، والتّدبُّرُ لا يكونُ للمُحْكَمِ بما كانتْ آياتُه ظاهِرةَ المعنى، وإنّما يكونُ لِما تَشابَهَ منهُ، ولَمّا كانَ مُتلقّو القرآنِ العاديّونَ غيرَ قادرينَ على الاستِنباطِ والتحليلِ، وكانَ الرّاسخونَ في العِلْمِ هُمُ المقصودينَ بالتّدبُّرِ قبْلَ غَيرِهم، فقد بانَ أنّهم يعلَمونَ تاويلَهُ بتدبُّرِهم وتقصّيهم وتحرّيهم.

٧ ـ انّ قِرانَ هذه الآيةِ بقوله تعالى: (لَعَلِمَهُ الّذينَ يستَنْبِطونَه منهُم) يدلُّ على أنَّ القَصْدَ إلى المتَشابهِ، والأمرُ هُنا اظْهَرُ من انْ يُتاوَّلَ، فرَدُّ المختلَفِ فيهِ إلى ما يَفْتَحُ إغلاقَهُ من النّصِّ القرآنيِّ، أو حديثِ الرّسولِ، أو عُقولِ الرّاسِخينَ في العلمِ يَكشِفُ عن مَعناهُ .

وعلى ما تقدَّمَ فإنّ التّاويلَ ثابتٌ بحُكمِ النّصِّ، ولا يَجوزُ أنْ يُنْفى عِلْمُ الرّاسخينَ به، وإلاّ فإنّ الحجَّةَ لا تَقومُ على النّاسِ باتِّباعِ الكتابِ كلِّه، بل باتّباعِ بعضِه، ولو كانَ ذلكَ كذلك، لَكانَ بَعضُ الكِتابِ حُجَّةً وبعضُهُ ليسَ حُجَّةً، وهذا ضَربٌ من المحالِ[٧٥]، ولِهذا رأى المعتَزِلَةُ أنّ التّاويلَ "يَجِبُ أنْ يكونَ مَعلوماً للعُلَماءِ، لا مِنْ كلِّ وجْهٍ يَصِحُّ أنْ يُعْلَمَ عليهِ، وإنّما يَجبُ أنْ يكونَ في الوجْهِ المقصودِ مَعلوماً فقط، فامّا ما عَدا ذلكَ فالواجِبُ أنْ يُنْظَرَ فيه، فَما دلَّ عليهِ الدّليلُ يُعْلَمُ دونَ ما لا دليلَ عليه"[٧٦].

وقد بلغَ التّاويلُ عند المتصوِّفَةِ والمناطِقَةِ حدّاً لَمْ يبلُغهُ عندَ غيرِهم، فمِمّا يُؤثَرُ عن سَهلِ بنِ عبدِ اللهِ التُّستَريِّ قولُه: "لَوْ أُعْطِيَ العبدُ بِكُلِّ حرفٍ من القرآنِ ألفَ فَهْمٍ لَمْ يبلُغْ نهايَةَ ما اوْدَعهُ اللهُ في آيةٍ من كِتابِه، لأنّه كلامُ اللهِ، وكَلامُهُ صفتُه[٧٧]، وكَما أنّه ليسَ للهِ نِهاية، فكذلكَ لا نِهايةَ لِفَهْمِ كلامِه. وإنّما يَفْهَمُ كلٌّ بمقدارِ ما يُفْتَحُ عليه"[٧٨]، وهوَ ما يُفْهَمُ من تعريفِ أبي سليمانِ المنطقيِّ لما سَمّاهُ بلاغَةَ التّاويلِ، وقالَ إنّها "التي تُحْوِجُ لِغُموضِها إلى التّدبُّرِ والتّصفُّحِ، وهذانِ يُفيدانِ من المسموعِ وُجوهاً

مختلفةً كثيرةً نافعة، وبهذه البلاغةِ يُتَّسَعُ في فهمِ أسرارِ مَعاني الدّينِ والدُّنيا، وهي التي تأوَّلَها العلَماءُ بالاستنْباطِ من كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكلامِ رسوله ...، ومن أجْلِها يُسْتَعانُ بِقُوى البلاغاتِ المتقدِّمة بالصِّفاتِ الممثّلة، حتّى تكونَ مُعينَةً ورافِدَةً في إثارةِ المعنى المدفون، وإنارَةِ المرادِ المخزون"[٧٩].

ولعلَّ الغزاليَّ أكْثَرُ المتقدِّمينَ اهتِماماً بالتّأويلِ، وهوَ يعتَمِدُه سبيلاً لِعُبورِ النّصِّ إلى خفاياهُ وكَوامنه، ناظراً في النّصِّ الظّاهر بوصفه عالَمَ الشّهادَةِ والْمُلْكِ الموْصِلِ إلى عالَمِ الغَيْبِ والْمَلَكوت، والقِشْرَ الذي يَحْجُبُ اللُبَّ، والصَّدَفَ الذي يسْتَكنُّ فيه الدُّرُّ. فَكُلُّ كلِمَةٍ في الوجود "تَحْتَها رُموزٌ وإشاراتٌ إلى مَعنىً خَفيٍّ"، وما منْ شيءٍ "في عالَمِ المُلْكِ والشّهادَةِ إلاّ وهُوَ مِثالٌ لأمْرٍ روحانيٍّ من عالَمِ الملكوتِ كأنّه هُوَ في روحِه ومَعْناه، وليسَ هُوَ في صورَتِه وقالَبِه"[٨٠]. ولَمّا كانَ الوصولُ إلى اللُبِّ يستَحيلُ إلاّ من طريقِ القِشْرِ، فإنّ الوصولَ إلى المعنى لا يكونُ إلاّ بعُبورِ اللفظِ[٨١]، وهكذا فإنّ "التّأويلَ يَجري مَجرى التّعبيرِ"، وإنَّ "كُلَّ ما يَحْتَمِلُه فَهْمُكَ فإنَّ القرآنَ يُلقيهِ إليكَ على الوجْهِ الذي لو كُنْتَ في النّومِ مُطالِعاً بِروحِكَ اللوْحَ المحفوظَ، لَتَمثَّلَ ذلكَ لكَ بِمثالٍ مُناسبٍ يحتاجُ إلى التّعبيرِ"[٨٢].

ولابنِ عربيّ كلامٌ ظاهِرُ التّناقُضِ في التّأويلِ، إذ يُؤَكِّدُ في موطِنٍ أنّه: "ما في الكوْنِ كَلامٌ لا يُتَأوَّلُ ....، فَمِنَ التّأويلِ ما يَكونُ خطأً عَنْ مُرادِ المتكلِّم، وإنْ كانَ التّأويلُ إصابَةً من كلِّ وَجْه، سَواءٌ أخْطَأَ مُرادَ المتكلِّم أو أصابَ، فَما مِنْ أمرٍ إلاّ ويَقْبَلُ التّعبيرَ عنهُ، ولا يَلْزَمُ في ذلكَ فَهْمُ السّامِعِ الذي لا يَفْهَمُ ذلك الاصطِلاحَ، ولا تلكَ العِبارة"[٨٣]، ثُمَّ يَنفي قوْلَهُ المتقدِّمَ في موطِنٍ آخرَ بقوله: "وكلُّ ما لا يقْبَلُ التّأويلَ عندي، أو لا يَحْتاجُ إليه، فَما أوْرَدْتُه أصلاً "، مُشيراً إلى ما أكّدهُ التُّسْتَريُّ قبْلُ من لا نهائيَّةِ فَهْمِ كلامِ اللهِ،

حيثُ لَمْ يَزعُمْ بأنّه بلغَ الحدَّ في ما فَهِمَ منه، لأنّ " وُجوهَ الفَهمِ لا تَنْحَصِرُ في ما" فَهِمَ[٨٤].

لكنَّ لَهُ غَيْرَ هذينِ النّصَّيْنِ ما يَصِفُ به إنتاجَ مَعنى النّصِّ من طريقِ التّأويلِ وصْفاً دقيقاً، إذ يُبيِّنُ البَدءَ بصياغةِ المبدعِ عبارَتَه عن مَعناهُ، ثمَّ كيفَ تَصِلُ إلى المتلقّي، وما يَدورُ في ذِهنِه وخيالِه من فِعْلٍ يُمكِّنُه من عُبورِ النّصِّ او لا يُمكِّنُه . يقولُ بما يؤكِّدُ الفَهْمَ الذي قدَّمْناهُ في مُفْتَتَحِ هذه الجزئيَّةِ من حالاتِ التّلقّي[٨٥]: "اعْلَم انَّ كُلَّ متلفِّظٍ من النّاسِ بحَديثِه، فإنّه لا يتلَفَّظُه حتّى يتخيَّلَه في نفسِه، ويُقيمَهُ صورةً يُعبِّرُ عَنْها،...، وإذا كانَ هذا، وكانَ ما يُتَخَيَّلُ يُعْبَرُ كالرُّؤْيا، كذلكَ يُعْبَرُ كلُّ كلامٍ ويُتَأوَّلُ، ...، والتّأويلُ عبارَةٌ عَمّا يؤولُ إليهِ ذلكَ الحديثُ الذي حدَثَ عندَه في خَيالِه المتلقّي، وما سُمِّيَ الإخْبارُ عن الأمورِ عبارَةً إلاّ لِكَوْنِ الْمُخْبِرِ يَعْبُرُ بما يتكلَّمُ به، اي يَجوزُ بما يتكلَّمُ به من حَضْرَةِ نفسِه إلى نَفْسِ السّامعِ، فهوَ ينقُلُه من خَيالٍ إلى خَيالٍ، لأنّ السّامعَ يتخيَّلُه على قَدْرِ فَهْمِه، فقدْ يُطابِقُ الخيالُ الخيالَ، خيالَ السّامعِ مع خَيالِ المتكلِّم، وقد لا يُطابِقُ، فإذا طابَقَ سُمِّيَ فَهْماً عنه، وإنْ لَمْ يُطابِقْ فليْسَ بِفَهْمٍ. ثُمَّ الْمُحدِّثُ عنهُ قد يُحدِّثُ بِلَفْظٍ قد يُطابِقُه كَما هُوَ عليهِ في نفسِه، فحينئذٍ يُسَمّى عِبارَةً، وإنْ لَمْ يُطابِقْهُ كانَ لَفْظاً لا عِبارَةً، لأنّه ما عَبَرَ به عنْ مَحلِّه إلى مَحلِّ السّامعِ".

إنّ ما تقدَّمَ يكشِفُ النِّقابَ عن تَمايُزِ التّأويلِ عن التّفسيرِ، وإنْ كانا طريقَيْنِ مُتساوِقَيْن لإنتاجِ معنى النّصِّ، فالواضحُ انّ العلماءَ قَصَروا التّفسيرَ على الجوانبِ الخارجيَّةِ للنّصِّ دونَ النّصِّ ذاته، فَهُوَ "عِلْمُ نُزولِ الآيَةِ وسورَتِها وأقاصيصِها، والإشاراتِ النّازلةِ فيها، ثمَّ ترتيبِ مكّيِّها ومدَنيِّها، ومُحْكَمِها ومُتشابِهِها، وناسِخِها ومنسوخِها،

وخاصّها وعامّها، ومُطْلَقها ومُقَيَّدها، ومُجْمَلها ومُفَسَّرها، وزادَ فيها قومٌ عِلْمَ حَلالِها وحَرامِها، ووَعْدِها ووَعيدِها، وأمْرِها ونَهْيِها، وعِبَرِها وأمْثالِها. وهذا الذي مُنِعَ فيه القَوْلُ بالرَّأي". امّا التّأويلُ فَهُوَ صَرفُ الآيَةِ إلى ما تَحتَمِلُه من المعاني، والمؤوِّلُ لا يستَغني أبداً عن مُقتَضيات التّفسيرِ[٨٦].

وإلى مثْلِ هذا الفرقِ يذْهَبُ ابنُ عربيٍّ حينَ يَجْعَلُ التفسيرَ خاصّاً بظَهْرِ الآيَةِ، ويَخصُّ التأويلَ ببَطْنِها[٨٧]، وعليه فالمفسِّرُ ناقلٌ والمؤوِّلُ مستَنْبطٌ[٨٨]، ويُضيفُ الرّاغبُ الأصْفهانيُّ فُروقاً اخرى تَتساوَقُ وما تقدَّمَ؛ إذ حَدَّ التَّفسيرَ بأنّه بَيانُ غريبِ الألفاظِ، والتّأويلَ بِبَيانِ الجُمَلِ ومَعانيها، كَما غلَّبَ استِعمالَ التّأويلِ في الكتبِ الدّينيّة، على حينَ أنّ التفسيرَ يكونُ فيها وفي غيرِها[٨٩].

وبهذا المفهومِ فإنّ التّفسيرَ هُوَ مَدْخَلٌ للتّأويلِ، فهُوَ يعتَمدُ الدّلالةَ اللفظيَّةَ الوضعيَّةَ التي يُتَوَصَّلُ إليها بوساطَةِ الوضعِ فقط، امّا التّأويلُ فيستَدلُّ بالدّلالة العقليَّة، ولا يَكتفي بمعرفَةِ اصلِ الوضعِ ليَصِلَ إلى فَهمِ المرادِ، بل لا بُدَّ من العقلِ ليَدُلَّ المعنى على مَعنىً آخرَ ملازمٍ له، كما هُو الحالُ في الدّلالة اللزوميَّة. والتّفسيرُ إذن يدخُلُ في مَفهومِ دلالةِ المطابقةِ، امّا التّأويلُ فتنْضَوي تحتَه دلالةُ الالتزام والتّضَمُّن، وبيْنَما يتعلَّقُ الأوّلُ بالدّلالاتِ الحقيقيَّةِ للألفاظِ، يُراوِغُ الآخَرُ في فَضاءِ المجازِ، وهوَ ما نبَّهَ عليهِ الغزاليُّ بجَعْلِه المجازَ داخِلاً في التّأويلِ بما يُشبِهُه[٩٠]، واكّده الجرجانيُّ حينَ حصرَ الفرقَ بينَ التّفسيرِ والتّأويلِ في العلاقَةِ بينَ الكلامِ والمعنى، فإنْ كانت العلاقَةُ حسِّيَّةً كانَ فَهمُ المعنى والتّعبيرُ عنه تَفسيراً، امّا إنْ كانت عقليّةً فإنّ فَهْمَ المعنى والتّعبيرَ عنهُ هُوَ التّأويلُ[٩١].

ولعلَّ الفَهْمَ المتقدِّمَ - وإنْ وجدَ من يُعارِضُهُ[٩٢]- يَجعلُنا نتمسَّكُ بِفَهْمٍ خاصٍّ لِلْمَعْنَى

في التّراثِ العربيّ، فَهْم قائمٍ على ثَباتِ المعنى وتغيُّرِ الدّلالة، وارتباطِ المعنى بقَصْدِ الْمُبْدِعِ وتعلُّقِ الدّلالةِ بالمتلقّي، وأنَّ المعنى متعلّقٌ بالدّلالة الوضعيّةِ والحقيقَة، على حينِ يكونُ الْمَدْلُولُ كامنًا في الدَّلالَةِ العقليَّةِ ومَعنى المعنى والْمَجاز. **وعليه يُمْكِنُ القولُ بأنّ التّفسيرَ ثابتٌ لا يتغيَّرُ بما هُوَ نقليٌّ مقصورٌ على الرّوايَةِ وشرحِ المفرَداتِ بألفاظٍ تَحملُ ذواتِ مَعانيها، وأنّ التّأويلَ مُتغيِّرٌ بِما هُوَ عقليٌّ قائمٌ على الدّرايَةِ ومُحاوَرَةِ النّصِّ بما لا يُهْمِلُ مُتطلَّباتِ التّفسيرِ؛ بل يَلِجُ إليه منها.**

ولَعلَّ هذا الفَهْمَ وَحْدَهُ هُو الذي يُمكِّنُنا منْ فَهمِ عِلَّةِ قابِليَّةِ بعضِ الأحكامِ الشّرعيَّةِ للتغيُّرِ بتغيُّرِ الأزْمانِ والأعْرافِ، ذلكَ بأنَّ الشّريعةَ الإسلاميَّةَ "تنقَسِمُ قِسْمَيْنِ: مَقاصِدَ ووسائلَ، فالْمَقاصِدُ هيَ الْحِكَمُ والأهدافُ والغاياتُ المقصودَةُ لِذاتِها، وهيَ مُرادُ اللهِ تعالى من التّكليفِ، امّا الوسائلُ - الأحكامُ - فهيَ ليسَتْ مقصودَةً لِذاتِها، بل لِتَحقيقِ المقاصِدِ"[٩٣]. وبهذا فإنّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ الْمَبْنِيَّ على مَصْلَحَةٍ تَحْفَظُ مَقْصُودَ الشّارِعِ يَجِبُ انْ يتغيَّرَ إذا تغيَّرت المصلَحة حِفاظاً على مَقْصُودِ الشّارعِ، فالْمَقْصِدُ اوّلاً وهُوَ الأصْلُ، والْحُكْمُ ثانياً لأنّه وَسيلَةٌ، وعليهِ ينبَغي انْ يُكَيَّفَ الْحُكْمُ مع مَقْصُودِه سوى في الأحكامِ التّوقيفيّة، لأنّها قائمَةٌ على مصالِحَ ثابِتَةٍ لا تتغيَّرُ بتغيُّرِ الظّروف والأحوالِ والأزمِنَة، كاحكامِ العِباداتِ مثلاً[٩٤].

٣ ـ تَأَوُّلُ النَّصِّ:

يَنْبَغي التّدقيقُ في الْمَيْزِ بينَ التّأويلِ واصطِلاحٍ آخرَ يُشبِهُهُ حتّى يشتَبِهَ به احياناً، وهو التّأوُّلُ الذي يَنْطَلِقُ فيهِ الْمُتَأوِّلُ من فِكْرَةٍ مّا انقَدَحَ ذِهْنُه عنها، ثُمَّ يُحاوِلُ النّصَّ بِلَيِّ عُنُقِهِ ليقْسرَه على قَوْلِ ما يُوافِقُ فِكرَتَه، وهو ما نبَّهَ عليهِ بعضُ العلماءِ، وفيهم

السّيوطيُّ بقوله: "قومٌ اعْتَقدوا مَعانيَ ثُمَّ ارادوا حَمْلَ الفاظِ القرآنِ عليْها"، وهو يقسمُهم قسْمَين: اوّلِينَ وآخرِينَ، والأوّلُونَ صِنْفانِ في تعريفه، فَهُمْ "تارةً يَسْلُبُونَ لَفْظَ القُرآنِ ما دَلَّ عَلَيْهِ وأُرِيدَ بِه، وتارةً يَحْملُونَه عَلى ما لَمْ يَدُلَّ عَلَيه ولَمْ يُرَدْ به، وفي كِلا الأمْرَيْنِ قَدْ يَكُونُ ما قَصَدُوا نَفْيَهُ اوْ إثْباتَهُ مِنَ الْمَعْنَى باطِلاً، فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ والْمَدْلُولِ. فالّذينَ اخْطَؤُوا فيهِما مِثْلُ طَوائِفَ مِنْ أهْلِ البِدَعِ اعْتَقَدُوا مَذاهِبَ باطِلَةً، وعَمَدُوا إلى القُرْآنِ فَتَأوَّلُوهُ عَلَى رأيِهم"(٩٥).

وثَمَّةَ تاكيدٌ على خُطورَةِ التّأوُّلِ بِما هُوَ توظيفٌ للنّصِّ لغاياتٍ ومصالحَ شَخصيَّةٍ او عامَّةٍ، لأنّه يَقْلِبُ الغايَةَ من النّصِّ الْمتَأوَّلِ، ويُحيلُ العلاقةَ بينَ الْمُتَلَقِّي والْمُبْدِعِ إلى علاقةٍ يغلبُ عليها الْمَكرُ والْخَديعَةُ، واهلُ اللّغاتِ باسْرِهم "إنّما يَحمِلونَ الفاظَهم الْمُطلَقَةَ على ما يسبِقُ منها إلى اذهانِهم من المعاني، ولا يتاوَّلونَ منها عندَ انطلاقِها شيئاً، ولا يحْمِلونَها على ما تقتَضيهِ اغراضُهم ومَصالِحُهم"(٩٦). ويشيرُ عبدِ القاهرِ إلى انّ مَصيرَ التّأوُّلِ إلى انكِشافٍ وإنْ كانَ خافِياً على النّاسِ، لأنّه يُخالفُ النّهجَ الصّحيحَ في التلقّي(٩٧). ويَجْعَلُ ابنُ جِنّي التّأوُّلَ في قبيلِ تَحريفِ الكلامِ بِما هُو "تَغييرُه عن مَعناهُ، كانّه مِيلَ به إلى غيرِه، وانْحُرِفَ به نَحوَه"(٩٨)، ويجْعَلُه السّكّاكيُّ في جُمْلَةِ مُوافَقَةِ معنى النّصِّ الظّاهرِ غيرِ المرادِ لِهَوى الضّالِّ الذي يتمسّكُ بذلكَ المعنى لِما وافَقَ هَواهُ(٩٩).

وإذا كانَ بعضُ الباحثِينَ المعاصرينَ قد نَعى على المتقدِّمينَ نظرهم إلى التّفسيرِ بالرّاي، او بالتّاويلِ على " انّه غيرُ موضوعيٍّ، لأنّ المفسِّرَ لا يَبدَأ من الحقائقِ التّاريخيّةِ والمعطَياتِ اللغويّةِ، بل يبدَأ بموقفه الرّاهنِ مُحاوِلاً انْ يَجِدَ في النّصِّ سَنَداً لِهذا الموقفِ"(١٠٠)، فإنّه إنّما يَدعو إلى تأوُّلِ النُّصوصِ لا إلى تاويلِها، ولو انّه كانَ

مَوْضُوعياً شيئًا مّا لَما نَعى عليهم رَفْضَهمُ التّاوُّلَ، لانَّ التّاوُّلَ لا علاقَةَ له بتلقّي النّصِّ او تفسيرِهِ او تاويلِه، بل لا علاقَةَ لهُ بالنَّصِّ إلاّ خادماً لِفكْرَةٍ خارجَةٍ عنهُ، إنّه اعتداءٌ على النّصِّ لا باعتبارِ الغَلَطِ في فَهْمِهِ او تاويلِه، فذلكَ مِمّا يُتيحُه النّصُّ ويُتيحُه التّراثُ، ولكنَّهُ اعتداءٌ مقصودٌ بِما هُوَ توظيفٌ لهُ لأغراضٍ شخصيَّة. ولعلَّ المتقدِّمينَ الذينَ يَنعى عليهم رَفضَ ما يُريدُ اكْثَرُ حَداثَةً وعِلْميَّةً في تعامُلِهم معَ النّصِّ انطلاقاً مِمّا فيه!

آياتٌ من سُورَةِ الرّحْمنِ نَمُوذَجاً

يَقْتَضي البَحْثُ تَوضيحَ أثَرِ المتلقّي في إنتاجِ مَعنى النّصِّ بِمثالٍ تَطبيقيٍّ، وذلكَ ابْتِغاءَ رَسْمِ الحدودِ الفاصِلَةِ بينَ التّفسيرِ والتّاويلِ والتّاوُّلِ في صورَةٍ عمليَّةٍ، ومن اجْلِ تبيُّنِ مَدى صِدْقِ التّحليلِ النّظريِّ الذي قدَّمه الباحثُ آنِفاً، واستِكشافِ حُدودِ الْتِزامِ اهْلِ التّاويلِ والتّفسيرِ والتّاوُّلِ بالأنْظارِ التي سِيقَتْ في هذا الجزءِ من البحثِ.

وقدْ نَهَدَ الباحثُ إلى هذه الْمُعالَجَةِ بان اختارَ نَصّاً لا هُوَ بالْمُحْكَمِ ولا هو بالْمُتشابِه، بَعيداً عن الجوانبِ العقَديَّةِ او المذهَبيَّةِ مِمّا قد يَسودُه الاختلافُ اصلاً، مفضِّلاً انْ يكونَ النّصُّ مِنْ خارِجِ ما صِيغَ قَصْداً لِيكونَ مُشْكِلَ التّفسيرِ والتّاويلِ كالألغازِ والْمُعَمّى وابياتِ المعاني، لأنَّ هذا كلَّهُ مِمّا قُصِدَ به إلى انْ يُخْتَلَفَ فيه، اَوْ كانَ بِحُكْمِ تَرْكيبِهِ حَمّالَ اَوْجُهٍ. وَتَراءى للباحثِ اختيارُ هذهِ الآياتِ الْخَمْسِ من سورةِ الرّحمنِ(١٠١): (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلتَقيانِ × بَيْنَهُما بَرزَخٌ لا يَبْغِيانِ × فَبِايِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ × يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجانُ × فَبِايِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ).

وخُيِّلَ للباحثِ ايضاً انَّ الاقتصارَ على عددٍ قليلٍ من التّفاسيرِ قد لا يُؤدّي الغرضَ، لأنَّ ما قدْ لا يَقَعُ عليهِ الاختيارُ يُمْكِنُ انْ يكونَ فيهِ مَذْهَبٌ مُخالِفٌ طريفٌ يَكشِفُ عن

جوانبَ لا تتأتّى بالنّظرِ في ما اخْتيرَ، فوَقفَ على مَجموعَةٍ تتكوّنُ من اثنَيْنِ وعِشرينَ تفسيراً، توزَّعتْ على مُختلفِ العصورِ حتّى العصرِ الحاضرِ، وتبايَنت مذاهِبُ المفسِّرينَ فيها ما بينَ أهْلِ سُنَّةٍ وشيعَةٍ إماميَّةٍ اثْنَي عشْريَّةٍ وإباضيَّةٍ وصوفيَّةٍ، ولَمْ يتأتَّ للباحثِ الوقوفُ على أيِّ تفسيرٍ للإسْماعيليَّةِ في هذه الآياتِ، فكلُّ ما لَهُم مِنْ تفسيراتٍ مُتناثرٌ لا يَضُمُّهُ مُصَنَّفٌ.

واتَّخذَ الباحثُ لنفسه مَنْهَجاً يُناسِبُ الغرضَ الذي يَسعى إليهِ في هذا السِّياقِ، فبدأ بذِكْرِ مَعاني الآياتِ الكريمَةِ المفسَّرَةِ تفسيراً، يَتلوها مَعانيها في التّأويلِ، ثُمَّ يبحَثُ في توظيفِ سِياقِ الآياتِ في السّورةِ، وتوظيفِ نُصوصٍ أُخرى مُشابِهة لَها، وتوظيفِ الوجوهِ اللغويّةِ والقراءاتِ، والرّواياتِ المأثورَةِ والأخبارِ، والعلومِ والمعارفِ والخبراتِ التي يملكُها المفسّرونَ أو المؤوِّلونَ ممّا يَسودُ عصْرَهم، ويُبيِّنُ ما أصابَ أهلَ التّفسيرِ أحياناً من خَلْطٍ بينَ التّفسيرِ ومُحاولةِ دَرْءِ شُبْهَةِ مُناقضةِ النّصِّ لما هُو شائعٌ في العُرْفِ والْمَعْرِفَةِ.

معاني الآياتِ في التّفسيرِ:

* تذهَبُ أكثَرُ التّفاسيرِ الْمُختارَةِ إلى أنّ مَرَجَ البحرَيْنِ تَعني: أرْسَلَهُما وسَوّاهُما وحَسَّنَهُما وخلاّهُما وترَكَهُما وخَلَطَهُما، وأنَّ المقصودَ بالبَحْرَيْنِ يَحْتَمِلُ بَحْرَ الهِنْدِ وفارسٍ وبَحْرَ الرّومِ، أو الْمِلْحَ الأجاجَ والعَذْبَ الفُراتَ اتّكاءً على الآيَةِ[١٠٢]: (وما يَسْتَوي الْبَحرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغٌ شَرابُه وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كلٍّ تأكلونَ لَحْماً طَرِيّاً وتَسْتَخْرِجونَ حِلْيَةً تَلْبَسونَها)، والآية[١٠٣]: (وهوَ الذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أجاجٌ وجَعَلَ بيْنَهُما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجوراً). وقد ذهَبَ بعضُهم إلى أنّ المقصودَ هُوَ بَحْرُ النّيلِ وبَحرُ الرّومِ، أو بَحْرُ الْقُلْزُمِ والْيَمنِ (الأحْمَر) وبَحرُ الشّامِ (الأبيض

المتوسِّط)، وبَحْرُ المشْرق وبَحْرُ المغربِ، على حينَ عَمَّمَ آخَرونَ فجعلوا المقصودَ أيَّ بحْرٍ مالحٍ وأيَّ بَحْرٍ عَذْبٍ، ومالَ غيْرُهم إلى أنَّه بَحْرُ السّماءِ وبَحرُ الأرضِ، أي الأمطار والمياه التي تَغمُرُ جزءاً من سَطْحِها، ومالَ المتأخِّرونَ إلى أنّ القصْدَ هُوَ نِسْبَةُ توزيعِ الماء المالح في المحيطاتِ والبحار، والعذْبِ في جَوْفِ الأرْضِ التي تَنْفَجِرُ عنه فتَجري العيونُ والأنْهارُ، واخْتُلِفَ في أيِّهما هُوَ المالحُ وأيِّهما هُوَ العَذْبُ، فبعضُهم رأى العذبَ الأنْهارَ السّارِحَةَ بينَ النّاسِ، والمالحَ المحيطاتِ، ورأى آخرونَ أنّ العذبَ بَحرُ السّماء، والمالحَ بِحارُ الأرضِ(١٠٤).

* وفي مَعنى يَلتقيانِ، قيلَ أرْسَلَهما مُتداخِلَيْنِ في وضْعِهما في الأرضِ قريبٍ بعضُهما من بَعض، وأرسَلَهُما مُتَجاوِرَيْنِ مُتَلاقِيَيْنِ لا فَصْلَ بيْنَ الماءيْنِ في مَرأى العَيْنِ، وذلكَ كَدِجْلَةَ تَدخُلُ البَحرَ فتشقُّه فتَجْري في خِلالِه فراسِخَ لا يتَغيَّرُ طَعْمُها، وقيلَ يَلتَقي بَحْرا السّماءِ والأرضِ كلَّ عامٍ مرَّةً حينَ يَنْزِلُ المطَرُ، وَيَسْتَوِيانِ، وجَرَيانُ الينابيعِ والأنْهارِ لِتَصُبَّ في ماء البحار والمحيطاتِ ولا يَزالانِ يلْتَقِيانِ، وقيلَ أفاضَ أوَّلَهُما العَذْبَ على الآخَرِ المَالِح، ويَتَجاوَرانِ ويَتَماسُّ سُطوحُهُما، ورُوِيَ أنّ بَحْرَ النّيلِ كالفِضَّةِ البيْضاءِ في البَحرِ المالحِ يَجْري فيهِ حتّى يَصِلَ البَرَّ، وقيلَ بَحرا فارسٍ والرّومِ يَلْتَقِيانِ في المحيطِ لأنهُما خَليجانِ يتشعَّبانِ منه، واختِلاطُهما في مَبْدَأ تشعُّبِهما منه(؟)، وقيلَ في مصَبِّهِما فيهِ، وأرْسَلَهُما إرسالاً غَيْرَ مُنْحازٍ بعضُهما من بعضٍ، أي مُتَداخِلَيْنِ في وضْعِهِما في الأرضِ قريبٍ بعضُهما من بعضٍ، وقيلَ مَنَعَهُما أنْ يلتَقِيا بالبَرْزَخِ، ولا يَخْتَلِطانِ(١٠٥).

* أمّا مَعنى بيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ، فَقيلَ لا يَطغى المالحُ على الحلْوِ لِيُحوِّلَهُ إلى مالحٍ تبطُلُ الحياةُ به، ولا يَطْغى الحلْوُ على المالِحِ لِيُحوِّلَه إلى حُلْوٍ فتبطُلَ بذلكَ مصْلَحةُ مُلوحَتِه، بل يَبقى لكلٍّ منهُما حدودُه وخصوصيَّتُه في نِطاقِ الحاجزِ الخفيِّ الخاضع

لقُدرَةِ اللهِ، وقيلَ لا يختلِطانِ لأنّ بينَهما عَزْمَةٌ من اللهِ لا يَبغي أحدُهما على الآخَرِ، ولا يَطْغى عليه: لا العَذْبُ على المالحِ ولا المالحُ على العذبِ، وقيلَ لا يَطْغَيانِ على النّاسِ، ولا يَتجاوَزانِ حدَّيْهما المرْسومَيْنِ، ولا يَبغي أحدُهما مُمازَجَةَ الآخَرِ، وقيلَ بينَهُما حاجزٌ من الأرضِ فلا يَخْتَلِطانِ، وبينَهُما حاجزٌ من الْخَلْقِ فَلا يَبغيانِ عليْهِم فيُغْرِقانهم، ولا يَطْلُبانِ حالاً غيرَ الحالِ التي خُلقا عليها.

والبَرزَخُ أجْرامُ الأرضِ، وقُدرَةُ اللهِ، والْخَلْقُ بينَهُما، والمسلمونَ، والْجَزائرُ، وقيلَ إنّ ماءَ الأنْهارِ لا يختَلِطُ بالماءِ الملْحِ، بلْ هُو بذاتِه باقٍ فيهِ، وهذا يَحتاجُ إلى دليلٍ أو حديثٍ صَحيحٍ، وإلاّ فالعِيانُ لا يقتَضيهِ (!) وقيلَ هُوَ الحاجزُ من الأرضِ لئلاّ يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسدَ كلُّ واحدٍ منهُما الآخرَ ويُزيلَه عن صِفَتِه التي هي مَقصودَةٌ منه، وما بينَ السّماءِ والأرضِ لا يُسَمّى برْزَخاً وحجْراً محجوراً، ولا يَبغي أحدُهما على الآخَرِ بالْمُمازَجةِ وإبطالِ الخاصّيَّةِ مع أنّ من شأنهما الاختلاطَ على الفورِ، بل يَبقَيانِ على حالِهما زَماناً يَسيراً، وانْفصالُ كلٍّ واحدٍ منهُما عن الآخرِ دَليلُ القُدرَةِ، وقيلَ إنّه لَمّا لَمْ يُحَدَّد فكلُّه مُراد، أنّهما لا يَبغيانِ على شيءٍ ولا يبْغي أحدُهما على صاحبِه ولا يتجاوَزانِ حدَّ اللهِ لهُما[١٠٦].

⋆ وأمّا مَعنى فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبانِ الأولى والثّانية، فإنّ التّفاسيرَ لَمْ تَعْتَنِ بذِكْرِ المقصودِ بِها، فَهيَ واضِحَةُ المعنى، غيْرَ أنَّ بعْضَها قالَ بَعْدَها: ... ممّا يتَعلّقُ بهذه الظّاهِرَةِ العجيبَةِ[١٠٧]؟ ... أيْ نَعْماءِ ربِّكُما[١٠٨]؟ ... منْ عَدَمِ اختلاطِهِما وإغراقِ ما بيْنَهُما من الأرضِ ومن السَّفرِ في كلٍّ منهُما على حِدَةٍ، ومن إبطالِ المالحِ حَلاوَةَ العَذْبِ، ومن الاصطيادِ في كلٍّ منهُما لما فيهِ من سَمَكٍ وجَواهِرَ ... من التّزيُّنِ بهما وإزالَةِ الخَفَقانِ ونَتَنِ ريحِ الأنْفِ والفَمِ وضَعْفِ الكَبِدِ والكُلى والحَصى[١٠٩]؟ ... ولَيْسَ من البَحْرَينِ شيءٌ

يقبَلُ التّكذيبَ لما فيه من الفوائدِ والْعبَرِ[١١٠]؟

★ وأمّا في مَعنى يَخرُجُ منْهُما اللُؤلُؤُ والْمَرْجانُ: فقيلَ يَخْرُجُ ويُخْرَجُ، وقيلَ يَخْرُجانِ من البَحْرِ المالِحِ خاصَّةً، أو مِن مُلْتَقى العذبِ والمالِحِ، وقيلَ لا يَخرُجانِ منهُما جَميعاً وإنّما من بَعضِهما، وقيلَ يَخرُجانِ من المالِحِ في المواضِعِ التي تقَعُ فيها الأنْهارُ والْمِياهُ العذْبَةُ، أو تَنبُعُ فيها عُيونٌ عذبَةٌ، وهذا مشهورٌ عند الغوّاصينَ، فلذلكَ قالَ منْهُما، وقيلَ أنَّ تكَوُّنَ هذه الأشياء في البَحرِ بنُزولِ المطرِ، لأنّ الصَّدفَ تَفتَحُ أفْواهَها للمَطر، فيَكون الأصْدافُ كالأرحامِ للنُّطَف، وقيلَ إنهما يخرُجانِ من بَحر النّيلِ، إلاّ أنّ الأجْوَدَ والأكْثَرَ يَكونُ من المالِح، وقيلَ إنّما يَخرُجانِ من المالِحِ، وقيلَ يَخرُجانِ من مُلْتَقى البحرَيْنِ، ويَرُدُّه المشاهَدَةُ فإنّهما يَخْرُجانِ من المالِحِ مُطْلَقاً، وقيلَ لَمّا الْتَقَيا صارا كَواحدٍ[١١١].

وقيلَ: اللؤلؤُ الدُّرُّ والمرجانُ هوَ الخرزُ الأحْمَرُ أو الحجَرُ الأحمَرُ، واللؤلؤ كِبارُ الدّرِّ وعِظامُه والمرجانُ صِغارُه، وماءُ البَحر كالْجَسَدِ الْمُغذّي، ويدلُّ على أنّه من الْمَطرِ ما اشْتُهِرَ من أنّ السَّنة إذا أجْدَبتْ هَزُلتِ الحيتانُ وقلّتِ الأصْدافُ والجواهِرُ، واللؤلؤ يتكَوَّنُ في بَحر الهندِ وفارس، والمرجانُ ينبُتُ في البَحر كالشَّجرِ، وإذا (كَلّسَ المرجانُ عَقَدَ الزِّئبَقَ)، فَمنْهُ ابيَضُ واحْمَرُ واسْوَدُ، وهو يُقوّي البصَرَ كُحْلاً، ويُنَشِّفُ رُطوبَةَ العيْنِ، والمرجانُ ينبُتُ في بَحر الرّومِ والإفرنْجِ كالشَّجَر وهوَ الفَصلُ المشتَرَكُ بينَ المعْدَن والنّباتِ، واللؤلؤ هُو الذي عرفَه النّاسُ مِمّا يخرُجُ من أصدافِ البَحرِ من الْحَبِّ، وأمّا المرجانُ فجَمْعُ مرجانة أي اللؤلؤة الصّغيرة، وقيلَ إنّهما عَكسُ ما تقدّم، فالمرجانُ ما كبُرَ وعَظُمَ من الدُّرِّ، واللؤلؤ ما صَغُرَ[١١٢].

مَعاني الآيات في التّأويل (؟):

تَكادُ التّفاسيرُ المذكورَةُ تَقِفُ عنْدَ حُدودِ المعاني المتقدِّمة للآيات، لكنَّ أقلَّ القليلِ منها يَخْرُجُ عن تلكَ الحدود، ويُؤوِّلُ الآياتِ تأويلاتٍ تُخالفُ ظاهِرَها، ولعلَّ الثُّنائيَّةَ التي أُفْعِمت بها الآياتُ قد أتاحَتْ مثلَ ذلكَ الْخُروج، وقد انْحَصَرتِ التّأويلاتُ في هذه المعاني:

* قالَ أهْلُ الإشارَةِ في قولِ الله عزَّ وجلَّ (مرجَ البَحريْنِ يلْتَقيان): فاطِمَةُ وعَليٌّ (ع). (بَيْنَهُما بَرْزَخٌ): مُحَمَّدٌ (ص). (يَخْرُجُ منهُما اللؤلؤ والمَرجانُ): الحسَنُ والْحُسَيْنُ (ع)[١١٣].

* وقيلَ: هُما بَحْرا الْعَقْلِ والْهَوى. (بَيْنَهُما بَرْزَخٌ) لُطْفُ اللهِ سُبْحانَهُ. (يَخْرُجُ منْهُما اللؤلؤ والْمَرجانُ) أي التّوفيق والْعِصْمَة. وَقيلَ: بَحْرا الْحُجَّةِ والشُّبْهَة، بيْنَهُما بَرْزَخُ النَّظَرِ والاستِدْلال، يَخْرُجُ منهُما الحقُّ والصّوابُ[١١٤].

* وقالَ ابنُ عَربيّ في تأويلِها: "(مرَجَ البَحْرَيْنِ) بَحْرَ الْهَيُولى الْجِسْمانيَّةِ الذي هُوَ الْمِلْحُ الأُجاجُ، وبَحرَ الرّوحِ الْمُجَرَّدِ الذي هُوَ العذبُ الفُراتُ، (يَلْتَقيانِ) في الوُجودِ الإنسانيِّ، (بيْنَهما بَرْزَخٌ) هُوَ النّفسُ الحَيوانيَّةُ التي ليسَتْ في صَفاءِ الأرْواحِ المجرَّدَةِ ولَطافَتِها، ولا في كُدورَةِ الأجْسادِ الْهَيُولانيَّةِ وكَثافَتِها، (لا يَبْغيانِ) لا يَتَجاوزُ أحَدُهما حدَّه فيغلبَ على الآخرِ بخاصيَّتِه، فلا الرّوحُ يُجرِّدُ البدَنَ ويُمْزَجُ به ويَجْعَلُه من جنسه، ولا البَدَنُ يُجَمِّدُ الرّوحَ ويَجْعَلُه مادّيّاً، سُبْحانَ خالقِ الخلقِ القادرِ على ما يَشاء! (يَخرُجُ منْهُما) بِتَركيبِهما والتِقائِهما لُؤلُؤ العلومِ الكلّيَّةِ ومَرْجانُ العلومِ الجزئيَّة، أي لؤلؤ الحقائقِ والْمَعارفِ، ومرجانِ العلومِ النّافعةِ كالأخلاقِ والشّرائع"[١١٥].

وَيَنْبَغي لَنا أنْ نُلاحِظَ هُنا بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ: أنَّ ما أوْرَدَتْهُ بَعْضُ كُتُبِ التّفْسيرِ على أنَّهُ تأويلٌ للآياتِ الْمَذْكُورَةِ لا عَلاقَةَ لَهُ بالتّأويل، إنَّما هُوَ تأوُّلٌ مَحْضٌ، فَما تقدَّمَ أعْلاهُ

لا يَنْطَلِقُ مِنَ النَّصِّ نفسه، بَلْ هُوَ إقْحامُ للنَّصِّ ليطابِقَ فِكْرَةً مّا عِنْدَ الْمُتَأوِّلين مِنْ أهْلِ الإشارَةِ والباطِنِ.

توظيفُ سياقِ النَّصِّ في التَّفسير والتَّأويل:

إنّ وضْعَ النَّصِّ في سياقِهِ النّصِّيِّ يَقودُ لا مَحالَةَ إلى توجيهِهِ وُجْهَةً ما بِأثرِ السِّياق، إذ قَدْ ينْجلي عَنِ المرادِ منهُ إذا قُرِنَ بنصٍّ آخرَ مُحْكَمٍ يُشبِهُهُ، وقد يَزدادُ المرادُ منهُ خَفاءً إنْ كانَ النّصُّ الذي قُرِنَ إليهِ غامِضاً حمّالَ أوْجُه. ومن الجدير ذِكْرُه أنّ خَمْسَةَ تفسيراتٍ حَسْبُ نَظرتْ في الآياتِ بِما تتعلَّقُ بالآياتِ قَبْلَها وبَعْدَها، ثلاثةٌ منها قديمَة، واثنانِ حَديثانِ، وقد أعطَتْ لِتفسيرِ الآياتِ أبْعاداً لطيفَةً، وأكسَبَتِ المعانيَ المستنْبَطَةَ عُمْقاً، وإنْ كانت تسعى في غايَةِ الأمرِ إلى تعليلِ بِنْيَةِ السّورةِ كلِّها، وأسبابِ وُرودِ هذه الألفاظِ لا غَيْرِها في الآياتِ. وهذا بَيانٌ ببعضِ اللّطائفِ النّاتجَةِ عن السِّياق:

* اتَّكات مُجْمَلُ التّفاسيرِ على اقْترانِ الآياتِ المذكورَةِ بالآياتِ المشابِهَةِ من سُورتَيْ فاطرٍ والفرقان، وكانَت نتيجَةُ ذلكَ المحتومَةُ هي التّوجُّهَ بِمعنى البَحرَيْنِ إلى الْعَذْبِ الفُراتِ والْمَالِحِ الأُجاج، ولَمّا كانَ بَحرا فارسٍ والرّومِ مالِحَيْنِ أصلاً، فقد اقْتَضى ذلكَ الاستِدْراكَ بإضافَةِ بَحْرٍ عذْبٍ، فكانَ إمّا بَحْرَ النّيلِ، وإمّا الْمَخزونَ الْجَوفيَّ في باطنِ الأرضِ، أو الينابيعَ والأنْهارَ والعيونَ، وإمّا بَحْرَ السّماءِ الذي هُوَ الْمَطَرُ. وقد توجَّهَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنّ الفَهْمَ الأخيرَ لا يُوافِقُ النّظرةَ اللغويَّةَ والحجرَ المحجورَ في نصِّ آياتِ سورة الفرقان، فقالَ بأنّ البرْزَخَ لا يُمكنُ أنْ يكونَ بينَ السّماء والأرضِ، وعليهِ نفى هؤلاء بَحر السّماء وبَحر الأرض!

* يُمهِّدُ الفَخْرُ الرّازي للآيَةِ بِما قَبْلَها، ويَصِلُها وصْلاً لطيفاً، مُعلِّلاً لِترتيبِ الكلمات

فيها بِما يقتَضيه سِياقُها وانسجامُها، فيقول[١١٦] "في تعلُّقِ الآيَةِ بِما قَبْلَها: لَمّا ذكَرَ تعالى المشرِقَ والمغربَ، وهُما حَرَكتانِ في الفَلَكِ، ناسَبَ ذلكَ ذِكْرُ البَحريْنِ؛ لأنّ الشّمسَ والقَمَرَ يَجْرِيانِ في الفلَكِ كَما يَجري الإنسانُ في البَحرِ، قالَ تعالى[١١٧]: (وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ)، فذَكرَ البَحريْنِ عُقَيْبَ المشرِقَيْنِ والمغربَيْنِ، ولأنّ المشرِقَيْنِ والمغربَيْنِ فيهما إشارَةٌ إلى البَحرِ لانْحِصارِ البَرِّ والبَحْرِ بينَ المشرِقِ والمغرب، لكنَّ البَرَّ كانَ مذكوراً بقولِه تعالى[١١٨]: (والأرْضَ وضَعَها)، فذَكَر هَهُنا ما لَمْ يَكُن مذكوراً".

ومن اللطائف التي توصَّلَ إليها الرّازي بسِياقِ الآياتِ في سورة الرّحمن تعليلُه ذِكْرَ اللؤلؤ والمرجانِ، إذ قال: "أيُّ نِعْمَةٍ عظيمَةٍ في اللؤلؤ والمرجانِ حتّى يذكُرَهُما اللهُ مع نعمَةِ تعلُّمِ القرآن وخَلْقِ الإنسانِ؟ وفي الْجَوابِ قَوْلانِ: الأوّلُ أنّ نقولَ: النِّعَمُ منها خَلْقُ الضّروريّاتِ كالأرضِ التي هي مَكانُنا، ولولا الأرضُ لَما أمْكَنَ وجودُ التّمكينِ، وكذلكَ الرِّزقُ الذي به البقاءُ، ومنها خَلْقُ الْمُحتاجِ إليهِ، وإنْ لم يَكنْ ضروريّاً، كأنواعِ الحبوبِ وإجراء الشّمس والقَمر، ومنها النّافِعُ وإنْ لَمْ يَكنْ مُحتاجاً إليهِ، كأنْواعِ الفواكِهِ، وخَلْقُ البِحارِ من ذلك، كما قالَ تَعالى[١١٩]: (والفُلْكَ التي تَجري في البَحر بِما يَنْفَعُ النّاسَ)، ومنها الزّينَةُ وإنْ لَمْ يَكنْ نافِعاً كاللؤلؤ والمرجان، كما قالَ تعالى[١٢٠]: (وتَستَخرِجونَ حليَةً تلبَسونَها)، فاللهُ تعالى ذكَرَ أنواعَ النِّعَمِ الأرْبَعةِ التي تتعلَّقُ بالقوى الجسمانيَّة، وصدَّرَها بالقُوَّةِ العظيمةِ التي هيَ الرّوحُ وهي العِلْمُ بقوْلِه[١٢١]: (علَّم القرآنَ). والثّاني أنْ نَقولَ: هذه بَيانُ عَجائبِ اللهِ تعالى لا بَيانِ النِّعَمِ، والنِّعَمُ قد تقدَّمَ ذِكْرُها هُنا، وذلكَ لأنّ خَلْقَ الإنسانِ من صَلْصالٍ، وخَلْقَ الجانِّ من نارٍ، من بابِ العجائبِ لا من بابِ النِّعَمِ، ولو خَلَقَ اللهُ الإنسانَ من أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ لَكانَ إنْعاماً، إذا عرفْتَ هذا فنقولُ: الأرْكانُ أربعَةٌ: التُّرابُ والماءُ والهَواءُ والنّارُ، فاللهُ تعالى بيَّنَ بقوْلِه[١٢٢]: (خلَقَ الإنسانَ من صَلْصالٍ)

أنّ الإنسانَ خَلْقَه من تُرابٍ وَطين، وبيَّنَ بقوله[١٢٣]: (خَلَقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ) أنّ النّارَ أصلٌ لِمَخْلوقٍ عَجيب، وبيَّنَ بقولِه (يَخرُجُ منهما اللؤلؤ والمرجان) أنّ الماءَ أصلٌ لمخلوقٍ عجيبٍ، بَقِيَ الهَواءُ، لكنَّهُ غيرُ محسوسٍ، فلَمْ يَذكُر أنّه أصْلُ مَخلوقٍ، بل بيَّنَ كَوْنَهُ مَنْشأً للجَواري في البحرِ كالأعْلام"[١٢٤].

* واهتمَّ برهان الدّين البقاعيُّ في تفسيرِه بأنْ يُمَهِّدَ في التّفسيرِ للآيَةِ أو الكلمَةِ التّاليةِ، فيؤسِّسَ تفسيرَها على ما تقدَّمها في نظمِ الآيات، ومن ذلكَ قولُه: "ولَمّا كانت باحَةُ البَحرِ لِجَري المراكِبِ كَساحَةِ السّماء لِجَري الكواكِب، مع ما اقتَضى ذِكره من تضَمُّنِ المشارِقِ والمغارِبِ للشّتاءِ الحاصلِ فيه من الأمطارِ ما لَو جَرى على القِياسِ لأفاضَ الْبحارَ، فاغْرَقَتِ البَراري والقِفار، وعَلَت على الأمصارِ وجَميعِ الأقطارِ، فقالَ: (مَرَجَ)، اي أرْسَلَ الرّحمنُ (البَحرَيْنِ) اي المِلْحَ والعذْبَ، فَجَعَلَهُما مضطَرِبَيْنِ، من طبْعِهما الاضطِرابُ، حالَ كونِهما (يلْتَقيانِ)، اي يَتَماسّانِ على ظَهرِ الأرضِ بلا فصلٍ بينَهما في رؤيَةِ العينِ، وفي باطِنِها، فَجعلَ الْحُلْوَ آيَةً دالَّةً على مياهِ الجنَّة، والْمِلْحَ آيَةً دالَّةً على بعضِ شَرابِ أهلِ النّار لا يَروي شارِبَهُ ولا يُغنيه، بلْ يَحرِقُ بطْنَهُ ويُعْيِيه"[١٢٥].

وهو يُحاوِلُ دائما أنْ يَصِلَ إلى المقصَدِ والمرادِ من الآيةِ، فقالَ في لا يبغيانِ: "فَمَتى حَفَرْتَ على جَنبِ المالِحِ وجَدْتَ الماءَ الْعَذْبَ، وإنْ قرَّبْتَ الحفْرَةَ منه، بل كلَّما قرَّبْتَ كانَ أحلى، فخَلَطَهُما اللهُ سُبْحانَه في رأي العيْنِ وحَجَزَ بيْنَهُما في رأيِ عَيْنِ القدْرَة، هذا وَهُما جَمادانِ لا نُطقَ لَهُما ولا إدراكَ، فكَيْفَ يَبْغي بعضُكم على بعضٍ أيُّها الْمُدرِكونَ العُقَلاءُ؟"[١٢٦].

* وَمِمّا يستفيدُه القُمّيُّ النّيسابوريُّ من سِياقِ النّصِّ أنّه يُنهي دَوّامَةَ البحثِ في كيْفَ يَخْرُجُ منهُما، والأصلُ أنّه لا يَخرُجُ إلاّ من البحرِ المالِحِ، ويُؤيِّدُ فهْمَه أنّه يخرُجُ

منهما كليهما بالآية الكريمة في سورةِ فاطر: (ومنْ كلٍّ تأكُلون لَحْماً طرِياً وتَسْتَخْرِجونَ حليةً تلْبَسونَها)، إذ قالَ بعْدَها: "فَلا حاجَةَ إلى هذه التّكلُّفاتِ"٧٢١.

توظيفُ الخِبْرَةِ والعُلومِ في التَّفْسيرِ والتَّأوِيل:

تُفيدُ التّفسيراتُ على اختلافِها في تَناوُلِ الآياتِ المختارَةِ من الوجوهِ اللغويِّةِ للألفاظِ، لا سيَّما في تفسيرِ الْمَرْجِ والْبَرْزَخِ واللؤلؤ والمرجان. أمّا التّأويلاتُ، فإنّها تَبني عليْها دونَ أنْ تُهْمِلَها، والنّاظِرُ في تأويلِ ابنِ عربيٍّ يَجِدُ الْعَذْبَ والمالِحَ الأجاجَ فيهِ، وإنْ وجَّهَهُما نَحْوَ الجسمانيَّةِ والرّوحيَّة، ومثله الميبديُّ أيضاً، وقد حاوَلَ البقاعيُّ أنْ يَعْبُرَ الآياتِ وُصولاً إلى مُرادِ اللهِ سُبحانَهُ منها، فاستَنْتَجَ حِكَماً ومَواعِظَ، ونَجِدُ ذلكَ عند ابنِ عطيَّةَ أيضاً حينَ قالَ بعدَ تفسيرِ الْمَرْجِ بِلا بَغْيٍ[١٢٨]: "والْعِبْرَةُ في هذا التّأويلِ مُنيرَة".

واعتَمَدتْ أغلبُ التّفسيراتِ على الرّواياتِ والأخبار المأثورةِ، حتّى إنّ أكثرَها لَمْ يَخْرُجْ عن تلكَ الرّواياتِ في قليلٍ أو كثير، إلاّ ما كانَ من بعضِ المفسِّرينَ الذين وظَّفوا بعضَ المعارفِ العلميّةِ المتواضعةِ في تفسيرِهم، وخاصّةً التّفسيرات الحديثة نوعاً ما، كتفسيرِ سيِّد قطب، والطّباطبائيّ وفضل الله، على أنّ قُدَماءَ المفسِّرينَ وظّفوا ما تَناهى إليهم أيضاً، وإنْ كانَ بعضُهُ لا عِلْمَ فيه، إنّما هُوَ مُجَرَّدُ أوْهامٍ وخُرافاتٍ، مثل تكَوُّنِ اللؤلؤ نتيجةَ وصولِ ماءِ المطرِ إلى أفواهِ الأصدافِ، ومثلِ انشعابِ الأنهارِ من البحار!

لكنّ التفسيراتِ الحديثةَ لَمْ تَزِدْ على توظيفِ المعارِفِ الحديثةِ في التّفسيرِ للوصولِ إلى المعنى العامِّ للآيات، بل اقتَصرتْ على توضيحِ مَعاني بعضِ المفردات، فسيّد قطب مثلاً يُجري حديثاً تفصيلياً عن اللؤلؤ والمرجان، وكيفَ يتشكّلان ويَنْمُوان، ويَصِفُ

"واخْتَلَفَ النّاسُ في قوله (مِنْهُما)، فقالَ أبو الحسَنِ الأخفشُ في كتابِهِ الحجّة: وزَعَمَ قومٌ أنّه قدْ يَخْرُجُ اللؤلؤ والمرجانُ من المِلْحِ ومن العَذْبِ ... وردَّ النّاسُ على هذا القَوْلِ، لأنّ الحِسَّ يُخالِفُه، ولا يَخرُجُ ذلكَ إلاّ من المِلحِ ... وقالَ جُمهورٌ من الْمُتأوِّلين: إنّما يَخْرُجُ ذلكَ من الأُجاجِ في الْمَواضعِ التي تقعُ فيها الأنهارُ والْمِياهُ العَذْبَة، فلذلكَ قالَ (مِنْهُما)، وهذا مشهورٌ عند الغوّاصين. وقالَ ابنُ عبّاس وعِكرِمة: إنّما تتكوَّنُ هذه الأشياءُ في البَحرِ بِنُزولِ الْمَطَرِ، لأنّ الصَّدَفَ وغَيْرَها تَفْتَحُ أجوافَها للْمَطَر ... وقالَ أبو عبيدة ما مَعناهُ: إنّ خروجَ هذه الأشياء إنّما هيَ من المِلحِ، لكنّهُ قالَ (منهُما) تَجَوُّزاً ... قالَ الرّمّانيُّ: العَذْبُ فيهِما كاللقاحِ للمِلْحِ"[١٣٠].

صَحيحٌ أنّ بعضَ المفسِّرينَ بَحثوا وسألوا مَنْ يَعرِفونَ من صيّادي اللؤلؤ والبحّارينَ، لكنَّ المعضِلَةَ الكُبْرى كانت أنَّ ما توفَّرَ لَهُم من المعرفةِ لَمْ يَكنْ كافياً لِحَسْمِ القضيّة، ولَمّا رأى أكثرُهم أنّ ثَمّةَ ما يَظْهَرُ على وَجْهِ التّناقُضِ بينَ النّصِّ القرآنيِّ والسّائدِ المشهورِ الْمُشاهَدِ، فقد خشيَ هؤلاء أنْ يُثيرَ مثلُ هذا شيئاً من التّشكيكِ في صحّةِ النّصِّ القرآنيِّ، ولهذا سَعَوْا منذُ البدايات إلى تأوُّلِ هذه الآيةِ على وجوهٍ متّفقةٍ والواقعَ المشاهَدَ، أو على الأقلِّ تُخَفِّفُ من حدّةِ ما ظنّوهُ تَناقُضاً بينَ النّصِّ والمعرفةِ السّائدة.

ولَوْ أنّ هذا التّأوُّلَ لَمْ يَكُنْ، ولو أنّ مُحاوَلَةَ تلفيقِ التّفسيرِ بما يُخفي أو يَسْتُرُ ما يُظَنُّ تناقُضاً - وليسَ به - لا تَكونُ، لَوَجَدَ المفسّرونَ والفقهاءُ والعلماءُ أنْفُسَهُم أمامَ مُشكِلٍ يَحتاجُ بَحثاً وتنقيباً وتفسيراً مُقنعاً، ولكانَ هذا وحْدَه كفيلاً بتنميةِ روحِ البَحثِ، وفُضولِ الدّرسِ والتّفتيشِ، وهذه آفَةٌ أُخرى من آفاتِ التّأوُّلِ في تُراثِنا.

أماكنَ وجودهما، وينقُل عنه فضلُ الله هذه المعلومات، دونَ أنْ يفيدا منها في استنتاج معنىً ما للآيات بوصفِها وحدةً واحدةً، وعلى ذلكَ فالتّفسيراتُ الحديثةُ ليسَتْ حديثةً في منهجِها، وإنّما هيَ حديثةٌ في المعلوماتِ التي توظّفُها، وتظلُّ كبعْضِ تفاسيرِ القُدماء، تدورُ في إطارِ الرّواية والشّرح اللغويّ.

وقد وظّفَ بعضُ المفسِّرينَ وُجوهَ القراءاتِ القرآنيّةِ في تفسيرِهم، في مثلِ يَخْرُجُ، أو يُخْرَجُ، أوْ يُخرِجُ، أو نُخرِجُ، عند الزّمخشريِّ والطّبرسيِّ وآخرين. لكنَّ وجوهَ القراءاتِ لَمْ تُؤدِّ جَديداً في المعنى، ولا أُبِهَ مثلاً بإمكانيّةِ قراءة (بينَهُما بَرزَخٌ ... يُخرِجُ منهُما اللؤلؤَ والمَرْجانَ) وهي قراءةٌ يحتملُها النّصُّ، وكانت ستحلُّ مُشكلاً ظلّوا يدورونَ حولَهُ، رغمَ أنّهم ركّزوا على أنّ مَخرَجَ اللؤلؤ والمرجان إنّما يكونُ في مَواضعِ حلوةٍ من المالح!

ومن الطّريفِ هُنا أنّ الرّازي قد استخدَمَ معرفتَه كاملةً في تفسيرِ الآيات، ولَمْ يكن يَتناولُ الآيةَ بالتّفسيرِ إلاّ بعدَ أنْ يفتَرضَ مجموعةً من الأسئلةِ حَوْلَ مَلاحظَ فيها، ثمّ يبدأ بالإجابةِ التي هيَ التّفسيرُ أو أحدُ وجوهِه، ويبدو أنّه كانَ يفتَعلُ أسئلةً يظنُّ أنّ غيْرَه يقفُ عندَها حائراً، أو يُثيرُها في ذهنِ من يقرأ تفسيرَه لإقناعِه بما يُريدُ!

التّأوُّلُ دَرْءاً لما يُظنُّ تَناقُضاً بينَ النّصِّ والعلمِ السّائد:

يَبدو أنّ مسألةَ خروجِ اللؤلؤ والمَرجانِ من البحريْنِ كليْهما، أو من أحدِهما دونَ الآخَرِ، أو من موضعِ التقائهما، كانت شُغلَ المفسِّرينَ الشّاغلَ، ولهذا توقّفَ خمسةَ عشرَ تفسيراً وتأويلاً عندَها، ولَمْ يتَجاوزْ عنها إلاّ بعضُهم كابنِ عربيٍّ، وفضلِ الله، وتفسيرِ الحسنِ البصريِّ بما هوَ غيرُ مكتَملٍ.

ويكشفُ ابنُ عطيّةَ عن الجدَلِ الذي كانَ دائراً حولَ المسألةِ من قَديمٍ، يقولُ[139]:

خُلاصَةُ البَحْث

أظْهَرَ البحثُ أنّ تَوجُّسَ الخيفةِ من مُحاولةِ فَهمِ مَعاني النّصِّ القرآنيِّ لا مُبرِّرَ له، ذلكَ لأنّ فَهْمَ عُلمائنا المتقدّمين لقوله (ع): (من فسّر القرآنَ برأيه فقد كفَر)، يُوضِّحُ تَماماً أنّ المقصودَ به هُم أولئكَ الذين يتدخّلونَ في مثلِ أسبابِ النّزول، أو قصّةِ الآية ممّا رُوِيَ، وأولئكَ الذينَ يُحاولونَ تأوُّلَ الآيةِ لتُوافقَ أهواءَهُم الخاصّة. أمّا مُحاولةُ الوصولِ لمعنى النّصِّ القرآنيِّ بفَهْمِه فَلا حَرَجَ على مَنْ يُحاولها إذا مَلَكَ مُقوِّماتِ اللغةِ والعقل. ودلَّ اختلافُ متلقّي الآياتِ المدروسةِ من سورةِ الرّحمن على جَوازِ ذلكَ، فهم لَم يصلوا إلى مَعنى واحد، بل إلى مَعانٍ متعدِّدة.

وقد خرجَ الباحثُ بنتيجةٍ أُخرى مهمّةٍ، قِوامُها انعدامُ الفروقِ الجوهريّةِ بينَ المعاني التي انتَجها المتلقّونَ المُحْدَثونَ وتلكَ التي انتَجها المتلقّونَ القدَماء، فسيّد قطب ومحمّد حسين فضل الله مثلاً لَم يُضيفا شيئاً لمعاني الآيات عندَ القدَماء، إلاّ ما استفادَهُ الاثنان من العلومِ الحديثةِ في الحديث عن طبيعةِ اللؤلؤ والمرجان، وكيفيّةِ تكوّنِهما، بما يُظهِرُ أثرَ العلومِ والمعارفِ في التّأويلِ في كلِّ عصرٍ، وأنّ التّأويلَ لهذا السّبَبِ يتغيّرُ بينَ عصرٍ وآخرَ بهَدْيِ ممّا يَطرأ من معارفَ.

ومن النّتائجِ المهمّةِ أيضاً أنّ متلقّي الشّيعةِ الإماميّةِ المحدَثين، مثلَ فضلَ الله والطّباطبائيِّ، قد جانَبوا ما ذهبَ إليه قدماؤُهم، مثل الميبديِّ، في مَعاني الآيات. ولهذا فإنّ النّاظرَ في تفسيرِ العالمين آنفي الذّكرِ وتفسيرِ سيّد قطب مثلاً لا يَجِدُ فُروقاً كبيرة.

ولعلَّ الباحثَ قدْ خلَصَ -من مُجملِ ما تقدّمَ- إلى أنّ المسلمين القدَماءَ قدْ فرّقوا تفريقاً واضحاً بينَ فَهْمِ مَعنى النّصِّ والتّعبيرِ عنهُ بالكلامِ أو الكتابة. فالفَهْمُ شيءٌ

والتّعبيرُ عنهُ شيءٌ مختلفٌ جداً، وقدْ يكونُ الذي يفهَمهُ المتلقّي من النّصِّ مَعنىً قريباً من الذي قصدَه المبدِعُ، لكنَّ العبارةَ عن هذا الذي فهِمَهُ تبعُدُ بهِ -او تقرُبُ- بِمقدارِ قُدرته على اختيارِ الألفاظِ الدّالّة بدِقّةٍ عَمّا يُريدُ. كَما كانَ تفريقُهم بينَ التّفسيرِ والتّأويلِ والتّأوُّلِ في غايَةِ الدِّقّة، جاعِلينَ من الأوّلِ ثابتاً لا يتغيَّرُ، ومن الثّاني مَرِناً قابلاً للتّغيُّرِ والتّجدُّد، ومُخرِجينَ الأخيرَ من سِياقِ التّلقّي اصلاً.

توثيق الإشارات الواردة في المتن :

١ عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، تقديم وشرح ياسين الأيّوبي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠)، ص ص ١٤٦-١٤٧، وانظر ص ص ٣٥٨-٣٥٩، ص ٣٩١

٢ **نفسه**، ص ص ٣٨٨-٣٨٩

٣ **نفسه**، ص ٥٨٣

٤ عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمد الفاضلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٨)، ص ٢٦٨

٥ انظر الفارابيّ، أبو نصر محمد بن طرخان، **كتاب في المنطق** - العبارة، تحقيق محمد سليم سالم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، ص ٢٤

٦ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨١)، ٢ ص ص ٣٤-٣٦

٧ من الجدير ذكرُه هُنا أنّ عبد الله الغذّامي أضافَ إلى هذا النّصِّ ما ليسَ منه، فقد جعلَ النّصَّ على هذه الصّورة: "إنّ أبا نُواسٍ مُنْتَشِياً بهذا التّفسير، دَخَلَ على النّاقدِ فقبَّلَ يدَهُ ورأسَهُ وقالَ له: بأبي أنْتَ وأُمّي! فَهِمْتَ من شعري ما لَمْ أفْهَم"، وهو يُحيلُ على ابنِ رشيقٍ في الصّفحة نفسها، ونَصُّ ابن رشيقٍ هُو المثبَتُ أعلاهُ في المَتْنِ! ولعلَّه أرادَ إثباتَ نَفْيِ فكرةِ قصديَّةِ المبدعِ بتحريفِ الكلِمِ عن مواضعه! انظر **القصيدة والنّصّ المُضادّ**، (بيروت: المركز الثّقافي العربيّ، ١٩٩٤)، ص ١٣٢

٨ انظر الهامش رقم (٦)

٩ محمّد عابد الجابريّ، **بنيةُ العقل العربيّ**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨٦)، ص ص ١٣-١٤

١٠ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيُّن**، تحقيق عبد السّلام هارون، (بيروت: دار الجيل، (د.ت))، ٢ص٤

١١ القاضي أبو الحسن عبد الجبّار الأسدآبادي، **المغني في أبواب التّوحيد والعدل**، تحقيق أمين الخولي، بإشراف طه حسين وإبراهيم مدكور، (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٤)، ١٦ص ٣٦١

١٢ **أسرار البلاغة**، ص ص ٧١-٧٢

١٣ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (القاهرة: المطبعة الأزهرية، ١٩٢٥)، ٢ص ٣١

١٤ **المغني في أبواب التّوحيد والعدل**، ١٦ص ٣٦٠، وانظر ص ٣٧٦، ومثلُه المجازُ الذي يُصبحُ باقترانه بالقرينةِ نفسَ الحقيقة، ومثلُه أنّ "مُواطأة المخاطَبِ مع المخاطِبِ تَجعَلُ الكلامَ المحتمِلَ غيرَ مُحتَمِل" (نفسه، ١٦ص ٣٨١)

١٥ **نفسه**، ١٦ ص ٣٧٨، وانظر ص ٣٧٥

١٦ **نفسه**، ١٦ ص ص ٢١٢-٢١٣

١٧ **نفسه**، ١٦ ص ٣٠٨

١٨ **البيان والتبيُّن**، ٣ ص ص ٣٧٤-٣٧٥

١٩ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إلجام العوَامّ عن علمِ الكلام**، تصحيح المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥)، ص ٥٤

٢٠ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظّاهري، **مَراتبُ الإجماع**، (القاهرة: ١٣٥٧هـ)، ص ٨، وانظر قريباً منه **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق أحمد محمد شاكر، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠)، ٤ ص ١٤١، وقالَ أيضاً: "ينبغي لكلِّ طالبِ حقيقةٍ أنْ يُقرَّ بما أوْجَبه العقلُ، ويقرَّ بما شاهدَ وأحسَّ، وبما قامَ عليه البرهانُ .. وأنْ لا يسكُنَ إلى الاستقراء أصلاً، إلاّ أنْ يُحيطَ علماً بجميعِ الجزئيّات التي تَحتَ الكلِّ الذي يَحكُم فيه، فإنْ لَمْ يقدرْ فلا يَقطَعْ في الحكمِ على ما لَمْ يُشاهد، ولا يَحكُم إلاّ على ما أدرَكَه دونَ ما لَمْ يُدرِكْ" ((**التّقريب لحدِّ المنطق والمدخل إليه**، تحقيق إحسان عبّاس، (بيروت: دار ومكتبة الحياة، (د.ت)، ص ١٦٦))

٢١ عبد اللطيف شرارة، **ابن حزم - رائد الفكر العلميّ**، ((بيروت: المكتب التّجاري، (د.ت))، ص ٩٨

٢٢ **التقريب لحدّ المنطق**، ص ص ١٩٢-١٩٣، وفيه يقولُ: "لَيْسَ ...كوْنُ المرء لا تتشكَّلُ له الحقائقُ بقادحٍ في البُرهان ...، ولو جازَ لكلِّ من لا يتشكَّلُ في نفسه شيءٌ أنْ يُنكِرَه، لَجازَ للأخْشَمِ أنْ يُنكِرَ الرّوائح، والذي وُلِدَ أعمى أنْ يُنكِرَ الألوانَ، ولَنا أنْ نُنكرَ الفيلَ والزّرافة، وكلُّ هذا باطلٌ"

٢٣ أبو حيّان عليّ بن محمد التّوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، تصحيح أحمد أمين وأحمد الزّين، ((طهران: منشورات الشّريف الرّضيّ، (د.ت))، ٢ص ١٠٩

٢٤ أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدّين**، سلسلة كتب الشّعب، ((القاهرة، دار الشّعب، (د.ت))، ٢ص ص ٢٩٢-٢٩٨

٢٥ الإتقان، ١ص ٢٨، وانظر بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٩٥٧)، ١ص ٢٣، وانظر قولَ عليٍّ (كرّم): "سَلوني، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلاّ أخبَرْتُكم. وسَلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آيةٍ إلاّ وأنا أعْلَمُ أبليْلٍ نَزَلَتْ أمْ بنهار، أفي سَهْلٍ أمْ في جبَلٍ" ((محمد عبد العظيم الزّرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٩٥٢)، ١ ص ٤٨٣))

٢٦ لأنّ التّعبيرَ عن المعنى الذي يفهَمُه المتلقي من النّصّ قد يتّخذُ أشكالاً كثيرَةً، منها أنْ يُترْجِمَ عنه بعبارَته الخاصّة باللغة تفسيراً وتأويلاً وشرْحاً، وإمّا أنْ يتأثّرَ وينفعلَ فيَسْلُكَ سُلوكاً مّا، أو لا يتأثّرَ ولا ينفعلَ فلا تبدُر منه حركَةٌ أو فعلٌ، وقد يُعبِّرُ عنه بالرّسْمِ والتّشكيلِ والموسيقى، وقد يُعيدُ صَوْغَهُ في نصٍّ إبداعيٍّ خاصٍّ به، وقد يحتفظُ بما فَهِمَه لنفسه، كما قد يُعدِّلُ أو يؤكِّدُ بعضَ الأفكارِ والمفاهيمِ في ذهنه دونَ أنْ يُعبِّرَ عنها!

٢٧ **الإمتاع والمؤانسة**، ٢ص ١٣١

٢٨ هذا مضمونُ قول عبد القاهر: "إنّك لا تُفسِّرُ الشَّرْجَبَ حتّى يكون معناهُ مَجهولاً عندَ السّامع، ومُحالٌ أنْ يكونَ للمجهولِ دلالة .. وإنّ المعنى في تفسيرنا الشّرجبَ بالطّويلِ أنْ نُعلمَ السّامعَ أنّ معناهُ هُوَ مَعنى الطّويل بعيْنه، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ كانَ مُحالاً أنْ يُقالَ : إنّ مَعناهُ يدلُّ على مَعنى الطّويلِ، والذي يُعْقَلُ أنْ يُقالَ: إنّ معناهُ هُوَ مَعنى الطّويل" (**دلائل الإعجاز**، ص ص ٤١٠-٤١١)

٢٩ حرص العلماءُ قديماً على التّمييزِ بينَ النّصِّ القرآنيِّ والنّصوصِ البشريّة من وجوهٍ كثيرةٍ أهمُّها نَفيُ الشّبهِ بينها في الاصطلاحِ، وقد شَغلت القضيّةُ حيّزاً لا بأسَ به من مساحَةِ التّفكيرِ البيانيِّ والإعجازيِّ، انظر الإتقان، ١ص ٥٠، **البرهان**، ١ص ٢٠٨، عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون، **المقدّمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٢)، ص ٥٦٧، الشّريف الرّضيّ أبو الحسن محمد بن الحسين، **تلخيص البيان في مجازات القرآن**، تحقيق محمد حسن، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥)، ص ص ٢٩٥-٢٩٦، ٢٧٥-٢٧٦)، وقد صرّح ابن سنان الخفاجيّ بذلكَ حينَ قالَ: "أمّا الفواصلُ في القرآن فإنّهم سمّوها فواصلَ ولَمْ يُسمّوها أسجاعاً، وفرّقوا فقالوا : إنّ السّجعَ هو الذي قُصِدَ في نفسه، ثُمّ يُحْمَلُ المعنى عليه، والفواصلُ التي تَتْبَعُ المعاني ولا تَكونُ مقصودَةً في أنفُسها .. وأظُنُّ أنّ الذي دَعا أصحابَنا إلى تسميَةِ كلِّ ما في القرآنِ فواصلَ، ...، رَغْبَةٌ في تَنْزيهِ القرآنِ عن الوصفِ اللاحقِ بغيرِه من الكلامِ" ((أبو محمد عبد الله بن سنان، **سرّ الفصاحة**، صحّحه وعلّق عليه عبد المتعال الصّعيدي، (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح، ١٩٦٩)، ص ص ٢٠٢-٢٠٤))

٣٠ **البرهان**، ١ص ١٦

٣١ **نفسه**، ٢ص ١٤٧

٣٢ **نفسه**، ٢ص ١٤٧

٣٣ **دلائل الإعجاز**، ص ٣٩٧

٣٤ أبو محمد القاسم الأنصاري السّجلماسيّ، **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق علال الغازي، (المغرب: مكتبة المعارف، ١٩٨٠)، ص ٤١٤

٣٥ أبو حيّان محمّد بن يوسف الأندلسيّ، **البحر المحيط**، ((الرّياض: مكتبة النّصر الحديثة، (د.ت)) ١ص ١٣

٣٦ محمّد الطّاهر بن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، (تونس: دار سحنون للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٧)، م ١ج ١ ص ١٢، وانظر له **أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقريب**، (تونس: الشّركة التّونسيّة لفنون الرّسم، ٨٨٩١)، ص ١٨٤

٣٧ جابر عصفور، **قراءة التّراث النقديّ** (جدّة: نادي جدّة الثقافي، ١٩٩٠)، ص ١٥٣، وانظر مصطفى السّعدني، قراءة المعنى الشّعريّ، (الإسكندريّة: منشاة المعارف، ١٩٩٤)، ص ١٠٠

٣٨ لا بُدّ منَ التّنْبيه هُنا علَى انّ للنّصِّ القرآنيّ خُصوصيّةً تَميزُهُ منْ غيْرِه، وانّ هذه العبارَة - فيما يتّصلُ بالنّصِّ القرآنيّ - يُمْكنُ انْ يُمثّلَ لَها بما تداوَلَهُ بعْضُ الْمُسْلمينَ بعْدَ عصْرِ الصّحابَة في شأنِ قوْله تعالى: (ولا تُلْقوا بأيْديكُمْ إلَى التّهْلُكَة)، حينَ جعَلُوا الْمُسْتَفادَ منْ معْناها عَدَمَ خَوْضِ الْمُسْلمِ في ما قَدْ يُعرّضُهُ لبَطْش الْحُكّام الظّالمينَ مَثلاً، وضرورةَ التزامِ الصّمْت إذا كانَ الْكَلامُ يؤدّي إلَى الْمَضرّة. حتّى قالَ قائلٌ منْ بيْنِ الْمُتجادلينَ: إنّها نَزلَتْ بعْدَ أنْ رَكَنَ الْمُسْلمونَ إلَى الدّعَة، وتلَهّوْا عَنِ القتال والإعْداد، والتَفَتوا إلَى حَرْثِهِمْ وزَرْعِهِمْ !

٣٩ سَنَقفُ على هذه النّقطة بالتّفصيل في سياق التّطبيق على الآيات الكريمة!

٤٠ مصطفى السّعدني، **تَمْعين النّصّ -قراءة نقديّة لأعراف الفهم البشريّ للخطاب القرآنيّ**، (الإسكندريّة: منشاة المعارف، ١٩٩٤)، ص ١٧

٤١ **الإتقان**، ٢ص ١٧٥، وفيه انّ مَنْ ارادَ التفسيرَ "طلَبَهُ اوّلاً من القرآنِ، فما أُجْمِلَ منه في مَكانٍ فقد فُسِّرَ في موضعٍ آخرَ"

٤٢ ابن حزم الظّاهريّ، **الْمُحَلّى في الفقه**، ١ص ٣١، وانظر **ابن حزم - رائد الفكر العلميّ**، ص ٧٢

٤٣ **البيان والتبيُّن**، ١ص ص ٢٩٠-٢٩١، **الإتقان**، ٢ص ص ١٧٧-١٧٨، ابن تيمية، **معارج الوصول** (مصر: مطبعة المؤيّد، ١٣٣٨ هـ)، ص ٣٤، **مقدّمة ابن خلدون**، ص ص ٥٥٢-٥٥٣

٤٤ أبو الليث نصر بن محمد السّمَرقنْديّ، **تفسيرُ القرآن الكريم** (المسمّى بحر العلوم)، تحقيق ودراسة عبد الرّحيم الزّقّة، (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٨٥)، ١ص ص ٢٠٧-٢٠٩

٤٥ **سورة عبس**، آية ٣١

٤٦ أبو جعفر محمد بن جرير الطّبريّ، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩)، ١ ص ٧٨، مناهل العرفان، ٢ص ٥٦، **تفسير بَحر العلوم**، ١ص ص ٢٠٩-٢١٠

٤٧ **الإتقان**، ٢ ص ١٨٧

٤٨ **البيان والتبيُّن**، ٢ص ص ٢٩٠-٢٩١

٤٩ **البرهان**، ٢ص ١٦٢

٥٠ **الإتقان**، ٢ص ١٧٩، **البرهان**، ٣ص ص ١٥٦-١٦١، وانظر نصر حامد أبو زيد، **مفهوم النّصّ- دراسات في علوم القرآن**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٩٣)، ص ٢٥٢

٥١ البرهان، ١ص ١٦

٥٢ انظر **تفسير التّحرير والتّنوير**، مج١ ج١ ص ٧، **أليسَ الصُّبْحُ بقريب**، ص ١٨٦

٥٣ أبو حامد الغزالي، **جَواهر القرآن**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣)، ص ٢٠، وانظر نفسه، ص ٣٠، **إحياء علوم الدّين**، ١ص ١٠٢

٥٤ **المصدر نفسُهُ**، ١ص ٣٩٦

٥٥ انظر أبو حامد الغزالي، **المستصفى**، ((القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت))، ٢ص ٤٩، **الإحكام في أصول الأحكام**، ٣ص ١٩٩، أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشّاطبي، **الموافقات في أصول الشّريعة**، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٥)، ٣ص ٨٢، محمّد حسين الذّهبي، **التّفسير والمفسّرون**، (بيروت: دار إحياء التّراث العربي، ١٩٧٦)، ١ص ١٣، التّهامي نُقرة، **الاتّجاهات السُّنيّة والمعتزليّة في تأويل القرآن**، (القاهرة: دار القلم، ١٩٨٢)، ص ١٣، مفهوم النّصّ، ص ١٤، ص ص ٢٥٨-٢٥٩، وراى مصطفى ناصف انّ الهرمانيوطيقا موجودةٌ في كُتُب تفسير القرآن والفلسفة الإسلاميّة بمفهوماتٍ أُخرى تطبيقيّةٍ لا تنظيريّةٍ، وانّها "ليستْ قضيّةً خاصّةً بالفكر الغربيّ، بل قضيّةٌ لَها وجودُها الْمُلِحُّ في تُراثنا العربيّ القديمِ والجديدِ على السّواء" ((**نَظريّة التّأويل**، (جدّة: النّادي الثقافي الأدبي، ٢٠٠٠))، ص ١٧

٥٦ انظر **جواهر القرآن**، ص ص ٨-٩، أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد، **فصل الْمَقال - من كتاب فلسفة ابن**

رُشد، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٧)، ص ٢٢. ويتَّفقُ الجميعُ تقريباً على هذا المفهوم (سوى المتصوِّفة)، فاهلُ الظاهر اصلاً يَرَوْنَ التّأويلَ انحرافاً بالنّصِّ عن مَساره الطّبيعيِّ، إذ يروْنَ اللغةَ مكتَمِلَةً مُطابقَةً لذاتها، ولا تَحتاجُ للبحث عن ظاهرٍ وباطنٍ إلاّ ما كانَ لهُ قرينةٌ تصرفُه إلى مَعنىً غيرِ معناه الظّاهر، فهوَ نصٌّ بالقرينَة (**الإحكام في أصول الأحكام**، ١ص ٤٢، ٥٢)، ويرى الشّيعَةُ الإماميَّةُ انّه لا يَجوزُ لأحدٍ انْ يَحملَ المأثورَ من القرآن او السُّنّة إلاّ على ظاهرهما المتبادرِ للأذهان إلاّ بسلطانٍ يَخرُجُ به عن ظاهره، وقد صرَّحَ الموسويُّ أنّ "هذا ما عليه الأمّةُ المسلمةُ بجَميعِ مذاهبِها" ((عبد الحسين شرف الدّين، **النّصّ والاجتهاد**، تحقيق ابو مجتبى، (بيروت: الدار الإسلامية، ١٤٠٤هـ)، ص ٣))

٥٧ شهاب الدّين السيّد محمود الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني**، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨)، ١ص ٦

٥٨ **نفسه**، ١ص ٧

٥٩ الإتقان، ٢ص ١٨٥، وانظر نصوصا أُخرى في **إحياء علوم الدّين**، ١ص ص ٢٩٧-٢٩٨، ويشيرُ الغزاليُّ في بعضها إلى ترديده (ع) البسْمَلَةَ عشرينَ مرَّةً بقوله إنّه "لا يكونُ إلاّ لتدبُّره باطنَ مَعانيها، وإلاّ فتَرْجَمتُها وتفسيرُها ظاهرٌ لا يَحتاجُ مثلُه إلى تَكرير"

٦٠ **البرهان**، ٢ص ٧٤، وانظر الحافظ عماد الدّين إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، بعناية محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، ١ص ٦، وقد أضافَ إليه "ومن ادّعى علمَه سوى الله فهو كاذب". وقد وهم بعض الباحثينَ حينَ جعلوا قولَ ابنِ عبّاسٍ حديثاً، وتابَعوا ابنَ كثيرٍ في وَهْمه ذاكَ أيضاً ((انظر فاطمة البريكي، **قضيّة التّلقي في النقد العربي القديم**- رسالة ماجستير، (الأردن: الجامعة الأردنية، ٢٠٠١)، ص ص ٩٣-٩٤))، معَ أنّ الباحثةَ اوردت الرّواية ايضاً عن الطّبرسيِّ في الصفحة ذاتها بوصفها اثراً لابنِ عبّاسٍ لا حَديثاً للرّسول الكرمِ (ع)!

٦١ ابو عليّ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، **مَجمَع البيان في تفسير القرآن**، بعناية إبراهيم شمس الدّين، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٧)، ١ص ١١

٦٢ **الإتقان**، ١ص ١٦٩، ٢ص ٢٨٥

٦٣ **نفسه**، ١ص ص ١٨٤-١٨٥، وانظر **تَمعين النّصّ**، ص ص ٢٨-٢٩

٦٤ **الموافقات في أصول الشّريعة**، ٣ص ٢٦، ومن الحقِّ هُنا انْ نُذكِّرَ بأنّ المعتزلَةَ رفضوا فكرةَ الظّاهر والباطن، والتّنزيلَ والتّأويلَ، مُحاولينَ بذلكَ الرّدَّ على الشّيعَةِ الذينَ جَعَلوا من القرآن والسُّنّة ظاهرَيْن، وجَعلوا المَرْجِعَ إلى الباطنِ الذي لا يعْلَمُه إلاّ الإمامُ الحُجَّةُ، واحتَجَّ القاضي عبدُ الجبّار قائلاً: "ولا حُجَّةَ في الزّمان، بل الدّلالةُ قد دلّتْ على انّ الأئمّةَ لا تسلُكُ إلاّ طريقةَ القرآنِ والسنّة، فإذا اوجبوا الرُّجوعَ إليهم، وإلى الحجّة في الزّمان، وذلك متعذِّر، فقدْ سَدّوا بابَ معرفَةِ الإسلام" (**المغني في أبواب التّوحيد والعدل**، ١٦ص ص ٣٦٣-٣٦٤)، وفي ذلكَ نقاشٌ وردودٌ ليسَ هذا موضعَها!

٦٥ **سورة آل عمران**، آية ٧

٦٦ ابو محمد الحسين بن مسعود، **تفسير البغويّ (المسمّى معالم التّنزيل)**، تحقيق خالد العَكّ ومروان سوار، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦)، ١ص ٣٢١، **الإتقان**، ٢ص ٣، **البحر المحيط**، ١ص ٤٥٠، ويُقتضى التّنبيه على انّ الحشويَّةَ الْزَموا الوَقفَ على (إلاّ اللهُ)، واتّخذوا من ذلكَ حُجّةً على جَوازِ انْ يُخاطبَنا اللهُ تعالى بالمُهْمَلِ الذي لا مَعنى له

٦٧ الشّريف الرضيّ ابو الحسن محمد بن الحسين، **حقائق التّأويل في متشابه التّنزيل**، شرحه محمد الرّضا آل كاشف الغطاء، ((إيران-قم: الدار الإسلامية، (د.ت))، ص ٨

٦٨ **البرهان**، ٢ص ١٦٦

٦٩ البحر المحيط، ١ص ٤٥٤، **الإتقان**، ٢ص ٥، **مناهل العرفان**، ٢ص ١٧٨، **البرهان**، ٣ص ٧٥

٧٠ **الإحكام في أصول الأحكام**، ١ص ٤٩٢، **تفسير البغوي**، ١ص ١٢٣، **البحر المحيط**، ١ص ٤٥٢

٧١ بقوله تعالى: (كِتابٌ أُحْكِمَت آياته ثُمَّ فُصِّلَتْ) (سورة هود، آية١)

٧٢ صحيح البُخاري، كتاب الإيمان، ١ص ١١٦، صحيح مسلم - كتاب الإيمان، ١٥٩٩

٧٣ قالَ النّوويُّ: "الرّاسِخونَ يَعْلَمونَ تاويلَه" (شرح النّوويّ على صحيح مسلم، ١٦ص ٢١٨)، وهو موافقٌ في ذلكَ لابنِ عبّاسٍ ومُجاهدٍ ومجموعةٍ من العلماء (الإتقان، ٢ص ٣، البرهان، ٢ص ص ٧٢ - ٧٣، المستصفى، ص ٦٩)

٧٤ انظر عفّت الشّرقاوي، قضايا إنسانيّة في أعمالِ المفسِّرين، (بيروت: دار النّهضة العربيّة، ١٩٧٨)، ص ٤٤

٧٥ يُخالفُ الباحثُ هُنا ما ذهبَ إلى استنْتاجه محمد رضا مبارك من انّ ظاهرَ الآيات يَحكُمُ بانّ التّاويلَ منسوبٌ إلى الله وَحْدَه ((استقبال النّصّ عند العرب، (عمّان: دار الفارس للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٦)، ص ٢٢٢))

٧٦ المغني في أبواب التّوحيد والعدل، ١٦ص ٣٧٩

٧٧ ينبغي التّفريقُ بينَ النّظرِ إلى كلامِ الله بوصفه صفةً له، وصفتهُ قديمةٌ قِدَمَه تعالى، وبينَ من عدَّهُ مَخلوقاً حادثاً، فالأولى للأشاعرة بما جعلوا الكلامَ صفةَ المتكلّم أزليَّةً أبديَّةً غيرَ محدودة، والأخرى نظرةُ المعتزلة التي تَجْعَلُه مخلوقاً حادثاً مُبايناً للمتكلّم، ولهذا لَمْ يفرّق المعتزلةُ بينَ كلامِ اللهِ وكلامِ البشرِ باعتباره لغةً تكمُنُ فيه خصائصُ كلامِهم، ولهذا كانت دلالتُه محدودةً مثل دلالةِ كلامِهم!

٧٨ البرهان، ١ص ٩

٧٩ الإمتاع والمؤانسة، ٢ص ص ١٤٢-١٤٣، وهو يقصد بلاغاتِ العقلِ والبديهة والشّعر والأمثالِ والخطب

٨٠ جواهر القرآن، ص ص ٢٨-٢٩

٨١ مفهوم النّصّ، ص ٣٠٥

٨٢ نفسه، ص ٣١

٨٣ ابو بكر محيي الدّين محمد بن علي بن عربي، الفتوحات المكّيّة، ((بيروت: دار صادر، (د.ت))، ٢ص ص ٤٥٣-٤٥٤ . وانظر قولَ ابنِ رشيقٍ: "ولكلِّ كلامٍ وَجْهٌ وتاويلٌ" (العمدة، ١ص ١٠٢)، ويؤكّدُ الزّهريُّ أهميَّة اللغة للمؤوِّل بقوله: "إنّما اخْطَأ النّاسَ كَثيرٌ من تاويلِ القرآنِ لِجَهْلِهم بلُغَة العرب" (ابو حاتم احمد بن حمدان الرّازي، كتابُ الزّينة في الكلمات العربيّة الإسلاميّة، عارضه باصوله وعلّق عليه حُسين فضل الله الهمداني، (القاهرة: ١٩٧٥)، ص ١١٦ . كَما بيَّنَ الزّركشيُّ شيئاً من خَطَأ التّاويلِ في إدراكِ الحقيقةِ احياناً بما يَبْعُدُ عن الأفهامِ او بما تَقصُرُ هيَ عن إدراكه (البرهان، ٢ص ٨٠)

٨٤ محيي الدّين بن عربي، تفسير القرآنِ الكريم، بعناية عبد الوارث محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، ص ٥

٨٥ الفتوحات المكّيّة، ٢ص ١٨١

٨٦ البرهان، ٢ص ص ١٤٨-١٤٩، وهو ذاتُه تفريقُ السّهرورديّ بينَهما. انظر (عبد القاهر بن عبد الله، عَوارف المعارف، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٦))، ص ص ٢٥-٢٦، مفهوم النّصّ، ص ٢٦٤

٨٧ تفسير القرآن الكريم، ص ٤

٨٨ البرهان، ٢ص ص ١٦٥-١٦٦، وانظر نفسه، ٢ص ص ١٤٩-١٥٠

٨٩ الرّاغب ابو القاسم حسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيّد كيلاني، ((بيروت: دار المعرفة، (د.ت))، ص ٣١

٩٠ المستصفى، ٢ص ٤٩

٩١ السيّد الشّريف عليّ بن محمد الجرجاني، التّعريفات، (مصر: مطبعة المؤيّد، ١٣٢١هـ)، ص ٧٢، ويمثِّلُ لذلكَ بانّ قولَهُ تعالى: (يُخرِجُ الحيَّ من الميِّت) يُمْكِنُ انْ يُعالَجَ بوجْهَيْنِ، فإنْ ارادَ بهِ إخراجَ الدّجاجةِ من البيضةِ فَهُوَ تفسيرٌ، وإنْ اراد إخراجَ المؤمنِ من الكافرِ كانَ تاويلاً

٩٢ كابنِ الأثيرِ الذي رَفَضَ هذا التّوجُّهَ بقوله: "وذهبَ بعضُهم في الفرقِ بينَ التّفسيرِ والتّاويلِ إلى شيءٍ غَيْرِ مُرْضٍ" ((ضياء الدّين نصر الله بن محمّد، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد،

(بيروت: المطبعة العصريّة، ١٩٩٥)، ١ص ٧٥))، ولَمْ يتنبّه محمّد رضا مبارك إلى موقف ابن الأثير، فبَنى عليه ما يُخالفُ وجْهَتَه، لأنّه يفرِّقُ بينهما على أساسِ أنّ التفسيرَ يُعالجُ المفرَداتِ والتّأويلَ يُعالجُ النَّصَّ، ثُمَّ يستشهدُ بنصِ ابنِ الأثيرِ (استقبال النّصّ عند العرب، ص ٢٢٣)، وهو خطأ ظاهر!

٩٣ محمّد الطّاهر بن عاشور، **مقاصد الشّريعة الإسلاميّة**، (تونس: الشّركة التّونسيّة، ١٩٨٨)، ص ١٤٦

٩٤ محمّد مهدي القَطَناني، **أثر اختلاف الأزمانِ في تغيُّر الأحكام** - رسالة ماجستير، (الأردن: الجامعة الأردنيّة، ١٩٨٩)، مقدّمة الباحث، وانظر في القضيّة **الموافقات في أصول الشريعة الإسلاميّة**، ٢ص ٢٨٦ . وتُعَدُّ نظريّةُ المقاصدِ في الاجتهادِ مُوافِقَةً إلى حدٍّ بعيدٍ لما نَحنُ بصدده، إذ إنّ المحدِّدَ الأساسيَّ للاجتهادِ يَكمُنُ في معرفةِ مقاصدِ الشّارعِ في كلِّ مسألة، ثُمَّ تمكُّنِ المجتهدِ من الاستنباطِ بناءً على فهمه فيها، على حين يَكونُ التّمكُّنُ من الاستنباطِ بالوسائلِ المعروفةِ عند الأصوليّينَ، والمعارفُ التي يُحْتاجُ إليها في فَهمِ الشّريعة مدخَلاً خادماً للوصْفِ الأوّل، وكأنّها التّفسيرُ الخادمُ للتّأويلِ (**الموافقات في أصول الشّريعة**، ٢ص ص ١٠٥-١٠٧، **مقاصد الشّريعة الإسلاميّة**، ص ص ١٥-١٨)

٩٥ **الإتقان**، ٢ص ١٧٨

٩٦ **النّصّ والاجتهاد**، ص ٣، وانظر نفسه، ص ٤

٩٧ **دلائل الإعجاز**، ص ٥٠٤، ويسمّيه حيناً آخرَ الإفراطَ في التّأويل، واستكراهَ الألفاظ على ما لا تُقلّه من المعاني "حُبّاً للتّشوُّفِ، أو قصداً إلى التّمويه، وذَهاباً في الضّلالة" (**أسرار البلاغة**، ص ٢٨٩)

٩٨ أبو الفتح عثمان بن جنّي، **سرّ صناعة الإعراب**، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٥)، ١ص ١٦

٩٩ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السّكّاكيّ، **مفتاح العلوم** ضبط وشرح نعيم زرزور، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٨٣)، ص ٥٩١، وانظر مزيداً في **البيان والتبيُّن**، ١ص ١٨٨، **أسرار البلاغة**، ص ٧٦، ٢٩٠، **سرّ الفصاحة**، ص ص ١٣٣-١٣٤

١٠٠ نصر حامد أبو زيد، **إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩)، ص ١٥

١٠١ **سورة الرّحمن**، الآيات ١٩-٢٣

١٠٢ **سورة فاطر**، آية ٢١

١٠٣ **سورة الفرقان**، آية ٥٣

١٠٤ جلال الدين عبد الرحمن السّيوطي، **الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور**، تصحيح نجدت نجيب، (بيروت: دار إحياء التّراث، ٢٠٠١)، ٧ص ٦١٣ ، **جامع البيان في تأويل القرآن للطّبريّ** ١١: ٥٨٦-٥٨٧، الشّيخ إسماعيل حقّي البُروسُويّ، **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان**، اختصار وتحقيق محمّد علي الصّابوني، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٩)، ٤ص ٢٠٤، **تفسير البغويّ** المسمّى مَعالم التّنْزيل، ٤ص ٢٦٩، أبو سعيد الحسن بن يسار البصريّ، **تفسير الحسن البصريّ**، جمع وتوثيق محمّد عبد الرّحيم، ((القاهرة: دار الحديث، (د.ت))، ٢ص ص ١٣٥-١٣٦، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ، **الكشّاف عن حقائق التّنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل**، بعناية عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٩٧)، ٤ص ٤٤٥، نظام الدّين محمد بن الحسن النّيسابوري، **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، بعناية زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)، ٦ص ٢٢٩، أبو البركات عبد الله بن أحمد النّسفيّ، **تفسير النّسَفيّ** (المسمّى مدارك التّنْزيل وحقائق التّأويل)، تحقيق يوسف علي بديوي، (بيروت: دار الكلم الطّيّب، ١٩٩٨)، ٣ص ٤١٢، تفسير ابن كثير، ٧ص ٤٥٥، محمد بن يوسف اطفيش، **تيسير التّفسير للقرآن الكريم**، (عُمان: وزارة الثقافة والتراث القومي، ١٩٩٤)، ١٣ص ص ١٩-٢٠، القاضي عبد الحقّ بن غالب بن عطيّة، **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق المجلس العلمي بتارودانت، (المغرب: ١٩٩١)، ١٥ص ٣٢٩، هود بن محكّم الهوّاري، **تفسير كتاب الله العزيز**، تحقيق بلحاج بن سعيد شريفيّ، (بيروت: دار الغرب الإسلاميّ ١٩٩٠)، ٤ص ٢٦٣، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثّعالبيّ، **جواهر الحسان في تفسير القرآن**، ((بيروت: مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، (د.ت))، ٤ص ص ٢٤٢-٢٤٣، محمد حسين فضل الله، **من وَحي القرآن**، (بيروت: دار الملاك، ١٩٩٨)، ٢١ص ٣١٠

١٠٥ المصادر نفسها، الصّفحات نفسها

١٠٦ المصادر نفسها، الصّفحات نفسها

١٠٧ من وَحي القرآنِ، ٢١ص ٣١٠

١٠٨ تفسير كتاب الله العزيز، ٤ص ٢٦٣

١٠٩ تيسير التّفسير، ١٣ ص ص ٢٠-٢١، تفسير ابن كثير، ٧ ص ٤٥٦

١١٠ تنوير الأذهان، ٤ ص ٢٠٤

١١١ انظر المصادر المذكورة في هامش ١٠٤

١١٢ انظر المصادر المذكورة في هامش ١٠٤

١١٣ ابو الفضل رشيد الدّين الميبديّ، تفسير كشف الأسرار وعُدّةُ الأبْرار، باهتمام علي اصْغَر حكْمَت، (طَهران: ١٣٨٠ هـ)، ٩ص ٤١٣، وانظر تفسير الثّعالبيّ، ٤ص ٢٤٣، وينقُلُ فيه انّ الثّعلبيُّ قد جاءَ بالرّواية عن الثّوريِّ، الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، ٧ص ص ١٦٤-١٦٥، والرّوايَةُ اصلاً حَديثٌ رواهُ ابنُ عبّاس وانس ابـن مالكٍ عن النّبيُّ (ص)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ٩ص٢٥٨، وينقُل الرّوايَةَ عن سَلمان الفارسيّ وسعيد بن جُبَيْر وسُفيان الثّوري، وتابَعَ: "ولا غَرْوَ انْ يكونا بَحْرَيْنِ لِسَعَةِ فضلِهما وكثرةِ خيْرهما، فإنّ البحرَ يُسمّى بَحراً لِسَعَته"، والطّريفُ انّ تفسيرَي الشّيعةِ الإماميّةِ الحَديثَيْنِ لا ياتيانِ على ذِكر الرّوايةِ، وهما تفسير الميزان للعلأمةِ الطّباطبائيّ، ومن وحي القرآنِ لمحمّد حسين فضل الله!

١١٤ تفسير كشف الأسرار وعدّة الأبرار، ٩ ص ٤١٢

١١٥ تفسير القرآن الكريم، ٢ ص ٢٨٦

١١٦ احمد بن عبد الحليم بن تيمية، التّفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التّراث العربي، ١٩٩٧)، ١٠ ص ٣٥٠

١١٧ سورة الأنبياء، آية ٣٣

١١٨ سورة الرّحمن، آية ١٠

١١٩ سورة البقرة، آية ١٦٤

١٢٠ سورة فاطر، آية ١٢

١٢١ سورة الرحمن، آية ٢

١٢٢ السّورة نفسها، آية ١٤

١٢٣ السّورة نفسها، آية ١٥

١٢٤ التّفسير الكبير، ١٠ ص ص ٢٥٢-٢٥٣

١٢٥ برهان الدّين إبراهيم بن عمر البقاعيّ، نَظمُ الدّرَر في تَناسُب الآياتِ والسُّور، خرّج آياته واحاديثه عبد الرّزّاق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٥)، ٧ ص ٢٨٢

١٢٦ المصدر نفسه، ٧ ص ٢٨٣

١٢٧ العلأمة نظام الدّين الحسن بن محمّد، تفسير غرائب القرآنِ ورغائب الفرقان، ٦ص ٢٢٩ . وإلى مثله في الجزئيّتين المتقدّمتين ذهبَ السيّدُ محمد حسين الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٤٢هـ)، ١٩ص ص ١١٢-١١٣، وكذلك سيّد قطب، في ظلال القرآنِ، (بيروت: ١٩٧١)، ٢٣ص ص ٦٨١-٦٨٣

١٢٨ المحرّر الوجيز، ١٥ص ٣٢٩

١٢٩ نفسه، ١٥ص ص ٣٣١-٣٣٢

١٣٠ انظر هذه الأقوالَ والتّفاسيرَ في هامش ١٠٤

ثَبَتُ الْمَصادِرِ والْمَراجِع

ابْنُ الأثِيرِ، ضِياءُ الدِّينِ نَصْرُ الله بْنُ مُحَمَّدٍ:

المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، (بيروت: المطبعة العصريّة، ١٩٩٥)

الأسَدْآباديُّ، القاضي أبُو الْحَسَنِ عَبْدُ الْجَبَّارِ:

الْمُغْني في أبواب التّوحيد والعَدْل، تحقيق امين الخولي، بإشراف طه حسين وإبراهيم مدكور، (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٤)

الأصْفَهَانِيُّ، الرَّاغِبُ أبُو القَاسِمِ حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ:

المفردات في غريب القرآنِ، تحقيق محمد سيّد كيلاني، ((بيروت: دار المعرفة، (د.ت))

أطْفيش، مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ:

تيسير التّفسير للقرآن الكريم، (عُمان: وزارة الثقافة والتراث القومي، ١٩٩٤)

الألُوسيُّ، شِهابُ الدِّينِ السَّيِّدُ مَحْمُودٌ:

رُوحُ المعاني في تفسير القرآن والسَّبعِ المثاني، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨)

الأنْدَلُسيُّ، أبُو حَيَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ:

البحر المحيط، ((الرّياض: مكتبة النّصر الحديثة، (د.ت))

البُرُوسَوِيُّ، الشَّيْخُ إسْماعِيلُ حَقِّيّ:

تنوير الأذهان من تفسير روحِ البيان، اختصار محمّد علي الصّابوني، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٩)

الْبُرَيْكِيُّ، فَاطِمَةُ:

قضيّة التّلقّي في النقد العربي القديم- رسالة ماجستير، (الأردنّ: الجامعة الأردنية، ٢٠٠١)

البَصْرِيُّ، أبُو سَعِيدٍ الْحَسَنُ بْنُ يَسَارٍ:

تفسير الحسن البصريّ، جمع وتوثيق محمّد عبد الرّحيم، ((القاهرة: دار الحديث، (د.ت))

الْبَغَوِيُّ، أبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ:

تفسير البغويّ (معالم التّنْزيل)، تحقيق خالد العَكّ ومروان سوار، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦)

البِقاعِيُّ، بُرْهانُ الدِّينِ إبْراهِيمُ بْنُ عُمَرَ:

نَظْمُ الدّرَر في تَناسُب الآياتِ والسُّوَر، خرَّج آياته وأحاديثه عبد الرّزّاق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٥)

التَّوْحِيدِيُّ، أبُو حَيَّانَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ:

الإمتاع والمؤانسة، تصحيح أحمد امين وأحمد الزّين، ((طهران: منشورات الشّريف الرّضيّ، (د.ت))

ابْنُ تَيْمِيَّةَ، أحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ:

التّفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التّراث العربي، ١٩٩٧)

الثَّعَالِبيُّ، أبُو مَنْصُورٍ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدٍ:

جَواهر الحِسانِ في تفسير القرآنِ، ((بيروت: مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، (د.ت))

الْجَابِرِيُّ، مُحَمَّد عابِد:

بنيةُ العقل العربيّ، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨٦)

الجَاحِظُ، أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ:

البيان والتبيُّن، تحقيق عبد السّلام هارون، ((بيروت، دار الجيل، (د.ت))

الجُرْجَانِيُّ، عَبْدُ القَاهِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ:

أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٨)

دلائل الإعجاز، تقديم وشرح ياسين الأيّوبي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠)

الجُرْجَانِيُّ، السَّيِّدُ الشَّرِيفُ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ:

التّعريفات، (مصر: مطبعة المؤيّد، ١٣٢١هـ)

ابْنُ جِنِّيٍّ، أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ:

سرّ صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، (دمشق، دار القلم، ١٩٨٥)

الخَفَاجِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ سِنَانٍ:

سرّ الفصاحة، صحّحه وعلّق عليه عبد المتعال الصّعيدي، (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح، ١٩٦٩)

ابْنُ خَلْدُونٍ، عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ مُحَمَّدٍ:

المقدّمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٢)

الذَّهَبِيُّ، مُحَمَّدُ حُسَيْن:

التّفسير والمفسّرون، (بيروت: دار إحياء التّراث العربي، ١٩٧٦)

الرَّازِيُّ، أَبُو حَاتِمٍ أَحْمَدُ بْنُ حَمْدَانَ:

كتابُ الزّينة في الكلمات العربيّة الإسلاميّة، تعليق حُسين فضل الله الهمداني، (القاهرة: ١٩٥٧)

ابْنُ رُشْدٍ، أَبُو الْوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ:

فَصْلُ الْمَقَال - من كتاب فلسفة ابن رُشد، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨)

الرَّضِيُّ، الشَّرِيفُ أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ:

تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد حسن، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥)

حقائق التّأويل في متشابه التّنزيل، شرحه محمد الرّضا آل كاشف الغطاء، ((إيران-قمّ: الدار الإسلامية، (د.ت))

الزُّرْقَانِيُّ، مُحَمَّدُ عَبْدُ الْعَظِيمِ:

مناهل العرفان في علوم القرآن، (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٩٥٢)

الزَّرْكَشِيُّ، بَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ:

البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٩٥٧)

الزَّمَخْشَرِيُّ، جَارُ اللهِ أَبُو القَاسِمِ مَحْمُودُ بْنُ عُمَرَ:

الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، بعناية عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٩٧)

السِّجِلْمَاسِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ القَاسِمُ الأَنْصَارِيُّ:

المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، (المغرب: مكتبة المعارف، ١٩٨٠)

السَّعْدَنِيُّ، مُصْطَفَى:

تَمَعين النّصّ - قراءة نقديّة لأعراف الفهمِ البشريّ للخطاب القرآنيّ، (الإسكندريّة: منشاة المعارف، ١٩٩٤)

قراءة المعنى الشّعريّ، (الإسكندريّة: منشاة المعارف، ١٩٩٤)
السَّكَّاكِيُّ، أَبُو يَعْقُوبَ يُوسُفُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ:
مفتاح العلوم، ضبط وشرح نعيم زرزور، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٨٣)
السَّمَرْقَنْدِيُّ، أَبُو اللَّيْثِ نَصْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ:
تفسيرُ القرآن الكريم (بحر العلوم)، تحقيق عبد الرّحيم الزّقّة، (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٨٥)
السَّهْرَوَرْدِيُّ، أَبُو النَّجِيبِ عَبْدُ القَاهِرِ بْنُ عَبْدِ الله:
عَوارف المعارف، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٦)
السُّيُوطِيُّ، جَلَالُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحْمنِ:
الإتقان في علوم القرآن، (القاهرة: المطبعة الأزهرية، ١٩٢٥)
الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، تصحيح نجدت نجيب، (بيروت: دار إحياء التّراث، ٢٠٠١)
الشَّاطِبِيُّ، أَبُو إِسْحقَ إِبْراهِيمُ بْنُ مُوسَى:
المُوَافَقَاتُ في أصول الشّريعة، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٥)
شَرَارَة، عَبْدُ اللَّطِيف:
ابن حزم - رائد الفكر العلميّ، ((بيروت: المكتب التّجاري، (د.ت))
شَرَفُ الدِّين، عَبْدُ الْحُسَيْن:
النّصُّ والاجتهاد، تحقيق أبو مجتبى، (بيروت: الدار الإسلامية، ١٤٠٤هـ)
الشَّرْقاوِيُّ، عِفّت:
قضايا إنسانيّة في أعمال المفسّرين، (بيروت: دار النّهضة العربيّة، ١٩٧٨)
الطَّبَاطَبَائِيُّ، مُحَمَّد حُسَيْن:
الميزان في تفسير القرآن، (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٤٢هـ)
الطَّبْرِسِيُّ، أَبُو عَلِيٍّ الْفَضْلُ بْنُ الْحَسَنِ:
مَجْمَع البيان في تفسير القرآن، بعناية إبراهيم شمس الدّين، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٧)
الطَّبَرِيُّ، أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ:
جامع البيان في تأويل القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩)
الظَّاهِرِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَزْمٍ:
الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق احمد محمد شاكر، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠)
التّقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه، تحقيق إحسان عبّاس، (بيروت: دار ومكتبة الحياة، (د.ت)
مَراتبُ الإجماع، (القاهرة: ١٣٥٧هـ)
ابْنُ عاشُور، مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ:
أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقريب، (تونس: الشّركة التّونسيّة لفنون الرّسم، ١٩٨٨)
تفسير التّحرير والتّنوير، (تونس: دار سَحنون للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٧)
مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، (تونس: الشّركة التّونسيّة، ١٩٨٨)
ابْنُ عَرَبِيٍّ، أَبُو بَكْرٍ مُحْيِي الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ:
تفسير القرآنِ الكريم، بعناية عبد الوارث محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)

الفتوحات المكيّة، ((بيروت: دار صادر، (د.ت))

عَصْفُور، جابر:

قراءة التّراث النقديّ، (جدّة: نادي جدّة الثقافي، ١٩٩٠)

ابْنُ عَطِيَّة، القَاضِي عَبْدُ الحَقِّ بْنُ غَالِب:

المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بتارودانت، (المغرب: ١٩٩١)

الغَذّامِيُّ، عَبْدُ الله:

القصيدة والنّصّ المُضادّ، (بيروت، المركز الثّقافي العربيّ، ١٩٩٤)

الغَزَالِيُّ، أَبُو حامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّد:

إحياء علوم الدّين، سلسلة كتب الشّعب، ((القاهرة، دار الشّعب، (د.ت))

إلجام العوامّ عن علمِ الكلامِ، تصحيح المعتصم البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥)

جوَاهر القرآن، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣)

المُسْتَصفَى، ((القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت))

فَضْلُ الله، مُحَمَّد حُسَيْن:

من وَحي القرآنِ، (بيروت: دار الملاك، ١٩٩٨)

قُطْب، سَيِّد:

في ظلال القرآنِ، (بيروت: ١٩٧١)

القَطَنَانِيُّ، مُحَمَّد مَهْدِي:

أثر اختلافِ الأزمانِ في تغيُّر الأحكام - رسالة ماجستير، (الأردنّ: الجامعة الأردنيّة، ١٩٨٩)

ابْنُ كَثِير، الحَافِظُ عِمادُ الدِّين إسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ:

تفسير القرآن العظيم، بعناية محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)

مُبارَك، مُحَمَّد رِضَا:

استقبال النّصّ عند العرب، (عمّان: دار الفارس للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٦)

المِيبُدِيُّ، أَبُو الفَضْلِ رَشِيدُ الدِّين:

تفسير كشف الأسرار وعُدَّةُ الأبرار، باهتمام علي اصْغَر حِكْمَت، (طَهران: ١٣٨٠ هـ)

ناصِف، مُصْطَفَى:

نَظريّة التّأويل، (جدّة: النّادي الثقافي الأدبي، ٢٠٠٠)

نُقْرَة، التّهامي:

الاتّجاهات السُّنيّة والمُعتَزليّة في تأويل القرآن، (القاهرة: دار القلم، ١٩٨٢)

النَّسَفِيُّ، أَبُو البَرَكاتِ عَبْدُ الله بْنُ أَحْمَدَ:

تفسير النّسَفيّ (المسمّى مدارك التّنْزيل وحقائق التّأويل)، تحقيق يوسف علي بديوي، (بيروت: دار الكلِم الطّيّب، ١٩٩٨)

النَّيْسَابُورِيُّ، نِظامُ الدِّين مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَن:

تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بعناية زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)

الهَوَّارِيُّ، هُودُ بْنُ مُحَكَّم:

تفسيرُ كتاب اللهِ العزيز، تحقيق بلحاج بن سعيد شريفيّ، (بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٠)

تأثيرات مدارس القرن العشرين المسرحية الأوروبية غير الواقعية على مسار المسرح الأردني التابع لوزارة الثقافة: ١٩٧٦ـ ٢٠٠٢

د. عيسى سويدان

قسم اللغة الإنجليزية ـ جامعة فيلادلفيا

ملخص

تفحّصت هذه الدراسة ثلاثة اتجاهات مسرحية عمل بها المسرحيون الأردنيون في مديرية المسرح الأردني في الفترة من عام ١٩٧٦ إلى عام ٢٠٠٢، (١) مسرحة نصوص أوروبية كانت بمثابة تطبيقات عملية على النظريات الأوروبية غير الواقعية في القرن العشرين، (٢) مسرحة نصوص عربية ومحلية على غرار هذه الأعمال الأوروبية غير الواقعية، و (٣) اتجاه الإعداد والتجريب، بإعداد نصوص عالمية وعربية ومحلية ومسرحة هذه الأعمال حسب واحدة أو أكثر من هذه النظريات الأوروبية غير الواقعية. واستعانت هذه الدراسة بتفحّص دقيق لعرضين مسرحيين لكل اتجاه، واستنتجت أن الاتجاهين الأول والثاني ساهما في إثراء الحركة المسرحية الأردنية بالاطلاع على مدارس وبحوث مختلفة في عالم التجريب المسرحي وتعلم طرق بحث جديدة في هذا المجال. أما الاتجاه الثالث، والذي لا تزال موجته تكتسح الغالبية العظمى من الإنتاج المسرحي الأردني الرسمي، فطبع تأثيره بالسلبية لغوصه في حبكات مسرحية مبهمة لشدة تركيزه على الشكل والصورة المرئية والمؤثرات الصوتية الغامضة، من خلال تغييرات مبدئية في النصوص الأصلية، وإلغاء الأرضية الواقعية في معظمها. كما ساد هذا الاتجاه إهمال القواعد المنطقية لعلم الجمال، وهيمنة المخرج بإهمال فن التمثيل وإلغاء الوحدات الثلاث وطمس فكر الكاتب. كل ذلك بحجة التجريب، مما ساعد على ترسيخ فهم خاطئ لفن التمثيل عن طريق سيطرة ما يسمى "التمثيل غير الواقعي" لدى الجيل الجديد من الممثلين، ثم نفور الجمهور عن المسرح الأردني، لتسببه في إهانة ذكائهم وتشويه ذوقهم الفني وعدم جدواه في إشباع توقعاتهم لدى ذهابهم للمسرح، وتشويه الحس الفني والمنطق الجمالي لدى الكثير من الفنانين الأردنيين الناشئين.

Influences of the Non-Realistic European Theatrical Styles of the 20th Century on the Official Jordanian Theatre: 1976 - 2002

Dr. Issa Sweidan

Department of English Language

University of Philadelphia

ABSTRACT

This study examined the influences of the non-realistic theatrical styles of the 20th century Europe on the official Jordanian theatre, between the years 1976 and 2002. The study found that these influences have steered the Jordanian theatre into three directions: (1) staging European plays that represented direct applications on the non-realistic European theatrical styles, (2) staging Arabic and local plays that were written and/or directed according to the non-realistic European theatrical styles, and (3) adapting local, Arabic, and international plays by wiping out the original scripts, doing away with their realistic foundation and much of the aesthetic logic, and staging them in one or more of the non-realistic European theatrical styles. The study utilized two productions on each direction. It concluded that the first two directions have enriched the Jordanian theatrical movement by arriving at several styles of theatrical experimentation, and learning new trends in theatre research, while the third direction, which has been the dominant way of staging plays at the official Jordanian stage, has not been successful, created the misconception of what has been called "non-realistic acting" among many young Jordanian actors, turned off Jordanian audiences by failing to generate a rapprochement between them and the Jordanian stage, and hurt the artistic taste and directorial visions of young Jordanian theatre artists.

المقدمة: المعاني والمصطلحات التي أعطيت لهذا الموضوع:

تبحث هذه الدراسة في تأثيرات مدارس القرن العشرين المسرحية الأوروبية غير الواقعية على نتاج المسرح الأردني التابع لوزارة الثقافة بدءا من الموسم المسرحي الأردني عام ١٩٧٦ وحتى نهاية مهرجان عمون لمسرح الشباب الثامن، ٢٠٠٢/٨/٢٤ . وقد أخذت هذه التأثيرات ثلاثة اتجاهات: تمثل الاتجاه الأول بمسرحة نصوص مسرحية أوروبية على النظريات الأوروبية غير الواقعية المختلفة. والاتجاه الثاني أخذ مسار مسرحة نصوص عربية ومحلية (اردنية) على غرار تلك الأعمال الأوروبية غير الواقعية. وستبين هذه الدراسة أن هذين الاتجاهين قدما للمسرح الأردني بعض الفوائد، فأغنيا تجربة المسرحيين الأردنيين، واستقطبا جماهير جديدة للمسرح الأردني، واشبعا رغبات جمالية ترفيهية وفكرية لدى هذا الجمهور، وساعدا على استقطاب بعض الأدباء الأردنيين اللامعين لعالم النقد المسرحي.

أما الاتجاه الثالث، فتمثل بعمليات الإعداد والتجريب لنصوص عربية وعالمية ومحلية، ومسرحة تلك النصوص باستعمال واحد على الأقل من عناصر مدارس المسرح الأوروبية غير الواقعية، وبوجود مؤلف النص مع طاقم العرض في معظم الأعمال المحلية. وستبين هذه الدراسة أن هذا الاتجاه أدى إلى نتائج سلبية في المسرح الأردني والحالة الثقافية الأردنية من اهمها: إهمال اهم الأدباء الأردنيين للمسرح الأردني، وفقدان الثقة بهذا المسرح من طرف كبار مسؤولي الدولة والعاملين في الحقل الثقافي الأردني، وجنوح جماهير المسرح عن مسرح وزارة الثقافة وتوجههم إلى المسارح التجارية التي أوهمت روادها بأنها سياسية هادفة، وتلوث الذوق الفني وتخبط المنطق الجمالي لدى الكثير من المسرحيين الأردنيين اليافعين لانخراط معظمهم بمفاهيم مشتقة من نظريات القرن العشرين الأوروبية التي اعتمدت على خدمة الشكل الخارجي للعمل

الفني وغفلت، متعمِّدة في بعض الأحيان، عن الاهتمام بالمحتوى، فغدا التركيز على الوسط وليس على الرسالة،[١] وخلت من وضوح التزامها بلسفة محددة، واختزلت أبعاد شخوص مسرحياتها، واعتمدت أساليب الإبهار وعناصر المفاجأة والصدمة العاطفية لدى الجمهور.

وتستعين هذه الدراسة بتحليل عرضين مسرحيين لكل واحد من الاتجاهات الثلاثة المذكورة: من الاتجاه الأول مسرحية لعبة النهاية،[٢] للكاتب الإيرلندي صموئيل بيكيت وإخراج باسم دلقموني، ومسرحية الفرنسي جورج كلمنصو، قناع السعادة،[٣] إخراج شعبان حميد. ومن الاتجاه الثاني مسرحية المصري محمود ذياب، الغرباء لا يشربون القهوة،[٤] إخراج حاتم السيد، ومسرحية الكاتب الأردني جميل عواد، الشحادين،[5] ومن إخراج المؤلف. ومن الاتجاه الثالث مسرحية ملهاة عازف الكمان،[٦] من إعداد وإخراج حكيم حرب عن مسرحية ألبير كامو، سوء التفاهم،[٧] ورحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة،[٨] إعداد وإخراج أشرف طلفاح عن رحلة حنظلة[٩] للسوري سعد الله ونوس.

يأتي اختيار الدراسة لهذه العروض المسرحية لعدة أسباب أهمها أن هذه النصوص أصابت شهرة مرموقة على الصعيدين العربي والعالمي من خلال عروضها المسرحية، ومن خلال تدريسها في دوائر الدراما والأدب في المعاهد والجامعات في معظم بلدان العالم. كما أن هذه النصوص استحوذت على انتباه العديد من نقاد المسرح من العرب والغرب فكتب عنها الكثير من الكتب والمقالات النقدية المتخصصة في العديد من اللغات. وكانت عروض هذه المسرحيات في مهرجانات المسرح الأردني استحوذت على اهتمام كبير من النقاد الأردنيين وجمهور هذه المهرجانات.

مع بداية الموسم المسرحي الأردني لعام ١٩٧٦، كان عدد كبير من مخرجي المسرح الأردني، والذين كانوا حديثي التخرج من معاهد عربية وأجنبية، مثل أحمد قوادري

وشعبان حميد واحمد شقم وباسم الدلقموني وحاتم السيد وطارق برقاوي ومحمد حلمي وتيسير عطية، يتوقون للإخراج حسب نظريات ومدارس القرن العشرين الأوروبية غير الواقعية التي درسوا عنها في جامعات مصر وأوروبا. فبدأوا بتطبيق مبادئ مدارس الرمزية والتعبيرية والشكلية (أو البنّائية) الروسية والمستقبلية الإيطالية، ومدرسة العبث أو اللامعقول، والملحمية البرختية أو التغريب ، والسوريالية. وتسلمت أجيال خريجي جامعة اليرموك الأردنية في الثمانينات مسالة الإخراج المسرحي، وبمرور سنوات طويلة في عالم التجريب، ولدى اقتراب القرن العشرين على الانتهاء، اختلطت على أيدي هؤلاء الأفراد المدارس غير الواقعية بمدارس البصريات في عالم الإعداد والتجريب، واختفت معالم الغالبية العظمى من النصوص المسرحية الأصلية التي يتصدى لها هؤلاء المخرجون، واختفت معها الكثير من العناصر الأساسية للعرض المسرحي التي من أهمها الترفيه النفسي والفكري.

عبر عن ظاهرة الاعتماد على الإعداد الناقد محمود اسماعيل بدر حين سماها "الظاهرة اللامسرحية."(١٠) وكتب حيدر هلسه، في سياق تقييمه لمسرحية المحجر، للكاتب الأردني محمود الزيودي: "كانت المسرحية تجسيدا لفكرة واقعية أعطيت إطارا غير واقعي ولا يمت إلى شعب هذا البلد بصلة."(١١) وكتب الناقد مصطفى صالح (١٩٨٧) حول مسرحية السعادة الزوجية، للكاتب المصري عبد المنعم سليم "... طبيعة النص ... لا يقبلها جمهورنا لبعدها عن همومنا وواقعنا."(١٢)

وهنا لابد من التطرق إلى موجز لتاريخ ومفهوم المدارس الأوروبية غير الواقعية التي اعتمدها مخرجو المسرح الأردني في فترة هذه الدراسة. كتب جيري كرافورد في كتابه التمثيل شخصيا وحسب النسق، انه بعد حلول "سنة ١٩٠٠، وصلت الحركة الطبيعية قمتها وأعطت الطريق لأنساق وأشكال غير واقعية."(١٣) والمدرسة الطبيعية في

المسرح، والتي تزعمها إميل زولا، تمثلت بجعل المسرح يعكس الحياة كما هي مصورة بتفاصيلها كافة وبمباشرة مطلقة يتم من خلالها تصنيف الحقائق الإنسانية، كما يفعل العلماء.[١٤] ومع أن المدرسة الواقعية كانت أقل تطرفا من الطبيعية في محاكاتها لحياة الإنسان، إلا أن المدارس غير الواقعية جاءت كردة فعل وتمرد على الطبيعية والواقعية. إضافة إلى تأثرها بأدب فرويد النفسيّ في دراسة الأحلام وتأثيرها على تصرفات الفرد، كما أكد كرافورد.[١٥] بدأ ذلك التمرد قويا ومؤثرا في أوروبا بقيادة مجموعة من الدراميين والنقاد الشباب. وكان هنالك دافعان رئيسيان لذلك التمرد: البحث عن أشكال فنية جديدة، وعن دافع سياسي.

بدأ البحث عن أشكال فنية جديدة في فرنسا بظهور الحركة الرمزية في نهاية القرن التاسع عشر، باعتماد الرموز في العمل الفني للسمو بما دعي "واقعي" في الحياة اليومية إلى مستويات أعلى من أجل تحويل واقعية الحياة بدلا من محاكاتها أو تقليدها. كان جوهر تلك الحركة هو هجرة مظاهر الحياة، التي نادت بها الطبيعية، من أجل التركيز على روح الحياة. فتدعو الرمزية إلى مسرح شعري يبتعد قدر الإمكان عن النثرية.[١٦] وبناء على كرافورد فإن المبدأ الأساسي للرمزية "يركز على الحكم الذاتي للفن، مقاسا بكليته بمعايير جمالية."[١٧] وقد تزعم البلجيكي موريس ميترلنك هذه الحركة، وشاركه تمرده ذاك كل من الألماني جيرهارت هوبتمان والنرويجي هنريك إبسن.[١٨] وإهتم هؤلاء الدراميون بالقيم البحتة غير المادية للفن، وحاربوا مبدأ اعتبار العلم القوة المسيرة لحياة الإنسان.

أما الدافع السياسي للتمرد على المدارس الطبيعية والواقعية فقد أفرز التعبيرية الألمانية. وكان هذا النسق الفني قد أخذ إطارا فلسفيا يحارب الصناعات الثقيلة وآليات اللاانساني[١٩] التي كانت الشغل الشاغل للحكومة الألمانية وهي تستعد للحرب. فقد جاء

ظهور هذه الحركة المسرحية قبل سنوات قليلة من اندلاع الحرب العالمية الأولى، فمثلت صرخة احتجاج مدوية ضد الممارسات اللاإنسانية بحق الإنسان.

وقد تطورت التعبيرية الألمانية في نهاية عشرينات القرن العشرين فاخذت طابعا بحتيا ميتافيزيقيا تمثل بمثولها "للتجسيد الرمزي لحالات العقل والروح على خشبة المسرح."٠٢ وهذا التحول جعلها تتساوى مع مدارس اخرى اعتمدت مبدأ الاهتمام بالشكل والصورة، ومحاولة إبهار الجمهور المسرحي. وبناء على ما اورده جلين وكهام في كتابه تاريخ المسرح، ففي حلول عام ١٩١٨، أصبحت فلسفة المدرسة التعبيرية الألمانية تعرف "بالبنّائية (لاحقا بالشكلية) وسجلت عناصر تقارب مع الحركة المسرحية المستقبلية الإيطالية."[٢١]

ومع أن التسميات اختلفت لكن تتساوى مدارس البنّائية والشكلية والمستقبلية في الجوهر والطبيعة. وكان أساس تمية "البنّائين" في روسيا لوصف "النحاتين البحتيين التكعيبيين والمهندسين المعماريين الذين وافق زعماء الثورة البلشفية على أعمالهم على أنها تقشّفية جدّية لا تدعو للّهو، وتلغي جميع التنازلات لأي ترف أو غلوّ في ديكوراتها."[٢٢] ولدى تطبيق هذا المفهوم على المسرح، جعل المخرج البنّاء (ولاحقا الشكلي) مسرحه وسيلة للممثلين فقط، وجعل من ممثليه ماكينات أو أفرادا آليين لا يعيشون أدوارهم ولا يشغّلون عواطفهم من أجل خدمة الشخوص الذين يمثلونها. فاشترط مثلا مائيرهولد، المخرج الروسي الذي دعي بالشكلي أيضا، على الممثلين أن يدرسوا مبادىء البايوميكانيكا، من اجل ان يتاهلوا لتصبح أجسادهم فعّالة مرنة، يعتمد عليها في مسائل قدرتها على الاستجابة لأي تحول مطلوب في عواطف الشخصية المراد تمثيلها، فيحدث التحول بطريقة ميكانيكية آلية، وذلك لاستخلاص استجابات عاطفية من الجمهور، محددة مسبقا في ذهن المخرج.[٢٣] واصبح أسلوب التمثيل هنا منسّقا

لدرجة عالية *highly stylized* وترجم أيضا بالمبالغة المحسوبة، وهذا أسلوب التمثيل البرختي وأسلوب مسرح "نو" الياباني، حيث كل إيماءة وكل خطوة محسوبة بدقة على الممثل وتعني شيئا معينا بالنسبة لفريق العمل والجمهور، يفرضها عليه المخرج بغض النظر عن احاسيسه الداخلية. اما شخوص هذه المدارس المسرحية فليس لها في العادة اكثر من بعد واحد، فلا يعرف المشاهد الكثير عن الشخوص، لا يعرف من أين أتت، لا يعرف إلى أين هي ذاهبة، وفي معظم الأحيان لا تبدو هذه الشخوص أنها تحمل أي أهداف محددة.

وباستعمال الممثلين كآلات لا تستوعب ما تفعل على خشبة المسرح، اخرج مائير هولد العديد من المسرحيات التي لا يفهم لها مبدأ واضح ولا تطرح فكرا سياسيا أو اجتماعيا محددا. فحفظ لنفسه بذلك طريقا للهرب من الالتزام باي فكر سياسي أو اجتماعي محدد. وهذا ما أعطاه حرية اكبر من زعماء الثورة ليعمل في المسرح ما يشاء. وهذا أيضا مبدأ المدرسة الشكلية الروسية، التي بدأت مدرسة نقدية في التجريب لدى علماء اللسانيات في أوروبا، وعلى رأسهم الروسي فيكتور شكلوفسكي والتشيكي رومان جيكوبسون، حيث أرادوا إعطاء اهمية اكبر للشكل الفني والتعبير اللغوي وليس المحتوى.٤٢ أما في عالم المسرح فالمدرسة الشكلية التي مارسها بشكل رئيسي المخرج الروسي مائير هولد، بعد مرور وقت قصير على الثورة البلشفية، تعتمد على تغيير وتصغير النص المسرحي من اجل أن يكتنفه الغموض ويصبح لدى عرضه على خشبة المسرح خاليا من أي فكر اجتماعي محدد،٥٢ واصبح المخرج يعاقب الكاتب على كتابة نصه والممثل على موهبته ويحرمهما من الاستمتاع والاحتفال بمواهبهما.

يربط جلين وكهام الحركة المستقبلية الإيطالية والآناركيين (الذين يفضلون الفوضى السياسية بإلغاء السلطة) وحركة "دادا" ببعضهم البعض من زاوية أنها

حركات فنية متمردة، صمّمت خصيصا لمفاجاة وإبهار الجمهور المسرحي وصدمه،[٢٦] بدلا من محاولة إرضاء هذا الجمهور وإشباع رغباته، وكسب عطفه ومحبته وتعاونه. ففضلت المستقبلية الإيطالية، مثل شريكاتها البنّائية والشكلية، أن تكون مسرحياتها ملكا لمخرجيها، وأن تصدم الجمهور المسرحي عاطفيا وتبهره، من أجل لفت الانتباه، بدعوى انها حركة ثورية متمردة. اما اشهر المخرجين الكتاب في هذه المدرسة فكان فرانك ويديكايند الإيطالي والفريد جاري الفرنسي، "ويجب هنا ان نشمل مسرحيات سترايندبيرغ السوريالية."[٢٧] فجاءت أعمالهم للإطاحة بالمنطق لتستبدل به غرائز واهواء غير مقبولة للعقل الطبيعي الذي يقبل منطقه أشياء الحياة.

يبدو أن السوريالية، كمدرسة مسرحية غير واقعية، تاثرت بدراسة الأحلام اكثر من غيرها من المدارس آنفة الذكر. فقد اخذت على عاتقها أن تحرر عقل الإنسان من اي سيطرة للمنطق والعقلانية في التفكير بتجسيد العقل الباطن وكشفه على خشبة المسرح، ليرى الناظرون كيفية عملية التفكير في عقل الإنسان. فكان من تطبيق هذه المدرسة على خشبة المسرح بقيادة زعيم السوريالية، الكاتب والمخرج الفرنسي جويلاوم أبولينير، والكاتب والمخرج والمنظّر الإيطالي جين كاكتو، أن جاءت "ديكوراتها غير واضحة، وشخوصها غير مكتملة وتبدو كشذرات نفسية تخلو من الدوافع، وتقوم بأداء أفعالها باقل ما يمكن من الوعي، وكانها لا تعي ما تفعله، وغدت أحداثها غير متصلة، في عالم تكتنفه الفوضى."[٢٨] واستنادا إلى مؤرخة المسرح مارغو بيرتهولد، فإن عروض جين كاكتو المسرحية، مثل بوريد سنة ١٩١٧، وافلامه السينمائية التي احتوت جرعات كبيرة من الموسيقى، لم تحظ بالنجاح، خصوصا لدى جمهور الشباب، مما اغضبه كثيرا.[٢٩]

بدأت حركة مسرح اللامعقول في خمسينات القرن السالف بزعامة الإيرلندي

صموئيل بيكيت، والروماني يوجين أيونسكو (الذي كتب بالفرنسية)، والفرنسيين جين جينيه والبير كامو، والإنجليزي هارولد بنتر.[٣٠] مسرحية اللامعقول دائرية، ليس لها بداية أو نهاية، ولا تعتمد تركيبة حبكتها منطقا مميزا، وليس لها غرض واضح.[٣١] شخوصها أرواح ضائعة ليس لها هوية واضحة المعالم، وتعيش في عالم فوضوي تتخبط به الحقائق.

أما حركة برخت التغريبية، أو المسرح الملحمي التعليمي، فبدأت في ألمانيا بتأثيرات من المدرسة المسرحية التعبيرية الألمانية والمبادئ السياسية الماركسية، بزعامة الألماني برتولت برخت ومساعدة الألماني وإيرون بسكاتور. أراد برخت سيطرة المخرج على المسرحية، وأن يطرح موقفا سياسيا، فمع أنه كان "شيوعيا من الناحية المبدئية ومعظم مسرحياته احتجاجات على المجتمع الرأسمالي،"[٣٢] إلا أن نظرياته ساعدت على نشأة ما يمكن تسميته بدكتاتورية المخرج في المسرح. كان أمله أن "يكتشف براغماتيات المادية التعليمية، وأن يوحّد مسألة التفكير لدى الجمهور المسرحي."[٣٣] فأراد أن يشغّل عملية التفكير فقط لدى الجمهور، من أجل أن يحرك عزائمهم نحو القيام بأعمال ثورية سياسية اجتماعية. فنبه ممثليه، بل واشترط عليهم ألا يشغّلوا عواطفهم لخدمة الشخصية التي يمثلونها، من أجل أن "يثيروا ويجتذبوا عواطف المشاهدين بشكل أقل من إثارتهم لمنطقهم وعقلانيتهم."[٣٤]

وتأتي أهمية هذه الدراسة، التي تأخذ مسارا تاريخيا نقديا، في قدرتها على تحليل كيفية نقل وتبني المدارس الأوروبية غير الواقعية بواسطة مخرجي المسرح الأردني، وتوضيح الإيجابيات والسلبيات لذلك النقل والتبني، من أجل الاستفادة مما هو إيجابي ومن ثم التركيز عليه وتطويره لما فيه خير المسرح الأردني. والاستفادة كذلك من سلبيات نقل وتبني تلك المدارس الأوروبية، وذلك بفهم هذه السلبيات من خلال تحليلها

واستيعاب أسباب عدم ملائمتها للمسرح الأردني وابتعادها عن وجدان الجمهور الأردني، وفهم مدى ضررها على وعي الفنان، ومن ثم الإنسان الأردني. ذلك لأن طبيعة وطرائق عمل الفنان في أية أمة ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرة هذه الأمة الكونية وشخصيتها التاريخية وهويتها المتميزة وإرادتها المستقلة. فلعلّ هذا النوع من التحليل يؤدي خدمة ما للمخرج المسرحي الأردني، فيشترك بدور فعّال في تقدم مجتمعه وأمته، من خلال مختبره، الذي هو مسرح المجتمع والأمة، والذي يفترض به أن يعكس الشؤون الإنسانية والوعي العام للمجتمع والأمة. ومع توفر الكثير من الكتابات النقدية والدراسات المختلفة حول موضوع هذه الدراسة التي نشرت في صحف ومجلات محلية وعربية، إلا أن معظم تلك الدراسات أخذت طابع المقال ولم تكتب حسب الطرق الأكاديمية المتعارف عليها في الأوساط العلمية، ولم يخل الكثير منها من الانحياز.

بالإضافة إلى ملاحظات شخصية في تحليل الأعمال الخاصة في هذا البحث، لأنني شاهدت جميع هذه العروض المسرحية، وعملت في اثنين منها، ستعتمد الدراسة أيضا على ردود أفعال النقاد المنشورة في الصحف الأردنية، وعلى بعض الكتب المنشورة التي تشتمل على آراء مؤلفيها من المطلعين في مجالات النقد والأدب، وعلى لقاءات شخصية مع نقاد وأدباء وفنانين من الذين واكبوا حركة المسرح الأردني عن كثب، طيلة الفترة الزمنية لهذه الدراسة.

وستقتصر هذه الدراسة على تأثيرات مدارس القرن العشرين المسرحية الأوروبية غير الواقعية على مسار المسرح الأردني التابع لوزارة الثقافة الأردنية، ١٩٧٦ - ٢٠٠٢. وستشمل تفحص العروض المسرحية المذكورة فقط، وذلك من النواحي الفنية والأدائية والرؤى الإخراجية في التصرف في النصوص المسرحية على الصعيد الفكري والفلسفي، وكيفية استقبال المتلقين لعروض هذه المسرحيات. ولن تتطرق الدراسة لمواضيع أخرى

خارجة عن نطاقها، أو نطاق المسرح.

(١) مسرحة نصوص أوروبية كانت بمثابة تطبيقات عملية على النظريات غير الواقعية

حمل موسم المسرح الأردني لعام ١٩٧٧ للجمهور الأردني طرائق جديدة مميزة في فن المسرح. فقد قدم في ذلك الموسم "الوانا مختلفة من المسرحيات ساعدت في الوصول إلى المعادلة الصعبة في المسرح وهي مناقشة مختلف الأذواق الإنسانية بتحقيق البعدين الوظيفي والترفيهي.[٣٥] افتتح الموسم في تشرين أول بمسرحية العبثي صموئيل بيكيت، لعبة النهاية، من إخراج باسم دلقموني. ثم عرضت السعادة الزوجية لعبد المنعم سليم من إخراج طارق برقاوي الذي لجا إلى خليط مميز من الواقعية والرمزية، والمازق لبشير هواري، ومسرحية الغرباء لايشربون القهوة لمحمود ذياب ومن إخراج حاتم السيد.

تمثلت "الطرائق الجديدة" و"الألوان المختلفة" في موسم ١٩٧٧ بمدارس العبث (اللامعقول) والرمزية والتغريب البرختي. فمسرحية لعبة النهاية، التي كتبها صموئيل بيكيت سنة ١٩٥٧، مازالت تعد من أهم المسرحيات التي ابرزت وعبرت عن فلسفة وفكر مسرح العبث. تدور أحداث المسرحية في بيت "هام" الذي يضع والديه الكسيحين في برميلي قمامة، وهو مشلول واعمى ولديه خادم متمرد (كلوف) يهدد دائما بأنه سيتركه ولا يفعل. الوالدان يفتحان غطائي برميلي القمامة من حين لآخر لقول بعض الكلمات أو لطلب الطعام، والطعام نفد في البيت حيث حلت كارثة والموت قريب. فيطرح بيكيت نظرة تشاؤمية للحياة ولا يؤمن باي تفسير واضح لوجود الإنسان على هذه الأرض، بل كل شيء في حياة الناس عبثي.

ومع أن الفلسفة التي تطرحها لعبة النهاية لم تلق تجاوبا في الأوساط الثقافية الأردنية، إلا أن العرض المسرحي كان موفقا في اجتذاب الجمهور وإعجابه، كتجربة مسرحية فريدة من نوعها، وقد فتحت آفاقا جديدة أمام المنشغلين بالمسرح ومازال بعض هذا التأثير يظهر في بعض الأعمال حتى هذا اليوم. تعامل المخرج باسم دلقموني مع النص بأمانة وموضوعية. وكان لاعتماده على المنطق في تعامله مع جماليات العرض المسرحي اثر كبير في نجاح العرض. فلم يستعمل أي نوع من الموسيقى أو المؤثرات الصوتية مثلا، وجاء ذلك مناسبا لأجواء العرض. ولدى سؤاله عن ذلك قال: "لمَ الموسيقى والمؤثرات الصوتية إذا لم يكن لها حاجة لتؤدي وظيفة محددة في المسرحية؟"(٣٦)

اعتبر عبد اللطيف شما عرض لعبة النهاية موفقا جدا، مع أن فهمه لفلسفة النص لم يكن دقيقا حين أكد أن "شخصيات لعبة النهاية تنتظر رحيل كلوف الخادم."(٣٧) حيث كتب أيضا في المقال ذاته أن "المسرحية تعني نهاية الحياة ... نهاية اللعبة القديمة ... الخاسرة منذ القدم." فرحيل كلوف لا يعني نهاية شيء ما سوى خدمته لهام، وليس هناك علاقة بين رحيله ونهاية الحياة. وقف الناقد محمود إسماعيل بدر أيضا إلى جانب هذه التجربة وأعطى نصيحة للدراميين لفهم بيكيت بتأكيده أن "الفن المسرحي عند بيكيت ينبعث عن (مسرح العرائس) أو (فن الأراجوز) بمعنى أن الممثلين ليسوا أبطالا موضوعين في إطار اجتماعي أو مواقف تاريخية بل دمى تحركها خيوط رفيعة نسيجها مناهضة للذات."(٣٨)

أما مسرحية قناع السعادة للكاتب الفرنسي جورج كليمنصو فقد أخرجها شعبان حميد وعرضت في بداية عام ١٩٧٨ .(٣٩) وتطرح المسرحية حكاية رجل مفكر وشاعر ثري تشاء أقداره أن تفقده بصره. ثم يقع في حب فتاة فيتزوجها معتقدا أنها ستجلب

له السعادة. يضع كامل ثقته بها وبابنه، ويحب أصدقاءه ويثق بهم كثيرا ويعاملهم بإنسانية وروحانية فائقة. ثم تتحول أقداره فيتبع وصفة طبية شعبية تعيد له بصره. ويفاجأ بزيف الناس وخداعهم، ويكتشف تدني مستوى الأخلاقيات التي كان يتخيلها بمثل عليا، فيصاب بصدمة قوية تهزه بعنف ويفقد ثقته بمن حوله وبالناس وبالحياة.

عرف عن المخرج شعبان حميد شغفه بالأعمال الدرامية التي تأخذ القضايا الروحانية الصوفية فكرة محورية لها. وكان ذلك واضحا في إخراجه لمسرحيات الليلة يطلع القمر عام ١٩٧٥ لأمين شنار ومسرحية محمود ذياب، الرجال لهم رؤوس عام ١٩٧٧ ومسرحية راشومون عام ١٩٧٦ للكاتب الأمريكي مايكل كانن وزوجته والتي أخذاها عن قصة الياباني ريو نوسوكي اكوتاجا.[٤٠] ولم يبتعد عبان حميد عن هذا الاتجاه والتزم بهذه الرؤية الوجدانية الخالصة في إخراجه لمسرحية جورج كلمنصو، قناع السعادة. وقد كتب محمود إسماعيل بدر حول الكاتب والمخرج أن "كليهما يسعى إلى مثالية عن طريق الفعل، والموقف المسرحي،" حيث أن جورج كلمنصو أيضا هو الآخر "ملتزم بقضايا فلسفية سلوكية محددة."[٤١]

انتهج شعبان حميد في إخراج قناع السعادة، إضافة إلى الواقعية، أسلوب المدرستين الرمزية والتعبيرية في الإخراج، فاستعمل بعض عناصرهما، وقد شجعه على ذلك نص المسرحية الذي يحتمل هذا. فقد لجأ في العديد من المواقف في العرض المسرحي إلى استعمال السكتات والصمت وأحيانا الصراخ، فنجح المخرج في خلط الواقعية بالخيال. كانت حركة الممثلين بدوافع الوظائف الاجتماعية التي يودون تأديتها، وكانت حركات أطرافهم مدروسة مختارة بعناية ودقة حملت هيبة في أحيان ولاإنسانية في أحيان أخرى حسب المعنى المنشود في لحظته، مما عبر عن الأفكار الفلسفية في النص.

كما أن الملابس عبرت تعبيرا دقيقا عن المكنونات النفسية الداخلية لكل شخصية، فجاءت ملابس الرجل الطيب البيضاء تحمل براءة وشفافية، وعكست ملابس الزوجة الحمراء خيانتها وشبقها الجنسي، فيما ارتدى عشيقها قميصا خمريا وبنطالا محزّقا يكاد يكون فاضحا.

لم يحظ عرض هذه المسرحية باهتمام النقاد. وأكد بشير هواري أن قناع السعادة "أقوى عرض مسرحي قدم في هذا الموسم على الصعيد الفني وليس على صعيد النص فهي مسرحية ذهنية صعبة على عقول الجمهور."(٤٢) وهذا نقد غير مرض لعرض جيد لمسرحية تحمل قيما تتلمذت عليها أجيال العرب. فالفكر الذي يدعو إلى النزاهة والصدق والأمانة والعفة عما في أيدي الناس وعدم إيذائهم، وهو الفكر الذي تطرحه المسرحية في نصها وفي عرضها، ليس معقدا وليس صعبا على عقول جمهورنا الأردني.

وتحمل قناع السعادة في طياتها أيضا تطبيقا عمليا لفكرة الشاعر والدرامي الأمريكي، توماس ستيرن إليوت، "المعادل الموضوعي" وحسب ما كتب محمود إسماعيل بدر، "إذا اختلف الواقع عن المعادلة المنطقية السليمة، فالمعادلة هي الصحيحة لا الواقع."(٤٣) فبعد أن استعاد بطل المسرحية بصره ورأى ما رأى من بشاعة ما يحدث حوله من غش وزيف وخداع، تمنى أن يعود إلى عماه ليصبح باستطاعته أن ينشد بعض السعادة في هذه الحياة.

(٢) مسرحة نصوص عربية ومحلية على غرار الأعمال الأوروبية غير الواقعية

التزم المخرج حاتم السيد بالنص المكتوب فجاء هو نفسه نص العرض في إخراجه لمسرحية محمود ذياب، الغرباء لا يشربون القهوة. وهي حكاية رجل يعيش آمنا في

بيته مع زوجته، ويأتي ستة رجال غرباء صامتون يعاينون البيت ويرفضون شرب قهوته، وهذا يعني سوء نيتهم وعدم إعطائه الأمان، ويعودون بأسلحة متطورة ويسلبون منه البيت ويمزقون له أوراق الطابو، فلا يقدر على فعل شيء، ولا يقدر جاره السكير أن يساعده، فيصمم أن يذهب ويرسل برقية إلى ولده يعلمه فيها أن يحضر ويحضر معه بندقية. ومع أن المخرج حاول أن ينتهج أسلوب التغريب، أو المسرح الملحمي لبريخت، فدهن أوجه الغرباء بخطوط سوداء وحمّلهم مصابيح يدوية يضيئون بها أوجههم الغامضة، لكن التمثيل جاء واقعيا وأقرب إلى الطبيعية، وكان هذا عاملا مهما في إنجاح المسرحية حيث استوعبها الجمهور على أنها تعكس الاحتلال الإسرائيلي لأراضي فلسطين. والتمثيل الذي يقع بين الواقعية والطبيعية، اقرب إلى وجدان الإنسان الأردني من أي أسلوب آخر، خصوصا في موضوع شديد الحساسية كهذا.

كانت ردود أفعال المشاهدين إيجابية جدا لقرب قضية وفلسفة مسرحية الغرباء لا يشربون القهوة من واقعهم وتجربتهم ومن وجدانهم. كذلك كانت ردود أفعال أغلبية النقاد. فكتب مصطفى صالح: "شخصية الرجل تمثل المجتمع العربي في مرحلة زمنية معينة، كانت تتسم بسمات القدرية والتفكير الغيبي والاتكالية والعجز ... ثم الالتزام الساذج في إبراز الوثائق وإلقاء الخطب في مواجهة الأعداء."(٤٤) وكتب الأديب الناقد خليل السواحري: "كنت أوثر لو أن الزميل حاتم السيد قدم دلالات تشير إلى الفترة الزمنية السحيقة التي أتى فيها الاستعمار على صدورنا في مختلف أنحاء الوطن العربي وما كنا نعانيه في تلك الفترة من أوضاع متخلفة كتلك التي قدمت المسرحية نموذجا صارخا لها."(٤٥) فقد اتهم السواحري المخرج حاتم السيد بأنه تضمن إساءة لنضال الشعب الفلسطيني بالطريقة التي أخرجها للمسرحية، فهي تبين هذا الشعب على انه مستسلم قدري وشبه متخاذل. ويبدو أن السواحري غفل عن مسالة أن الرجل

الطيب في المسرحية شخص عادي جدا وفقير الحال ولا يملك السلاح، فهو لا حول ولا قوة له.

أما محمود إسماعيل بدر فقد كتب: "اعتمد المخرج حاتم السيد المعنى الأيديولوجي واستخراجه من النص ليؤكد التزامه الوطني بإسقاطه على القضية الفلسطينية ... وبالدافع الوجداني تناول شخصية الرجل ... وطوع النص المسرحي والفكرة والإيقاع ولواحق العمل الأخرى لصالح الإسقاط والشخصية المسرحية."٦٤، ثم رد على النقاد الذين اتهموا شخصية الرجل الطيب بالخنوع:

"وكلمة للنقاد، هل هناك افضل من هذا المونولوج المسرحي للتعبير عن القوة في شخصية الرجل ...؟ (غدا يا امينة ... ومع أول شعاع للشمس سابعث ببرقية إلى الولد... برقية أقول له فيها ... عد إلينا ... تعال عش معنا ... انا وأمك بحاجة إليك. فالغرباء كثيرون. يكفي أن أقول أحضر فورا ولا تنس وانت قادم أن تحمل معك بندقية- وسيفهم حتما- ما أعنيه ببندقية".(٤٧)

المسرحية الثانية التي تمثل اتجاه مسرحة نصوص عربية ومحلية على غرار النصوص الأوروبية التي مثلت مدارس القرن العشرين غير الواقعية كانت مسرحية الشحادين، للكاتب والمخرج والممثل الأردني جميل عواد. كان أول عرض لهذه المسرحية في أوائل سنة ١٩٧٨، ثم أعيد عرضها في احتفالات يوم المسرح العالمي ويوم الأرض، ١٩٨٣/١/٣٠ (٤٨) وكانت من افضل المسرحيات الأردنية، وافضل مثال تطبيقي على مسرح التغريب الملحمي البرختي.

ومع وجود "فرق واسع بين نظريات بريخت وتطبيقها،"(٤٩) إلا ان عرض مسرحية الشحادين اشتمل على معظم عناصر هذه المدرسة بوضوح وبدت فيه طبيعية غير مقحمة، إضافة إلى عناصر من مدارس أخرى تهم وتثير المشاهد العربي عقليا وعاطفيا،

وساشرح هذه المسالة بعد قليل. وهذا يدل على أن طبيعة النص المكتوب انتمى بطبيعية وببساطة إى ماطمح إليه ونظّر له برخت، مما يؤدي إلى نتيجة هامة تخدم فن التمثيل قدمتها هذه المسرحية، وهي أن الكاتب حين يكتب مسرحيته بأسلوب التغريب أو بغيره، ليس عليه إلا أن يسلمها للمخرج وللممثلين وأن يثق بمواهبهم، دون إملاء أي أسلوب في التمثيل عليهم، كما فعل عدد من منظّري القرن العشرين في هذا الحقل، ذلك لأن هناك أسلوبا واحدا في التمثيل، وهو أن يكون الممثل مقنعا ومصدّقا من الجمهور.

قدمت الشحادين امراة ومجموعة من الشباب يتسولون ويعيشون ليومهم. يمضي معظم وقت المسرحية وهم ينتظرون فتى يافعا (فتاة في عروض ١٩٨٣) ليحضر لهم لقمة ذلك اليوم. اثناء انتظارهم يناقشون حياتهم ويحاكون جمهور المشاهدين أوجاعهم وهمومهم. فيمثلون للجمهور بعض الحكايا كحكاية طارق بن زياد مشككين بمسالة حرقه للسفن على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وحكاية الفنان وإهمال الناس له، والفتاة العاملة التي يريدها مديرها وباقي الموظفين الذكور. فالمشاهد أمام عرض تهكمي لأمراض المجتمع العربي. ثم ياتي الطفل حاملا الكعك، كعك ماري انطوانيت. فتهجم المجموعة الجائعة على الطعام بوحشية وهمجية، وكانهم ذئاب جائعة، ويذهب الطفل ضحية هذا الجوع، ويقتل.

يعتبر نص الشحادين احد افضل النصوص المسرحية التي كتبت عن الواقع العربي. فاستعمل الكاتب المخرج، جميل عواد، عدة عناصر ادبية لإغناء المسرحية، إضافة إلى عناصر التغريب الملحمي. وبالدرجة الأولى جاء العرض ترفيهيا جميلا فيما حمله من فكاهة خفيفة تهكمية، وتشكيلات منطقية تلاءمت مع معانيها، وبسبب الزخم الفكري والفلسفة الإنسانية التي دخلت عقول ووجدان المشاهدين بسلاسة ويسر. كما إنه

استعمل الرمزية من خلال اسلوب التنويه الأدبي بنجاح، وذلك باستعماله الكعك ليكون الأكل الذي يحضره الطفل لهذه المجموعة من الفقراء المتسولين. وهذا يمثل استحضار قصة الأميرة ماري انطوانيت عندما سألت أبيها عن سبب تظاهر وصياح الناس تحت شرفة القصر وقال لها: "ليس لديهم خبز" فقالت: "لم لا ياكلون الكعك." وهذا الأسلوب، اي الاستحضار من التاريخ، يغني محتوى العمل الفني ويقويه.

كما نجح جميل عواد في إيصال فكرة مهمة في مسرحية الشحادين وهي أن أطفال العرب يكفّرون عن ذنوب العرب بدمائهم. وهذا تمثل بموت الطفل في المسرحية، بل ذهب المخرج إلى ابعد من هذا، فجاءت ميتة الطفل مؤلمة، نتيجة انقضاض افراد مجموعة الشحاذين على الأكل الذي حمله الطفل لهم. ومن ناحية أخرى، فمن الممكن أن يترجم مقتل الطفل على انه رمز لمقتل عنصر الخير، أو الإنسانية. وبهذا المقتل استعمل جميل عواد عنصر الصدمة الماخود من المدارس الشكلية البنّائية والملحمية. وذهب محمود إسماعيل بدر إلى انه "استخدم التاليف شكل المسرح التجريبي والعناصر الفكرية كالصدمة والعنف الذهني لعرض نموذج مسرحي معاصر."[٥٠]

وهناك عناصر أخرى من المسرح الملحمي التغريبي استخدمت في الشحادين. فلا يعرف الجمهور أكثر من بعد واحد لشخصيات العرض المسرحي، فكل ما يعرفه عنهم أنهم شحاذون، ولا شيء عن حياتهم غير ذلك، وهذه خاصية ليس فقط للمسرح الملحمي، بل ولباقي مدارس غير المعقول. كذلك عنصر الرجوع إلى التاريخ وربطه بأمراض المجتمع المعاصر. فمواضيع مسرحيات برخت مبنية على التاريخ. فهو "يركز على الماضي ليبرز الحاضر."[٥١] وقد شاهد جمهور الشحادين شريحة من الماضي واخرى من الحاضر ذهنيا ودون أن يكون للمقدمين، أي الممثلين، ارتباط عاطفي بالشخوص التي تقدم الحدث، وذلك في مشهد استحضار طارق بن زياد. وكما ذهب إليه كرافورد،

فالهدف من هذه العملية أصلا لدى برخت هي من أجل "أن يطرح الحاضر بدائل للمشاهد تمكنه من أن يفعل شيئا إيجابيا."[٥٢]

ومن أجل أن يساعد ممثليه على عدم الانخراط عاطفيا في أدوارهم، كعنصر هام من عناصر تمثيل التغريب، استخدم جميل عواد أسلوب المونتاج في مشاهده، لتبدو منفصلة غير مترابطة، يأخذ كل منها حكاية مختلفة، وهي في نهايتها تكمّل بعضها. ولدى انتهاء كل مشهد، جعل الممثلين يغنون "هيييييي يه" ثم يصفقون حسب إيقاع واحد، وبتشكيل جمالي يقفزون متبعثرين في أرجاء المسرح، ثم يبدأون حكايتهم التالية. كذلك جاء تمثيلهم وكأنهم يسخرون من الشخوص التي يقدمونها للجمهور. أكتب "يقدمونها" لأن هذا النوع من التمثيل، أو التغريب، يحسب على الممثل فيه بدقة، من قبل المخرج، إلقاء الحوارات وحركته واستعماله لجسده، فيصبح وكأنه آلة بيد المخرج. وهذا يتفق أيضا مع مبدأ برخت في سيطرة المخرج على عناصر العرض المسرحي كافة، وكأن العرض المسرحي انقلاب سياسي يتزعمه مخرج دكتاتور. ومع أن الممثلين قدموا أدوارهم بإتقان فائق، إلا أنه لم تبرز موهبة محددة لأحد الممثلين في مسرحية الشحادين.

(٣) اتّجاه الإعداد والتجريب: إعداد مسرحيات عالمية وعربية ومحلية ومسرحتها حسب واحدة أو أكثر من مدارس القرن العشرين غير الواقعية

ارتكز اتجاه الإعداد الخاص بهذه الدراسة على إخفاء المعالم الأصلية لنص الكاتب، واقترن باستخدام مخرجيه أساليب متعددة مختلطة ببعضها البعض تكتنفها الغرابة، أخذ معظمها عناصر عديدة من المدارس الأوروبية غير الواقعية المختلفة، تحت اسم "التجريب." واتصف هذا الاتجاه كذلك بما يسمى "دكتاتورية المخرج،" في المجالات

كافة، حتى أجور الممثلين. فيحرم باقي الفنانين من المشاركة برأيهم في العمل المسرحي. وهذا يتناقض مع مبدأ أن العمل الدرامي عمل جماعي.

التجربة الأولى التي تتفحصها هذه الدراسة في اتجاه الإعداد والتجريب هي عرض ملهاة عازف الكمان. وهي إعداد عن مسرحية البير كامو، سوء التفاهم، وأخرجها معدها، حكيم حرب. قصة المسرحية الأصلية لأم وابنتها تقتلان نزلاء فندقهما بعد سرقتهم، وتدفنانهم في ساحة الفندق، وبعد أن يحضر الابن من غربته، لا تدرك أمه وأخته حقيقة هويته إلا بعد أن تقتلاه. عرضت هذه "الملهاة" من ضمن مهرجان المسرح الأردني السادس، ١٩٨٨ . والمسألة التي تبقى أحجية، هي أن ذلك العرض حصل على افضل عرض متكامل، دون الحصول على جائزة افضل إخراج، أو افضل نص مسرحي، أو أفضل ممثل. فقد حصل العرض فقط على افضل تاليف موسيقي، وناصفت الممثلة ساندرا ماضي جائزة افـضل ممثلة مع ممثلة من مسرحية اخرى. وتعتبر مسألة غريبة أن يحظـى أي عـرض على جائزة أفضل عرض، دون أن يحظى بجائزة أفض إخراج.

النسبة العظمى من الجمهور لم تفهم ماذا أراد له المعد المخرج. وجاء في يومية المهرجان، أن الناقد المسرحي جمال عياد أشار في الأمسية النقدية التي ناقشت عرض ملهاة عازف الكمان إلى أن المخرج حكيم حرب لم يوضّح فهما معينا للعرض وانه "انتهج الأسلوب التجريبي ولجأ إلى النص الجديد ... من الحوارات الذهنية الفلسفية الطويلة."[٥٣] وفي الأمسية ذاتها علقت المخرجة العراقية عواطف نعيم على عدم وضوح فكرة العرض المسرحي. وفي لقاء معها نشر في جريدة الراي قالت: "العرض لم يحسن إيضاح الثيمة الأساسية للمسرحية."[٥٤] وصرح احمد العمري في مقابلة أجراها معه مندوب جريدة العرب اليوم أنه عمل كممثل مع حكيم حرب في المسرحية ووصل

عدم التفاهم بينهما بسبب صلابة وجهات نظر المخرج إلى طريق مسدود، فانسحب احمد العمري من العمل. وقد صرح: "لا يجوز التلاعب بنص كامو."(٥٥) أما رهام الفرا فكتبت في شيحان، "وقد لعبت الإضاءة والتشكيلات المسرحية والرقصات الأدائية دور البطولة الأساسي في العمل."(٥٦) وبدا غريبا أن تكتب الناقدة في العرب اليوم، أماني سليمان، "... سعى فيها حرب إلى الابتعاد عن رؤى كامل الوجودية ... ناشدا توصيل المعلومة عن طريق التلميح والاختزال،"(٥٧) ولكن دون اي تفسير. وابدى عدة نقاد آخرين استياءهم من العرض الغريب الذي راوه.

كل ما عرض لجمهور ملهاة عازف الكمان كان عبارة عن امراتين بلباس ابيض تتحدثان في الغالبية بلغة الجسد، وتحملان الشموع، وبينهم راقص يرقص باستمرار وهو يعزف على الكمان، وهم على خشبة مسرح ليس عليها سوى طاولة مستطيلة متحركة مغطاة بشاش ابيض وكرسي، ثم يدخل عليهم رجل، وبعد فترة وجيزة من الوقت تقتله الإمراتان عن طريق تعبير جسدي ايضا. فلم يتمكن الجمهور من معرفة ماهية الحدث ولا مكان حدوثه ولا زمانه. لكن احجية ذلك العرض حلت وغدا واضحا بعد مرور أربع سنوات عليه، وذلك عندما أدلى المخرج بشهادة له في إحدى ندوات مهرجان عمون للمسرح الأردني عام ٢٠٠٢، فكتب:

حيث ومن خلال الإعداد تم نقل أجواء المسرحية من فندق إلى دير قديم يصل إليه المتعبون، دير تسكنه ارواح الرجال الذين قامت الأم وابنتها بقتلهم للاستيلاء على أموالهم للسفر إلى بلاد البحر والشمس وعازف كمان يلهو بمصير شخصيات محطمة ويقودها نحو مصيرها المحتوم.(٥٨)

ولكن يبقى للمشاهدين على المخرج حق طبيعي بسيط، وهو ان يفهموا قصة العمل الدرامي الذي يعرض أمامهم، وليس من خلال لقاء المخرج وسؤاله عما يقصد بهذه

وتلك.

اشتمل عرض حكيم حرب على عدم تبنيه أية قضية، سواء سياسية أو اجتماعية أو فلسفية. كذلك لجأ إلى الغموض وخلق عنصر الصدمة والدهشة لدى المشاهدين. وعبر عن تلك الغرابة المجنونة والغموض والموسيقى الصاخبة، فريد ضمرة في العرب اليوم: "بحركة لا تنقصها الخفة الشيطانية وبإيحاءات آمرة ترافقها ضوضاء محببة اسمها الحركي موسيقى تنفلق الستارة عن مشهد موجز كالأمثلة الميسرة."[٥٩] واشتمل العرض أيضا على إلغاء الديكورات التقليدية، فخلا المسرح إلا من طاولة وكرسي، وغدت شخصيات المسرحية كالأشباح التي تحمل الشموع. كذلك سلبت الشخوص حتى من البعد الوجداني الذي تعطيه المدارس غير الواقعية لشخوصها. كل هذه العناصر، وكما ورد في مقدمة هذه الدراسة، تنتمي إلى مدارس البنّائية والشكلية والمستقبلية، التي بنيت على التعبيرية.

أما سيطرة المخرج حكيم حرب المطلقة على العرض المسرحي من خلال تحجيم دور التمثيل، وهو أهم دور إنساني في العملية الإبداعية، واستخدام جرعة موسيقية ضخمة، وإسناد بطولة العرض لوسائل الإخراج، كالمؤثرات الصوتية والإضاءة والطاولة المتحركة والكرسي، فهذه عناصر من المسرح التغريبي الملحمي. فكتبت نرمين النعمان في العرب اليوم أن ساندرا ماضي قد قامت بدور الابنة "وفقا لإرادة المخرج دون أن تعطي شيئا من ذاتيتها الخاصة."[٦٠] ورأى عبد الله رضوان أن لا حقّ لحكيم حرب أن يهدم ركائز المسرح الأساسية كما فعل في ملهاة عازف الكمان: "لقد صادر النص، وأبقاه مشوها في حدوده الدنيا، صادر الحوار، بمفهوم التواصل وتبادل الخبرة وأبقاه مجرد أصوات مبهمة."[٦١] كان أفضل لحرب أن يكتب نصه ويخرجه، بدلا من هذا النوع من الإعداد.

ملهاة عازف الكمان لم تكن الوحيدة التي اعتمدت على الشكل المرئي وأهملت المحتوى وظهرت خالية من الفكر والفلسفة، فقد عرضت في المهرجان نفسه مسرحيات اخرى في الاتجاه نفسه، مثل عرض مسرحية هزاع البراري، حلم أخير، من إعداد وإخراج عصمت فاروق، و بعد رحيل الشمس، من تاليف وإخراج محمد خير الرفاعي، ومسرحية العراقي يوسف الصايغ، الباب، من إعداد وإخراج زيد القضاة. وقد عبر أحد المشاهدين الذي لم يود أن يذكر اسمه عن هذه المسالة لناقدة الدراما في شيحان بقوله، "لا اعرف ماذا يريد المخرج أن يقول؟ أغلب المسرحيات عبارة عن طلاسم، وبعد أن شاهدتها فتحت بيت عزاء للمسرح الأردني."[٦٢]

سيطر اتجاه الإعداد والتجريب بالمواصفات آنفة الذكر على معظم عروض مهرجانات المسرح الأردني. ففي مهرجان عمون لمسرح الشباب الثامن عام ٢٠٠٢ أعد باسم عوض وأخرج أشرف طلفاح مسرحية سعد الله ونوس، رحلة حنظلة، وسماها المعد رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة. وقدم حيدر الكفوف من إعداده وإخراجه عرضا لمسرحية فؤاد الشوملي، ترنيمة الجدران الصامتة،[٦٣] كذلك أعد وأخرج سامر خضر مسرحية هزاع البراري، الناي والنهر،[٦٤] وأعدت وأخرجت نرمين النعمان مسرحية الخفاش من تاليف الكاتب العراقي وليد فاضل، وحتى العرض الذي حظي على جائزة أفضل عمل متكامل، رؤية أخيرة للكاتب جمال ابو حمدان،[٦٥] فكان معدا عن النص الأصلي.

تتفحص هذه الدراسة عن قرب، عرض رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة. فبالإضافة إلى الأسباب المذكورة لاختيار مسرحيات هذه الدراسة في المقدمة، فقد قدمت مجموعة من الهواة من غير المتخصصين في المسرح من طلبة جامعة الإسراء عرضا موازيا في المهرجان نفسه، في ٣١-٨-٢٠٠٢، لهذه المسرحية تحت اسمها الأصلي

وكما كتبها صاحبها، وكان عرضا ناجحا قوبل بإعجاب الجمهور والنقاد، في حين أن عرض النص المعد الذي دخل في مسابقة المهرجان الرسمية، رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة، من إخراج أشرف طلفاح، اعتبره الجمهور والنقاد ولجنة تحكيم المهرجان فاشلا.

تبدأ حبكة المسرحية الأصلية لعد الله ونوس ورجلها الرئيسي في السجن محتجز ظلما. لكن الشرطي في السجن يخيفه ويضطر حنظلة إلى مقايضة ما يملك مقابل حريته. ولأنه غاب بضعة ايام عن البيت دون أن تعرف زوجته بذلك، فهي تكذبه وترفضه وتطرده، ويخسر عمله، ثم يخسر في كل محطة يقف فيها. اختلف نص العرض عن النص الأصلي اختلافا واضحا وجاء العرض غير مفهوم. فالرجل هنا يجلس داخل او حول حذوة خيل كبيرة تجلس على خشبة المسرح وكانها طاولة، ومعه رجل آخر يلزمه في مشاهد العرض كافة، ويخرج احيانا خمسة رجال يرتدون الأبيض ويتجمهرون حوله دون سبب واضح، ويحملون يافطات كتب على كل منها احد الأمثال التالية: "إمش الحيط الحيط وقول يارب السترة،" "الطاقة اللي بيجيك منها الريح سدها واستريح،" خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود،" إبعد عن الشر وغنيله، و "اللي من إيده ألله يزيده."

وبين الحين والحين يتجمد الحدث وتظهر على شاشة كبيرة على الجدار خلف الممثلين صور سريعة جدا غير واضحة، ثم يقول حنظلة وبعد كل مرة: "كنت فقط أريد أن." ويجلس بين الجمهور في الصف الثاني شخص يحمل ضوءا كهربائيا قويا يشعله كل حوالي خمس دقائق في وجه المشاهدين خلفه. في نهاية العرض، تظهر الشاشة واضحة فهي فلم أطفال يركبون إحدى الألعاب في مدينة العاب، وعندما تقف يقول حنظلة هذه المرة: "كنت فقط أريد أن اذهب إلى مدينة الألعاب." ثم يبدأ

الممثلون بتوزيع الشموع على الجمهور.

لا يطرح عرض رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة اي فكر أو فلسفة. ولا تحمل أي عنصر من عناصر الترفيه إلا موقفا كرره الممثل لأنه اضحك الجمهور، وهو ان الممثل الذي يلعب دور حنظلة سكت وبدا وكأنه نسي حواره، فاوما للممثل الآخر فسار الممثل الآخر إليه وهمس شيئا في اذنه، فتذكّر واكمل. ولأن هذه الحركة أضحكت الجمهور، وكانت الشيء الوحيد الذي فهمه الكثيرون منهم لغاية تلك اللحظة، وهي على الأقل بعد منتصف العرض، كررها الممثلون اكثر من مرة. اشتمل العرض على افعال تثير اشمئزاز المشاهد ونفوره، مثل تسليط ضوء في أعين المشاهدين عن عمد كل خمس دقائق ولمدة ١٠-١٥ ثانية، يحمله أحد العاملين في المسرحية ويجلس في أحد المقاعد الأولى، وبائعين عن يسار ويمين المسرح، لا يفهم ما المقصود بهم، أحدهم يبيع "بوشار" ويجعله يفيض ويتكوم على الأرض، والثاني يتناول قطع أوراق وينثرها امامه يسارا ويمينا. وهناك مرآتان على يسار الخشبة عليهما دوائر حمراء متداخلة وكلمة "مطلوب" بالإنجليزية. وبالطبع هذه عناصر تنتمي إلى أنساق المسرح التعبيرية والشكلية والمستقبلية.

كذلك وضحت هيمنة المخرج اشرف طلفاح على العرض فظهر الممثلون على الخشبة وكانهم آلات مطيعة لا تحس. قسّم المخرج عرضه إلى مشاهد لا تبدو مترابطة إلا بذلك الشريط السينمائي الذي اقفل كل مشهد وقال بعده الممثل (حنظلة): "كنت فقط اريد ان." وهذه عناصر من التغريب. اما الشخص الذي كتب مديحا للعرض في مقالة غير متخصصة فكان محمد جميل خضر في جريدة المهرجان، عمون، فذهب إلى تناقض واضح مع نفسه:

تقدم "الدويخة" بشكل غير واضح وأصبح "الشاهد" دائما موجها للأسفل كانما

يشير للهدف أو لتخبط الخطى واضطراب المركزية والمرجعية. ورغم أن طلفاح تصرف كثيرا في نص ونوس حاذفا منه بعض الفصول، إلا انه أبقى على ما يخدم رؤيته الفنية وعلى وجود الشخصيتين مما أفاده عبر الزمان والمكان.[٦٦]

وبالرغم من احتواء هذه المقالة النقدية على بعض الغموض، إلا انها تشمل على حقيقة أن المخرج حذف فصولا من المسرحية الأصلية من اجل أن "يخدم رؤيته الفنية،" ولكن السيد محمد جميل خضر لم يكتب عن هذه الرؤية شيئا. وقد زاد المسالة تعقيدا مديحه للمخرج على محافظته على "وجود الشخصيتين مما أفاده عبر الزمان والمكان،" وهما الشخصيتان الرئيسيتان الوحيدتان في العرض، والشخصيات الأخرى ليس لها حوار في العرض. فهم يجلسون حول حذوة الفرس المستديرة التي سماها السيد خضر لعبة "الدويخة" في مدينة الألعاب ولا يفعلون شيئا.

وأكد جعفر العقيلي في العدد الرابع من عمون، تحت عنوان "المشاركون اكدوا خلل الإعداد على حساب النص الأصلي، "أن المتحدثين في الندوة التقييمية كالدكتور مؤيد حمزة والدكتور نادر القنه والدكتور حسن عطية والناقد فيصل القحطاني والدكتور أبو الحسن سلام، ومعظمهم مسرحيون عرب من خارج الأردن، اتفقوا على "اهمية احترام المخرج للنص الأصلي ... وضرورة المحافظة على رؤى المؤلف وأفكاره التي يطرحها في نصه."[٦٧] فاشار الناقد فيصل القحطاني إلى أن المخرج لم يوفق في قراءته للنص، وانتقد مسالة توزيع الشموع على الجمهور لدى نهاية العرض: "فالأولى أن تقدم الشموع لحنظلة الذي هو بأمس الحاجة إليها ... كما أن العقل ينار بالفكرة، لا بالشمعة." وأكد الدكتور نادر القنة "أن ما قدم في هذا العرض يختلف استراتيجيا عما أراده ونوس في نصه،" وتساءل: "لماذا لم يختر المخرج نصا آخر يناسبه أكثر؟" اما الدكتور أبو الحسن سلام فقد اعتبر أن "العرض تنقصه الرؤيا."

لم يتمكن الإعداد ولا الإخراج من إبراز أبعاد شخصية حنظلة في رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة، كما كتبها مؤلفها الأصلي، سعد الله ونوس. فهي في النص الأصلي ذات أبعاد واقعية محددة بوضوح، تدور في فلك حبكة لها أرضية واقعية. فحنظلة رجل متزوج يعيش مع زوجته في بيت محدد، وهو رجل عامل أيضا، يعمل في أحد الأماكن، وهو أيضا رجل طيب يحب زوجته ويخلص لها. ومع الأسف لم يتضح أي بعد من هذه الأبعاد في عرض المخرج أشرف طلفاح.

اعتمد المعد باسم عوض والمخرج أشرف طلفاح في عرضهما مدينة العاب كمكان لأحداث المسرحية، ولم يتضح ذلك إلا في آخر لحظة من لحظات العرض. وهذا لا يكفي لأن تحديد المكان ليس ذروة في المسرحية ليعتبر المعد أو المخرج أن بإمكانه تغيير زمان حدوثها. وبالإضافة إلى استعمال الضوء الساطع من بين المقاعد الأمامية وباتجاه المشاهدين، نجحا في إثارة أعصاب المشاهدين، وليس إثارة تفكيرهم من اجل أن يفعل المشاهدون شيئا "ثوريا" حسبما علّم برخت. ولم يكن زمن العرض واضحا. وبالإضافة لعدم وضوح الحدث، وطمس الحدث الأصلي للمسرحية، والذي نوقش في الدراسة قبل قليل، يصبح الناتج إلغاء العناصر الثلاثة الرئيسية التي يقوم عليها المسرح. مما يعني أن هذا النوع من العرض يجب أن ينتمي إلى شكلآخر أو قسم آخر من اشكال أو اقسام الفن، وليس المسرح.

الخاتمة

كان الاتجاهان الأول والثاني اللذان ناقشتهما هذه الدراسة، مسرحة نصوص اوروبية، تطبيقات عملية على النظريات الأوروبية غير الواقعية ومسرحة نصوص عربية ومحلية على غرار الأعمال الأوروبية غير الواقعية، قدما العديد من الفوائد للمسرح الأردني. وكانت عروض مسرحيات هذين الاتجاهين عروضا ناجحة على الصعيدين الفكري الفلسفي، والشعبي، وكان تجاوب رواد المسرح الأردني مع تلك العروض تجاوبا عظيما.

وناقشت هذه الدراسة كلا من لعبة النهاية من إخراج باسم دلقموني، وقناع السعادة من إخراج شعبان حميد، والغرباء لا يشربون القهوة من إخراج حاتم السيد، والشحادين من إخراج جميل عواد، وفي كل عرض من هذه العروض تحقق ما يلي:

١ ـ وصل إلى الجمهور المسرحي كل ما ود هؤلاء المخرجون إيصاله. فكانت رؤاهم الإخراجية واضحة فسهل فهمها. وهذه هي المهمة الأولى والأهم للمخرج: أن لا يفترض أن المشاهدين في عقله يقراونه بسهولة ويعرفون كيف يفكر. فافترض هؤلاء المخرجون المنطقي والعقلاني، وهو أن المشاهدين حضروا دون علم مسبق بحكاية العرض، ولا بنوعه، ولا بطريقة إخراجه، وأنه يتحتم عليهم فهم مفردات العرض كما يسهلها عليهم مخرج العمل، وليس أن يستفزوا وتثار أعصابهم ويضطروا أن يدعوا انهم فهموا العمل امام اصدقائهم، او أن يغادروا بيت المسرح مبكرا.

٢ ـ وصل إلى الجمهور ايضا افكار كتاب هذه المسرحيات وفلسفاتهم، وهذه مسألة في غاية الأهمية، وهي افضل هدية يقدمها المخرج للجمهور. فالكاتب عبر تاريخ هذا الفن الراقي كان ومازال يعتبر في كل دول العالم، وسيبقى، على رأس العملية

الإبداعية في الدراما، فهو صاحب المادة الخام التي جاءت من الصفر، فهو مخترع، لا يقل أهمية عن الذي اخترع الآلة البخارية والكهرباء. وعندما تتكون فكرة أخرى لدى المخرج ويبدأ بتحريف النص وحذف بعضه ليلائم أية فكرة لديه تختلف عن أفكار الكاتب، وجب على هذا المخرج كتابة نصه هو. فالعبث بمسرحيات الكتاب الأصليين هو أحد أبرز الممنوعات في عالم الدراما والمسرح، وهو تماما مثل الذي لا يعجبه بيت أو عدة أبيات في قصيدة، فيغير هذه الأبيات، ويطرح فيها وجهة نظره ورؤاه الشعرية. مثل ذلك مثل موسيقي لا يعجبه لحن أو جزء من لحن ما لموسيقي آخر، فيغير ذلك الجزء ليتوافق مع مزاجه ورؤاه الموسيقية، بدلا من كتابة لحنه الخاص به. فربما كان تحريف نص مسرحي نوعا من العجز عن توصيل وجهة نظر ما من خلال النص الأصلي للكاتب، فهذا يتطلب فكرا منطقيا حادا وسليما، ومخيلة مبدعة.

٣ ـ نجح عنصر التمثيل في مسرحيات هذا الاتجاه، وهو أهم عنصر من عناصر العرض المسرحي، لأن فن المسرح طالما دعي فن التمثيل. ومع اختلاف أساليب وأنساق العروض المطروحة في هذا الاتجاه، جاء التمثيل في كل منها مقنعا، وهذا هو الشرط الأساسي لنجاح التمثيل. ففي لعبة النهاية أوصل الممثلون مواقف غير منطقية وغير معقولة للمشاهدين. هكذا كتب النص، واستطاع المخرج أن يوصل من خلال التمثيل ما أراد إيصاله. كذلك في قناع السعادة بدا تمثيل الممثلين ما بين الواقعية والتعبيرية، وكان مقنعا ووصل إلى المشاهدين كل ما أراد المخرج توصيله.[٦٨] وحظي التمثيل الطبيعي- الواقعي في الغرباء لا يشربون القهوة بإطراء الغالبية العظمى من النقاد. وعندما كان التمثيل تغريبيا ملحميا في عرض الشحادين، وصلت درجة الإقناع بذلك التمثيل درجة عالية جدا أيضا، وامتدح

معظم النقاد إبداع الممثلين.(٦٩)

٤ ـ جاء استخدام أساليب وعناصر المدارس الأوروبية غير الواقعية ناجحا ومقنعا في العروض الأربعة التي مثلت الاتجاهين الأول والثاني في هذه الدراسة، ذلك أن كل واحد من هذه العروض اشتمل على أرضية واقعية وعكس فكر الكاتب ووضحت رؤى المخرج فيه. فحكاية الابن الضرير في لعبة النهاية، الذي يضع أبويه في براميل قمامة، ولديه خادم عاص يهدد بتركه ولا يفعل، وحكاية الرجل الثري في قناع السعادة، الذي يتمنى أن يرجع له عماه لكي لا يرى ما رأى من غش وخداع وزيف، وحكاية الرجل الطيب في الغرباء لا يشربون القهوة، الذي يجلس هانئا آمنا أمام بيته يقرأ في جريدة فيحضر طغاة لا يشربون قهوة المسالم، ويسلبونه بيته ويشردونه، وحكاية الشحادين الذين ينتهون إلى تمزيق طفل برئ أحضر لهم طعاما وهم جياع، كلها تحتوي على أرضيات واقعية لأحداث غير عادية. فكان من الرؤى الإخراجية في تلك الأعمال، والتي قدمت عن طريق الرموز والدلالات التي استخدمها مخرجوها بفعالية، أن جاءت واضحة ومؤثرة.

٥ ـ تناسبت الأعمال المسرحية في هذين الاتجاهين مع واقع وهموم الإنسان الأردني والعربي واشتمل كل منها على محاكاة لوجدانه. ليس هذا فحسب، بل يعتبر كل منها عملا عالميا يحمل فكرا يخدم الإنسانية جمعاء، ذلك لأن القضايا التي تناقشها هذه الأعمال، والرؤى الإخراجية في عروضها أيضا، تهم الإنسان أينما كان، فيتحد بنو البشر في الحاجات والرغبات والأحلام والطموحات.

٦ ـ اعتمدت عروض هذه الدراسة التي تمثل الاتجاهين الأول والثاني نظريات وأصول علم الجمال، فكانت رؤى مخرجي هذه الأعمال ترتكز على المنطق، فجاءت دقيقة يقيسها العقل بسهولة، ويرتاح بالتالي لها بال المشاهدين.

اما الاتجاه الثالث الذي اخذه المسرح الأردني في فترة هذه الدراسة، اتجاه الإعداد والتجريب في مسرحة نصوص مسرحية عالمية أو عربية أو محلية حسب واحدة أو أكثر من النظريات المسرحية الأوروبية غير الواقعية في القرن العشرين، فقد اختلف كلية عن الاتجاهين الأولين، وفي نواح عديدة. وكما شرحت هذه الدراسة، فهذا الاتجاه تميز بالميزات التالية:

١ - صعوبة استيعاب الشاهدين لرؤى المخرجين في الغالبية العظمى من هذه الأعمال كما بينت الدراسة.

٢ - فشل المخرجون في غالبية عروض هذا الاتجاه في إيصال أفكار وفلسفة الكاتب الأصلي للنصوص المسرحية لهذه العروض، كما بينت الدراسة. فلا يفيد الادعاء بملكة الفلسفة والفكر إلا بعد التأكد من ذلك. فالقوة الخطيرة البهية تكمن في معرفة حدود مقدرة الذات. وإذا كان المخرجون الأردنيون الذين يمتهنون تغيير نصوص الكتاب الأصليين لبرهنة ذكاء كبير وفلسفة مختلفة، فليبدأ كل منهم بتأليف نصوص مسرحية خاصة به، علهم أن يفرزوا لمجتمعنا خصوصية ثقافية فذة نباهى بها.

٣ - عدم التركيز على إبراز صور ذهنية إيجابية للمواطن الأردني والعربي في الغالبية العظمى لهذه العروض. فإن عملية خلق صور ذهنية إيجابية تنعكس من شخوص العروض المسرحية من أجل محاكاة أفراد المجتمع من ناحية، ومن أجل أن يحتذي بها هؤلاء الأفراد من ناحية أخرى. وهي جزء هام وعضوي من أجزاء العملية المسرحية الإبداعية في أي مجتمع.

٤ - وكجزء من عدم وضوح صور ذهنية للإنسان الأردني والعربي في هذه الأعمال، ونتيجة لذلك اختفت أية هوية وطنية أو قومية واضحة لمعظم، إن لم يكن كل،

شخوص العروض المسرحية في هذا الاتجاه. فمن واجب المخرج المسرحي، ومخرج الدراما بشكل عام، ان يهتم بهوية شخوص الأعمال التي يعرضها، اي ان تظهر هذه الشخوص وهي على علم وثيق بهويتها ومن اين اتت وإلى اين هي ذاهبة، وماذا تريد ان تحقق من خلال ادوارها في العروض المسرحية.

٥ - ربما لمجموعة الأسباب التي أدت إلى تدني مستوى أداء المسرح الأردني، المسؤول الأول عن تقديم عروض الاتجاه الثالث في هذه الدراسة، هبط مستوى التمثيل كثيرا فيها. فلا يسمع غير ذم المشاهدين ومعظم النقاد لنوعية ومستوى التمثيل.

٦ - انغمس هذا الاتجاه انغماسا عميقا في عوالم اللامعقول وغير الواقعية الأوروبية. فمن مخرج إلى آخر أصبحوا يتباهون بقدرتهم على عدم اتباع المنطق وأسس علم الجمال. فيجب التركيز على حقيقة مهمة: أن أصحاب هذه المدارس اقلعوا عنها بعد فترة وجيزة من البدء بها، وأنهم يعملون فقط على استخدام بعض عناصرها بدمجها بعناصر المدرستين الطبيعية والواقعية. فلا استمرار ولا حياة للمدارس غير الواقعية إلا من خلال المدارس الطبيعية الواقعية، وببقائها جزءا مساندا لها فقط. وهذا يعني احترام مبدأ ضرورة وجود الأرضية الواقعية في أي عمل يختار كاتبه له أن يأخذ مسارا غير واقعي.

٧ - فشلت الغالبية العظمى من أعمال الاتجاه الثالث في هذه الدراسة في محاكاة هموم وقضايا جماهيرها. فلا يفهم لها فكر او فلسفة محددة، وتذهب إلى عوالم مبهمة لا علاقة لها بحياة المشاهدين ولا تبعث السرور في أفئدتهم.

٨ - معظم هذه العروض المسرحية لا تهتم بقوانين وأسس علم الجمال. فلا تعتمد رؤى مخرجيها على المنطق السليم في التراكيب الدرامية، ومسائل العلاقات الاجتماعية بين شخوص هذه الأعمال، وفي التعامل مع الدلالات الكثيرة التي يحاولون إقحامها

في العروض إقحاما، دون مبررات علمية تخضع لمنطق سليم، ناسين أو متناسين أن مسألة التعاطي بالمنطق مسألة مشتركة في العقل البشري.

هناك أهمية كبيرة وملحة للخوض في دراسات مماثلة، من أجل تنوير العاملين في المسرح، خصوصا الشبيبة التي تختار المسرح والدراما خطا لهم في الحياة. فالورشات المسرحية في الأردن شحيحة، ولا تقوم بذلك مديرية المسرح، في حين أن عمل ورشات متخصصة في جميع نواحي العملية الإبداعية الدرامية من أهم وظائف دوائر الدراما. والكتب المطروحة في الأسواق والمكتبات والدوائر الثقافية عن المسرح الأردني، في معظمها، هي مسح تاريخي دخلت في معظمه أمزجة شخصية وميول غير عادلة. كما أن معظم هذه المؤلفات لا تستند إلى آخر القواعد والأنظمة العالمية في البحث العلمي، فاخطاؤها كثيرة ومتعددة الأنواع. فهناك حاجة ملحة لدراسات علمية حسب الأصول العالمية الحاضرة، تخدم أصول البحث العلمي في عالم الدراما، من النواحي الفكرية الفلسفية، ومن النواحي الأدائية والتقنية والتصميم وبيوت العروض المسرحية.

فمن الممكن القيام بدراسات توضح أهمية اتباع النظرية الأساسية في التمثيل، الا وهي ما نتج عن المراحل الثلاث في نظام المخرج الممثل المنظر الروسي، قسطنطين ستانسلافسكي، ودراسات في مدارس النقد الحديثة وعلاقتها بمدارس الدراما الحديثة وتطوير ما يمكن تطويره لمجتمعنا العربي الأردني. وكذلك دراسات في تطوير تقنيات المسرح، واخرى في الأعمال الكلاسيكية، وخصوصا تلك التي استفادت من الميثولوجيا العربية، وهي غزيرة، فدراسة الميثولوجيا الخاصة بثقافة معينة تغني أهل هذه الثقافة، فتبعث بدارسيها الثقة بالنفس والثبات على هوية محددة واضحة، فينعكس هذا على إنتاجهم وفنهم ليصبح أكثر أصالة وجودة.

الحواشي

١.. David Lodge, (Ed.), Modern Criticism and Theory, (London: Longman, 1988), p. 15.

٢ ـ صموئيل بيكيت، لعبة النهاية والأيام السعيدة، ترجمة وتعقيب سمير أحمد ندى وتقديم محمد غنيمي هلال (القاهرة: مطابع الطناني، ١٩٦٤).

٣- جورج كليمنصو، قناع السعادة (عمان: تصوير مهدى لمكتبة الجامعة الأردنية من أشرف اباظة، ١٩٧٠).

٤- محمود ذياب، رجل طيب في ثلاث حكايات (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥).

٥- جميل عواد، الشحادين، (عمان: المؤلف، ١٩٨٠).

٦- البير كامو، ملهاة عازف الكمان، إعداد غير منشور لحكيم حرب لمسرحية سوء التفاهم، عرض مسرحي ١٩٩٨ .

٧- ______، ثلاث مسرحيات: الحصار، العادلون، وسوء التفاهم، ترجمة عن الفرنسية عبد المنعم الحفني (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، ١٩٧٠).

٨- سعد الله ونوس، رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة، إعداد غير منشور لأشرف طلفاح لمسرحية رحلة حنظلة، عرض مسرحي ٢٠٠٢.

٩- ______، الأعمال الكاملة، (دمشق: الأهالي، ١٩٩٦).

١٠- محمود اسماعيل بدر، بانوراما حركة المسرح الأردني: ١٩٧٧-١٩٨٣، (الأردن: مطبعة وزارة الثقافة والفنون، ١٩٨٣)، ص ٨٠ .

١١- عبداللطيف شما واحمد شقم ، المسرح في الأردن (الأردن: منشورات رابطة المسرحيين الأردنيين، ١٩٨٢)، ص ٩٨-٩٩.

١٢- نفسه، ص ٢١٥ .

١٣ . Jerry Crawford, Acting: In Person and in Style, (New York: Brown Publishers, 1984), p. 277.

١٤- نفسه، ص ٢٧٧ .

١٥- نفسه، ص ٢٨٧ .

١٦ . John Taylor, A Dictionary of the Theatre, (London: Penguin Books Ltd., 1975), p. 270.

١٧- جيري كرافورد، المصدر المذكور، ص ٨٧٢.

١٨ . Jerry Crawford, op.cit., p. 278, and Margot Berthold, A History of World Theatre, E. Simmons, (Trans.), (New York: Frederick Ungar Publishing Company, Inc., 1975), p. 586.

١٩- جيري كرافورد، المصدر المذكر، ص ٢٧٩ .

٢٠- جون تيلور، المصدر المذكور، ص ١٠٠ .

٢١ Glen Wickham, A History of the Theatre, (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), p. 229.

٢٢ ـ نفسه، ص ٠٣٢.

٢٣ J. L. Styan, (Ed.), Modern Drama in Theory and Practice: Symbolism, Surrealism and the Absurd, Vol. 2, (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. 34.

٢٤- ديفد لودج، المصدر المذكور، ص ٣١ .

٢٥- جون تيلور، المصدر المذكور، ص ١٠٧ .

٢٦- جلين وكهام، المصدر المذكور، ص ٢٢٣ .

٢٧- نفسه، ص ٢٢٣ .

٢٨- جيري كرافورد، المصدر المذكور، ص ٢٩٢.

٢٩- مارغو بيرتهولد، المصدر المذكور، ص ٥٩٤ .

٣٠- جلين وكهام، المصدر المذكور، ص ٣٣٥ .

٣١- جون تيلور، المصدر المذكور، ص ٨.

٣٢ . Charles McGaw, Acting is Believing, (New York: Holt, Rinehart and Winston,

1975), p. 126.

٣٣- جيري كرافورد، المصدر المذكور، ص ٢٩٨ .
٣٤- جون تيلور، المصدر المذكور، ص ٩٧ .
٣٥- محمود اسماعيل بدر، المصدر المذكور، ص ١٣ .
٣٦- باسم دلقموني، اتصال شخصي، ٢٠٠٢/٤/٤.
٣٧- عبداللطيف شما واحمد شقم، المصدر المذكور، ص ٢١٢.
٣٨- محمود إسماعيل بدر، المصدر المذكور، ص١٣-١٤ .
٣٩- عبد اللطيف شما واحمد شقم، المصدر المذكور، ص ٢٢٣ .
٤٠- نفسه، ص ١٠١.
٤١- محمود اسماعيل بدر، المصدر المذكور، ص ٢٦ .
٤٢- نفسه، ص ٢٨ .
٤٣- نفسه، ص ٢٦ .
٤٤- عبد اللطيف شما واحمد شقم، المصدر المذكور، ص ٨٧-٨٨.
٤٥- نفسه، ص ٢١٧ .
٤٦- محمود اسماعيل بدر، المصدر المذكور، ص ١٦ .
٤٧- نفسه، ص ١٦-١٧.
٤٨- نفسه، ص ٢٢١ .
٤٩- جيري كرافورد، المصدر المذكور، ص ٢٩٧ .
٥٠- محمود اسماعيل بدر، المصدر المذكور، ص ٢٢٢.
٥١- جيري كرافور، المصدر المذكور، ص ٣٠٠ .
٥٢- نفسه، ص ٣٠٠ .
٥٣- عبد الخالق كيطان، "ملهاة عازف الكمان، الاحتفال بالمرئي،" يومية المهرجان، عدد١، (١٩٩٨/١١/١٨)، ص ٢.
٥٤- حسين نشوان، "فعاليات مهرجان المسرح الأردني السادس، الأمسية النقدية الأولى تناقش ملهاة عازف الكمان،" الراي، (١٩٩٨/١١/١٩)، ص ٣٧ .
٥٥- اماني سليمان، "في ندوة نقدية بمهرجان المسرح الأردني السادس د. زكي، الباب مسرحية الإشارات تذكرنا بدب تشيخوف،" العرب اليوم، (١٩٩٨/١١/٢٠)، ص ٢٣ .
٥٦- رهام الفرا، "نافذة على عروض مهرجان المسرح الأردني السادس"، شيحان، (١٩٩٨/١١/٢١)، ص ١١.
٥٧- أماني سليمان، "على هامش مهرجان المسرح السادس، ندوة تقييمية حول مسرحية ملهاة عازف الكمان"، العرب اليوم، (١٩٩٨/١١/١٩)، ص ٢٦ .
٥٨- حكيم حرب، شهادة شخصية، ألقيت من ضمن فعاليات مهرجان عمون للمسرح الأردني عام ٢٠٠٣.
٥٩- فريد ضمرة، "ماوراء العرض، هكذا شاهدت مسرحية الباب"، العرب اليوم، (١٩٩٨/١١/١٩)، ص ٣٦,
٦٠- نرمين النعمان، "كلمة حول مسرحيتي الباب وملهاة عازف الكمان"، العرب اليوم، (١٩٩٨/١١/٣١)، ص ٢٦ .
٦١- عبد الله رضوان، "مجرد سؤال"، الراي، (١٩٩٨/١١/١٩)، ص ٣٧ .
٦٢- رهام الفرا، "قالوا في مهرجان المسرح"، شيحان، (١٩٩٨/١١/٢٨)، ص ٣٠ .
٦٣- فؤاد الشوملي، ترنيمة الجدران الصامتة، نص مسرحي غير منشور، عرض عام ٢٠٠٢.
٦٤- هزاع البراري، الناي والنهر، نص مسرحي غير منشور، عرض عام ٢٠٠٢.
٦٥- جمال أبو حمدان، رؤية اخيرة، نص مسرحي غير منشور، عرض عام ٢٠٠٢.
٦٦- محمد جميل خضر، "رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة خلقت دهشتها الخاصة وانتزعت اعجاب الجمهور"، عمون، عدد ٦، (٢٠٠٢/٨/٢١)، ص ١.
٦٧- جعفر العقيلي، "في الجلسة النقدية لرحلة حنظلة، المشاركون اكدوا خلل الإعداد على حساب النص الأصلي"، عمون، عدد ٤، (٢٠٠٢/٨/٧١)، ص ٣.
٦٨- محمود اسماعيل بدر، المصدر المذكور، ص ٢٩ .
٦٩- نفسه، ص ٢٢٤ .

العربيـــة
نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية

للدكتور نهاد الموسى
عرضه وقَدَّمه: د. وليد أحمد العناتي
قسم اللغة العربية ـ جامعة البترا

هذا كتاب جامع مانع، سهل صعب في الآن نفسه ، فهو سهل لأنه يجرّد العربية في أنماطها الجُمْليّة والنحوية والصرفية والصوتية بما يشبه أن يكون سبراً لأعماق البنية المعرفية للعربية ، وهو صعب لأنه غير قابل للاختصار أو الإيجاز أو حتى العرض . وقد يجانبني الصواب حين أتناول ما فيه على هيئة الاختصار؛ إذ لابد من قراءة مادة الكتاب غَيْرَ مَرَّة لنتمثل العربية في صورتها المختزنة في لا وعينا .

يبدأ الكتاب بفاتحة تضع البحث في صورته العامة وغايته الأساسية؛ إذ إنه يستهدف أن يقدم توصيفاً للعربية يتجاوز ما قَرَّ في كتب التقعيد الأولى ، محاولاً أن يستبطن المعرفة الكلّية بالعربية ، آخذاً بعين الاعتبار فرقاً أساسياً بين الحاسوب والإنسان لا يكتفي بتعرف البنية الشكلية للغة لتكون دليلاً على التواصل بل يستدعي مقولات تعتمد على السياق وعلى المعرفة المنطقية بالعالم الخارجي وعلى أعراف الناس ، أما الحاسوب فليس له مثل هذا ، وهكذا يهدف التوصيف إلى سد تلك الثغرة في أداء الحاسوب ، ثغرة نقص الكفاية اللغوية .

أما المقابسة فتتشخص على هيئة حوار لطيف أو مناكفة بين الأستاذ وبين واحد لا يقر بإمكانية الحوسبة أو لا يعترف بجدواها ، فيكون الحوار شائقاً مبنياً على تساؤلات وإجابات غاية في الدقة والضبط ، والأستاذ إنما يهدف من ذلك إلى تقديم مسوغات البحث في استدراك ما لم يعرفه الأوائل ، ومفاد ذلك أنهم وصفوا اللغة للبشر من أبناء اللغة ، وذاك الوصف مبني في شطر يسير منه على أن المُسْتقبِل يسهم إسهاماً فاعلاً في عملية التواصل ، ينضاف إلى ذلك عناصر السياق والعرف اللغوي والاجتماعي .

أما هذا المشروع فإنه يستدرك مثل هذه الأشياء ليجعلها مخزونة في ذلك الجهاز الأصمّ، ليحول إلى ما يشبه أن يكون معرفة تامة باللغة ، وهكذا يسجل فرقاً أساسياً بين

الوصف والتوصيف، فالوصف ما وقع للعرب من قواعد مُسْتَنْبَطة من الأداء اللغوي الواقعي، أما التوصيف فينتظم الوصف مضافاً إليه كل الاحتمالات التي ليس بمقدور الحاسوب تَعرّفها دون توصيف دقيق.

ثم ترى د. نهاد يعرض لصلته بالبحث ، فهو يرتد إلى ما يقارب خمسة عشر عاماً حين كان مدعواً للمساهمة في عمل يُسْتَثْمَرُ في حوسبة العربية على وجوهها المتعددة ثم يعرض بعد ذلك للبحوث التي تقدمته في هذا الميدان ، فيتوفَّرُ على كثير منها بين مادة بحث وموضوع ندوة ونص كتاب ، فيحاول أن يستظهر جوانبها المتعددة مستدركاً جوانب القصور إنْ كان ثمَّة ، ومنبهاً إلى وجوه امتداد البحث وتوسيعه. وهذه الفقرة من الكتاب تُمَثِّل جرداً وافياً نَعْتَدُّه مرجعاً ودليلاً هادياً لمن يصبو إلى استئناف النظر في الموضوع .

وينطلق هذا البحث من التبصُّر في نظام العربية وأظهر أدلتنا عليه أمران ، اللغة بتجلياتها المباشرة ، ووعينا العقلي بهذه التجليات من جهة ما هي أدلة على عمل العقل الإنساني .

ثم يحدد مصطلحاته بدقة لتكون موجِّهة للقارئ وضابطة للنص من الأول ، فيستخدم مصطلح "التمثيل" ليدل على ضبط اللغة في بناها المتعددة على هيئة ثابتة تُقَدَّمُ للحاسوب ليستدخلها في منظومته الرياضية . أما "العيار" فهو تعريف المادة وما تتضمنه من معطيات تفصيلية تشبه أن تكون تعريفاً جامعاً لينتظم عناصر صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية .

ولما كان الحدس أظهر ما يتكئ عليه الإنسان في تعرفه اللغة وأداءاتها ، ولما كان الحاسوب يفتقر إلى هذا العنصر الإنساني الخالص ، وجب على الموصِّف أن يتدارك هذا

النقص، ليبلغ بالحاسوب مبلغ المعرفة الإنسانية باللغة ، فتراه يتمثل لذلك وجوهاً يعرض فيها الحدس دافعاً للبس على المستوى اللغوي المحض ، ويتأول لذلك نماذج مشابهة لما ينبغي أن تكون عليه الصورة في ذاكرة الحاسوب ، ويمثِّل على ذلك بالصفة والعلم يكونان على بنية واحدة ، فيستهدي بأدلة موقعية وسياقية لتعرّف احدهما من الآخر .

معالم التوصيف

-١-

نحو تمثيل النظم

يقوم هذا الفصل على معطيات فرعية متسلسلة يفضي كل فرع إلى الذي يليه ، فيُبْنى عليه ولا يقوم إلا به . وهو ينطلق من مستخلصات القواعد التي قررها النحاة الأوائل، والهيئات التي تتحقق عليها الجملة العربية ، فيستوعب انماط الجملة الفعلية والاسمية. ويهدف د. نهاد من هذا الفصل إلى غاية عظيمة ، ان يوصِّف للحاسوب انماط التركيب العربي بكل تجلياتها وتحققاتها الأسلوبية المكنة في العربية . إذ نراه يتخذ اولاً ، جملة فعلية تمثل ابسط اشكال الجملة الفعلية العربية : عاد العامل ، تتألف من فعل ماض مجرد مثبت صحيح لازم ليستنفد اشكال التركيب العربي المحتملة والمكنة، فيمد الجملة من يسارها بعناصر إضافية ليست من البناء الأصلي للجملة (فضلات) ، اريد لها أن تحقق معاني إضافية لا تؤديها الجملة بعنصريها الرئيسيين (الفعل والفاعل). فإذا انقضى ذلك بدأ يمد الجملة من اليمين مستوعِباً كل ما يعرض لها من انماط خطية افقية مضيفاً العناصر التي تسبق الفعل في العربية .

فإذا فرغ من ذلك عمد إلى جَرْد الأنماط الجُمْليـة المنبثقة عن كل نمط تركيبي إضافي ، متخذاً من مرونة الإعراب في العربيـة دليلاً إلى ما يريـد ، فيرصد احتمالات التركيب العربي الناشئة بفعل التقديم والتاخير الذي يسمح به الإعراب .

وهو في توصيفه الجملة الفعليـة يتنبَّه إلى أن ثمة أنساقاً لغوية لا تجيزها العربية فيتحفظ عليها ويدل على (لا نحويتها) ، وذلك مثل (ص : ١١٠) :

* وهو متعب عاد العامل
* يتعب عاد العامل
* وقد تعب عاد العامل

وهو يميز بين المحتمل والممكن ، وذلك أن التوصيف للحاسوب يقتضي أن تَسْتَوْعِبَ الاحتمالات المنطقية للتركيب الواحد ، ولكننا نفزع إلى وصف اللغويين لندل على الوجوه غير الممكنة في الاستعمال الواقعي .

فإذا فَرَغَ من هذه الجملة "لازمة الفعل" ، انتقل إلى تمثيل جملة أخرى تمتد طبيعياً بفضل بنية فعلها ، وذلك أن الفعل المتعدي يحتاج إلى عناصر إضافية (المفعول به الأول والثاني والثالث) مما لا يحتاجه الفعل اللازم .

وهكذا تمتد هذه الجملة امتداداً أفقياً يفوق في عناصره جملة "عاد العامل" . وإنما كان ذلك محمولاً على الفرق بين "قرأ" و "عاد" ثم يستكشف بُعْداً مُهماً في ضبط بنية الجملة الفعلية وامتداداتها، ذلك هو "دلالة" الفعل ، وإنما كان ذلك بالنظر إلى أثر الدلالة في ضبط مقتضيات الفعل. ومن أمثلة ذلك (ص: ١١٤-١١٧) :

- الأفعال الحسيّة كما في رأى وسمع ولمس وتذوَّق وشمَّ ، غالباً ما تقتضي فاعلاً ومفعولاً :

- رأى الثعلبُ الأرنبَ .

- يشاهد الأطفالُ التلفازَ .

- سمعَ الناسُ الخبرَ .

● أفعال الاتجاه كذهب وارتحل وسافر وهاجر ، غالباً ما تقتضي شبه جملة (ظرفاً أو جاراً ومجروراً) :

- ذهبَ العاملُ إلى المصنع .

- يرتحل الصحافي من بلد لآخر .

● أفعال التحويل كجعل وصيَّر تقتضي مفعولين :

- جعل المعلم الصفَ مسرحاً .

- صيَّر المهرِّج الجد هزلاً .

ويتوقف د. نهاد عند "جدل" النظم والبنية ، وذلك عندما ينضبط إعراب المفردة في الجملة بمبناها الصرفي .

ففي قولنا : اغترب المثقَّفُ حائراً .

تعينت الحالُ بكونها اسماً مشتقاً (حائراً) وهي اسم فاعل .

وفي قولنا : اغترب المثقَّف الحائرُ

تعينت الصفة (الحائرُ) بالتعريف .

وهكذا يكون التعريف والتنكير فيصلاً بين الحال (حائراً) وبين النعت (الحائر) .

فإذا انتهى من الجملة الفعلية انتقل إلى الجملة الاسمية وعمل فيها ما عمله في الجملة الفعلية، فقد اتخذ جملة (الطفل نائم) أساساً لتوصيف الجملة الاسمية في امتداداتها كلِّها وتحققاتها الأسلوبية والنغمية الجائزة والواجبة حتى أتى عليها كُلِّها،

ولم يَفُتْهُ استغراق الاحتمالات التي تخرج على قوانين نَظْم العربية ثم يختتم الفصل بتقديم نماذج من أعيرة الكلم (الاسم والفعل والحرف) ، وواضح أن هذه الأعيرة تنتظم مجموعة من المطالب التصريفية والصوتية والعلائقية.

-٢-

نحو تمثيل النص

ثم إنه ينتقل من الجملة البسيطة المفردة إلى النص ، وذلك ان النص الواحد يتألف من جمل عدة ، ترتبط بروابط منطقية دلالية او لغوية شكلية . وهذه الروابط مما يتحصَّل للناطق بالعربية تحصُّل السليقة ، فتصير معرفة مواضعها ووجوه استخدامها من مقتضيات الكفاية اللغوية بالعربية ، ويصير استخدامها استخداماً صحيحاً شطراً مهماً من الإنجاز اللغوي الفعلي .

وهكذا يكون ضبط مواضع هذه الروابط واستخداماتها عاملاً مهماً في حكم بنية النص ، وتحديد بدايات الجمل ونهاياتها ، ومعرفة الوحدات اللغوية المعنوية التي يتألف منها النص الواحد، بما ييسِّر ، في النهاية ، الترجمة الآلية ، وذلك أن الغاية الجُلّى من توصيف اللغة للحاسوب بلوغ حدٍ متفوقٍ من الترجمة الآلية السليمة والمعبرة .

وتوضيحاً لذلك يتخذ د. نهاد (الواو) مثلاً ، فينطلق ليوصِّف الواو على عمومها ، اكانت عاطفة ام معية ام حالية .. إلخ . ويستنفد كل ما يمكن أن تقع فيه من احتمالات جملة ممتدة من اليمين ومن اليسار ومن الوسط .

ثم إنه ينفذ من ذلك إلى باب التحديد والفرادة ، وذلك أن هذه الواو تختلف تحققاتها وانواعها، ولا سيّما أن لكل واحدة منها "أعيرة" خاصة لا تشترك فيها مع غيرها من

"الواوات" من ذلك مثلاً (ص : ١٤٤) :

- وقوع الواو بين جملة فعلية وجملة اسمية يكون دليلاً على الحال :

سافر محمدٌ وهو مسرورٌ

- وقوعها بين الضمير المتصل والاسم الظاهر يكون دليلاً على المعيَّة :

سافرتُ وعلياًّ

- وأن وقوعها بعد فاعل فعل يدل على الاشتراك يكون دليلاً على العطف :

اجتمع المدير والموظفون

تعاون المخرج والمؤلِّف

ثم إنه من تمام الكفاية التي ينبغي تمثيلها للحاسوب أن يكون قادراً على تعرُّف المواضع التي يعرض فيها الخطأ في استخدام الواو متخذاً مما "يعرفه" دليلاً وهادياً إلى الصواب ، ومن هذا أن يستوعب "العيار" المواقع التالية يدلُّ بها على أن الواو تكون مُقْحَمة، ويكون ورودها فيها من الأخطاء الشائعة (ص ١٤٦-١٤٧) :

* بين الفعل الماضي و (أنْ) : سبق وأنْ ذكرنا

* بين خاصة و (أنَّ) :أشك في نزاهة الصحيفة خاصة وأن صاحبها ينتمي إلى الحزب الحاكم

...إلخ

وينتهي د. نهاد إلى "أدلة تقسيم النص" متخذاً من معرفته أن القارئ لا تتأتى له قراءة النص دفعة واحدة أساساً لإفهام الحاسوب متى يقف ، وكيف يقف ، عندما يستنطق النصوص.

ثم نراه يحدد الفاظاً يدلُّنا سياق النص على أنها بداية وحدة لغوية ، وذلك مثل : إلاّ

انَّ، غير انَّ ، بَيْـد انَّ ، كلاً .. وكذلك ، وكذا ، ولا شك ، واخيـراً ، وبالإضافة .. ، وإنّ (إذا لم يسبقها قال) ... إلخ .

ولا نستطيع قطع السياق مثلاً في المواضع التالية (ص : ١٥٠) :

- قبل (أم)
- قبل (حتى)
- قبل (إلاّ) (بعدها اسم)
- بعد (قد)
- بعد (لم)

– ٣ –

نحو تمثيل الإعراب

وقد استقر للدكتور نهاد ان تمثيل الإعـراب للحاسوب ينبـغي أن يقوم على نموذج هيكلي يستنفد أربع مقولات هي (ص : ١٥٨) :

١- نوع الكلمة : إن كانت اسماً أو فعلاً أو حـرفاً ، وما ينبثق من تفصيل كُلٍّ ، فمن الاسم : الضمير واسم الإشارة ، واسم العلم .. إلخ .

٢- الوظيفة : ويقصد بها المعاني النحوية ، أو الوظائف النحوية التي تقوم بها الكلمة في الجملة (أي إعرابها) وذلك مثل : مبتدأ أو خبر او اسم كان أو فاعل .. إلخ .

٣- الحالة الإعرابية : الرفع والنصب والجزم والجر وما يتعلق بها .

٤- علامـة الإعـراب : وتنـتظم هذه المقـولة علامات الإعـراب الأصليـة والفـرعـيـة وعلامات البناء.

فإذا ما فرغ من تقرير هذه المقولات ، بدأ يمثل كل واحدة على حدة ، مستنفداً كل ما يقع تحتها ، فيستوعب تحت الاسم كل ما كان اسماً (مفرداً أو مثنى أو جمع مذكر سالماً .. إلخ) وكذا القول في الفعل والحرف . وفي مقولة الوظيفة النحوية يستوعب الوظائف النحوية المعروفة لنا في تحققات العربية : المبتدأ والخبر والحال والتمييز ... إلخ . ثمَّ يتخذ من الحال والتمييز أنموذجين لتطبيق هذه المقولات الأربع عليهما (ص: ١٦٨-١٩١). كما انه يمثّل من عيار المجرور والمجزوم والمجزوم بحذف حرف العلة والأسماء المنصوبة بالألف .

مَثَلٌ من عيار علامة الجزم بحذف حرف العلة (١٩٣-١٩٤) :

- تكون بحذف الألف - لم يبقَ لنا شيءٌ
- تكون بحذف الواو - لا تدعُ مع الله إلهاً آخر
- تكون بحذف الياء - لمّا يأتِ الشتاء
- تُحْذَفُ من آخر الفعل المضارع المعتل الآخر الواقع بعد :

لم ، لمّا ، لام الأمر، لا الناهية ، أدوات الشرط الجازمة

- تحذف من آخر الفعل المضارع الآخر الواقع في :

جواب الشرط الجازم ، وجواب الطلب

- لا تكون في الفعل الماضي أو فعل الأمر ، أو الاسم أو الحرف.

– ٤ –

نحو تمثيل البنية

وينطلق د. نهاد في رؤيته توصيف أبنية العربية من قُرْب اطّراد أبنية الصرف

ويذر راي البصريين لما يتبعه من تشعبات متعددة .

وقد اراد لتوصيفه أن يتمثل في بُعْدين (ص : ٢١٣) :

الأول : تشكيلي تركيبي (او توليدي كما يختار جُلُّ اللسانيين الحاسوبيين) ، ويتمثل في صوغ الأبنية بادلة او خطوات إجرائية .

الثاني : تحليلي يتمثل في تعيين هذه الأمثلة وتبيين معانيها الصرفية حين ترد في سياق الجملة أو في سياق النص ، ذلك أن تمثيل المعرفة الصرفية يقتضي هذين المطلبين .

وقد اتخذ من توصيف الاسم المنسوب مثالاً يجري عليه انموذجه التطبيقي في توصيف البنية الصرفية . وهو لا يكتفي بالتوصيف الصرفي ، بل يتعداه إلى الضوابط النظمية التي تضبطه ، اي انه يحدد احتمالات المواقع الإعرابية التي يمكن أن يحتلها الاسم المنسوب . من ذلك مثلاً (ص : ٢٢٩ - ٢٣٣) :

- اكثر ما يقع الاسم المنسوب نعتاً   صرَّح الرئيس المصريُّ ...

ضرب العدَّاء رقماً قياسياً ..

- يقع الاسم المنسوب حالاً   عاش سعيدٌ انعزالياً

- يقع الاسم المنسوب خبراً للمبتدأ   لون الثوبورديٌ

الخ.........................

- يكون معرَّفاً بأل بعد اسم معرّف بأل :

المحطة الفضائية، العصر الذهبي، اللسانيات الحاسوبية

العربي ، غير أنه يستدرك على صرف العربية بعض الفوائت التي توقع في اللبس ، وذلك أن فيه أبنيةً تشترك في بنيتها السطحية ولكنها تختلف في دلالتها وفي أبنيتها الصرفية العميقة وذلك مثل :

ظَهَرَ - ظهور (مصدر في : ظهور الإسلام)

ظَهْر - ظهور (جمع في : ظهور الخيل)

ومثله ما يقع في التباس وزن (مُفْتعِل) حين يكون اسم مفعول واسم مكان ...

ثم ينتقل إلى تمثيل توصيف البنية العربية ، ويتخذ تمثيله من المثنى ، فيستدرك نقائص التعريف (الوصف) التقليدي للمثنى ، لأنه مَظنَّة لبس ، كما أن الحاسوب محتاج إلى أدلة غير الأدلة الشكلية لتعرُّف المثنى ، كالعَوْد إلى المعجم والسياق التركيبي ، ومثل هذه الأدلة من مؤلِّفات الكفاية عند العربي .

فالحاسوب لا يستطيع ، بالاعتماد على الوصف التقليدي للمثنى أن يميز : غضبان ، ومكان، وكان ، والصحفيين .. إلخ . لذلك لابد من أدلة أخرى ، فيكون المعجم الذهني (المخزَّن) دليل الحاسوب إلى معرفة الكلمة بعد تجريدها من الألف والنون أو الياء والنون، فإن دلَّ ذلك ، بعد التجريد ، على مفرد مفيد كانت اسماً مثنى ، وإلاّ فليست مثنى .

ومما يلتبس على الحاسوب أيضاً تعرُّف الاسم المثنى المنصوب أو المجرور ، لأنه يختلط بجمع المذكر السالم ، ولا سيما أن معظم النصوص غير مضبوطة بالشكل ، فلا يكون أمامنا إلاّ أنْ نعود إلى (النظم) وعلامات السياق .

وهكذا يمضي د. نهاد حتى يستنفد احتمالات اللبس الممكنة كلِّها إلى كيفية أمن ذلك اللبس.

ثم إنه يتخذ من رأي الكوفيين أن الفعل أصل الاشتقاق منطلقاً للتوليد الصرفي ،

– ٥ –

نحو الدليل على أخطاء النظم والإعراب والبنية

ويقوم هذا الفصل على ما يتمثله د. نهاد في تآليفه الجامعية والمدرسية ، وذلك أنه يذيِّل كل وحدة دراسية بالأخطاء الشائعة التي تَعْرِضُ للطلبة والكَتَبة في موضوعات كل وحدة ، وهو ينطلق من رأي مفاده أن "الكفاية اللغوية في أحد عناصرها تعني تجنُّب الخطأ في أداء صاحبه، وتبين الخطأ في أداء الآخر ، وقد جرى تصنيف المعطيات على وفق الأطر الثلاثة ما أمكنت طبيعة تلك المعطيات، فإنها قد تتمايز وتنحاز إلى مجالها الخالص من النظم أو الإعراب أو البنية ولكنها ، في كثير من الأحيان ، تندغم على نحو يصعب معه إقامة حدود حاسمة" ص (٢٣٥) .

وفيما يلي أمثلة دالّة :

في النظم :

في الجملة الفعلية

- النمط : إفراد الفعل مع فاعله (الجمع)	الغلط : جمع الفعل مع فاعله (الجمع)
● عاد العُمال	★ عادوا العمال
- النمط : نفي المستقبل بـ (لن)	الغلط : نفي المستقبل بـ سوف ولا
● لن تموت الأمة	★ سوف لا تموت الأمة

في الجملة الاسمية

- النمط: تقديم الخبر حين يكون اسماً له الصدارة	الغلط: تاخير الخبر حين يكون اسماً له الصدارة.
● أين أنت ؟	★ أنت أين ؟

في الإعـراب

- النمط : جرّ الأسماء بعد حرف الجر

الغلط :نصب الأسماء بعد حرف الجر

● بعثت بالرسالة كردٍّ على الافتتاحية

⋆ بعثت الرسالة كرداً على الافتتاحية

- النمط : نصب المفعول به

الغلط : تسكين المفعول به

● البحث يتضمّن نقاطاً عديدةً

⋆ البحث يتضمن نقاط عديدة

في النظم والإعراب معاً

- النمط : رفـع اسم كـان وأخـواتهـا إذا تقـدّم خــبـرها شـبـه الجـمـلة (الجـار والمجرور) أو (الظرف)

الغلـط : نصب اسم كـان وأخـواتهـا إذا تقدم خبرها شبه الجملة

● كانت في راسه خطط

⋆ كانت في راسه خططاً

● ليس لديّ حلٌّ

⋆ ليس لديّ حلاً

في البنية

- النمـط : جـعل تاء المخـاطبـة المؤنثـة بالكسرة

الغلط : جعل تاء المخاطبة المؤنثة بالياء

● هل أرسلتِ كتابك للنشر ؟

⋆ هل أرسلتي كتابكِ للنشر ؟

- النمط : إهمال نَفِدَ المراد به الانتهاء

الغلط : إعجام نفِذَ المراد به الانتهاء

● نفدت البضاعة

⋆ نفذت البضاعة

- ٦ -

نحو تمثيل المعجم

والمعجم وهو الذاكرة التي نفيء إليها عندما يلتبس علينا معنى مفردة أو ضبطها ، فيكون مرجعاً لنا حين تضلُّ عنّا الأشياء ، وهو شطر لا يُسْتهان به من مكونات الكفاية اللغوية ويفترق المعجم الذهني الذي نختزنه عن المعجم الموضوع للحاسوب ، فنحن نعتمد على الحدس والسياق والاستعمال في استبعاد بعض الاختيارات المقيسة ولكن الاستعمال يقلل من شانها . اما معجم الحاسوب فينبغي ان يكون متوفراً على هذه المعطيات كلها .

ويذهب د. نهاد في هذه المسالة ، مسألة افتراق الممكن والمستعمل في المعجم العربي إلى "أن المعجم ينبغي انْ ينتظم كل تشكيل لفظي ممكن تسمح به قواعد "وضع" الكلمة في العربية سواء اكان مستعملاً أم لم يكن إلاّ ما لا تسمحُ به القواعد الفونولوجية من تتابع أصوات باعيانها" (ص : ٢٤٨) .

إن المعجم الذي يقصده د. نهاد ليس المعجم العربي الذي وقف عند حدود عصر الاحتجاج، وكنه يتجاوز ذلك إلى معجمات تواكب سيرورة البحث العلمي والإنساني وما انجزه من منجزات استجابت لها اللغة بالفاظ جديدة او بدلالات جديدة ، أكانت هذه الألفاظ مُعَرَّبة ام دخيلة ام مترجمة . وأكثر ما ينبغي الاعتماد عليه معجم الصحافة العربية المعاصرة ، وهو ، لا شك ، معجم مُسْتَوْعِبٌ يتناول قضايا سياسية واجتماعية وثقافية وعلِميّه وتقنية .

"إن تحليل اللغة إلى حد الفهم وتركيب اللغة على مُرْتضى العقل قد جعلا المعجم ضرورة لا مندوحة عنها ، ذلك انَّ جَعْل الحاسوب "يفهم" كما يفهم الإنسان أصبح

يقتضي تزويده بعدة معجمية مفصَّلة" (ص : ٢٥٢) .

ويتهيا للدكتور نهاد ان المعجمات التقليدية تُقَصِّرُ عن طموحات الحوسبة ، لذلك لا بد ان يتخذ المعجم شكلاً مفصلاً يتجاوز المعجمات التقليدية ، ويستدرك عليها إغفالها للسياق والجوانب التطورية لألفاظ اللغة . فقد "كان المعجم مستوى من مستويات النظام اللغوي في الرؤية اللسانية المتعارفة ، ثم اصبح بما هو كتاب أو قُرْص مُدْمَج مَجْمع الأدلة على تحليل اللغة وتركيبها في اللسانيات الحاسوبية ، وأصبح توصيف المفردة المعجمية يقتضي نسقاً من البيانات الدلالية التفصيلية لم يكن الناطقون باللغة محتاجين إلى معظمها لأنها مستفادة بالفطرة والخبرة لديهم ، ولكنها اصبحت مما يقتضيه الحاسوب "خالي الذهن" من ان موسى (في جملة : اكل الكمثرى موسى) إنسان حيّ ياكل وانّ الكمثرى فاكهة تُؤْكَلُ ولا تَأكُلُ . واصبحت بيانات النحو المعجمي الوظيفي سبيلاً إلى تحديد سلوك الكلمة في الجملة" (ص : ٢٥٣) .

ويقتضينا إنشاء المعجم الدلالي او الذهني ، في تقدير د. نهاد :

- نهجاً في ترتيب المواد ، وتاصيلها ، واستيعاب اطوارها في الدلالة عبر الزمن ، وبيان مواردها من اللغات الأخرى .

- ونهجاً في توصيفها الصوتي ، الفونولوجي ، الصرفي ، النظمي ، الإعرابي ، الدلالي.

- وتدبيراً منهجياً ثابتاً في استقبال المفردات الناشئة في صيرورة اللغة ، بمتابعة الاستعمال اللغوي العام ، والفني ، والمتخصص ورصد المفردات والمصطلحات الناجمة أو المستحدثة وسلكها في مواضعها من المعجم المُنْجَز وفاقاً للنهج المتقدم اولاً . (ص:٢٥٥)

ثم يبين العيار الذي ينبغي ان تُوَصَّفَ المفردات وفقاً له .

- ٧ -

نحو تمثيل المنطوق والمكتوب

معلوم أن اللغة تتحقق على هيئتين منطوقة ومكتوبة ، وأن التطابق بينهما ليس تطابقاً مرآوياً، إذ ثَمّ خروقات في التطابق بينهما . ويكتسب ابن اللغة لغته منطوقة أولاً ، ثم يصير بعد ذلك بالتعليم والدربة والمران إلى ربط المنطوق بالمكتوب ، حتى يصير ذلك شطراً من الكفاية اللغوية .

"والناطق باللغة سليقة واكتساباً إنما ينتج الأصوات ويتبيَّنها بما استدخل من أصول وقواعد وخصائص استحكمت لديه عادة وقدرة ، ولكنه ليس عارفاً بتلك الأصول والقواعد والخصائص معرفة وعي يمكنه أن ينبئ عنه من يستخبره . وإنما يتولّى ذلك عنه عالم أصوات العربية" (ص : ٢٦٥) .

وأما تمثيل هذه الأصوات فإنه ينبغي أن يمر بمرحلتين رئيستين هما :

١- تمثيل أصوات اللغة آحاداً ، وذلك بأن نتوقف إلى مستخلصات الصوتيات الأكوستيكية (الفيزيائية) في وصف مخارج الحروف وخصائصها الفيزيائية . غير أن هذا المطلب يُقَصِّرُ عن المطلوب ، لذلك لا بد من

٢- تمثيل الأصوات في سياقاتها البنيوية ، حين تتعرض خصائصها النطقية المجردة للتغيير والتحويل بفضل قوانين المماثلة والمخالفة .. ولا سيما في (ال) الشمسية ووزن (افتعل) ومشتقاته .. إلخ .

"ولكن هذه القواعد الفونولوجية لا تبلغ بالتمثيل حدَّ الكفاية، ذلك أنَّه ستتعذر إقامة الفرق بين (سوط وصوت)، مثلاً. وقد يبلغ اللبس حداً لا يغني فيه استرفاد سائر المستويات.." (ص: ٢٦). ويكون دليلنا إلى ضبط هذه المواقع ، مثلاً ، أن نضع لكل منها

عياراً يضبط مواقع حدوثه بما يفضي إلى أن يتمثل الحاسوب ذلك فيعرفه ويدل عليه.

ثم تكون الكفاية اللغوية لمتكلم اللغة العربية دليله إلى معرفة الصواب وردّ الخطا ، إذ إنه يستدخل طائفة من المعطيات والمحددات وصور الكلم التي تصبح مرجعاً له في قبول ما يرتضيه ذلك المرجع وتصحيح ما لا يرتضيه ذلك المرجع . وهكذا "يكتشف الشادي في معرفة العربية أن (رصوان) ، مثلاً قد وقع في رسمه خطا إذا هو قرأ : مستشفى الدكتور رصوان يكتشف ذلك في ثانية أو ما دونها ، فيقدر أو يقرر أن الصواب هو (رضوان) في ثانية أو ما دونها ، ولعله يكتشف الخطا ويقدر صوابه في آن معاً" (ص : ٢٧٢) .

ثم يكون المعجم أظهر أدلة التصحيح الإملائي ، بما قد دُوِّنَ فيه من هيئات رسم الكلمات، ولكنه يظل دليلاً منقوصاً . لذلك يفزع د. نهاد إلى دليل صوتي محدد يتمثل في بيان عن احتمالات تشكيل الكلم وفقاً لقوانين الأصوات العربية (قيود التتابع) . ويصبح وضع جدول التتابع غير الممكن بين أصوات (الحروف) أداة إضافية ضرورية . ولكنه يظل دليلاً مقتصراً على الكلمة المفردة ، لذلك لا بد من التنبُّه لما لا يجوز تتابعه في الكلمة المفردة ولكنه يقع في كلمتين متتابعتين.

ثم إن أخطاء الطباعة قد تربك الحاسوب فلا يستطيع حين يَرُدُّ الكلمة إلى المعجم ، تعرُّف معناها أو وظيفتها . وكذا القول في أخطاء الفصل والوصل . ومن أمثلة ذلك ما ورد في المطبوع من جملة في ترجمة المهلهل ، كانت في أصل القصد : ثم انصرف إلى اللهو .. فاصبحت : ثم انصرف إلى الله و ... (ص : ٢٧٤) .

وكذا القول في : سمع بمعنى ، إذ تصير : سمعبمعنى ، فلا يدركها الحاسوب ،

لافتقار معجمه إليها . كما ينبّه إلى الأخطاء الشائعة في رسم العربية ، ولا سيما كتابة الهمزات .

وهكذا يستلزم التصحيح الإملائي منظومة من الأدلة تعزز منطلق هذا البحث في أطروحة "الاعتماد المتبادل" أن تصحيح الخطأ في كتابة هذه الجملة :

هل أستطيع التحدث معها على انفردا ؟

تقتضـي :

- مرجعاً من "الأنماط التلازمية" أو النظم يهدي إلى أن التحدث وعلى انفراد يتلازمان تلازم نمط تركيبي محفوظ .

- ومرجعاً من النحو يتمثل في معرفة أحكام حروف الجر في اختصاصها بالدخول على الأسماء .

- ومرجعاً من الصرف يهدي إلى تحليل (انفردا) وأنها فعل مزيد بهمزة ونون لحقته ألف الاثنين .

- ودليلاً صوتياً معجمياً من البحث عن (الأبدال) يتمثل في تقليب (انفردا) على وجوهها الممكنة :

* انفردا ، وتحليلها وردها لى (فدر) حيث لا تكون في المعجم .

* اندرف ، ارفند ، اردفن ، ارفدن ، وحالها حال سابقتها .

* انرفد ، وردها إلى رفد ، إذ توجد في المعجم ولكن التشكيل الصوتي للعربية يأبى لحاق الراء للنون هنا .. إلخ (ص: ٢٧٦-٢٧٧) .

أما تمثيل المكتوب بالمقروء (القراءة) فإنه يواجه مشكلات أهمها خلو النص العربي من الضبط ، وعدم التطابق بين المنطوق والمكتوب في مثل (عُدْتُ) . ولعل تزويد

الحاسوب بمعجم منطوق يكون دليلاً إلى تجاوز هذه الإشكالات .

ثم يذيل كتابه بفوائت تعترض تمام التوصيف على صورته المثالية التي تضارع الملكة اللغوية للعربي . وهذه الفوائت هي : اللبس - تحولات المجاز - فضاء النص - صيرورة المعجم.

أما اللبس فإنه من نواميس اللغات جميعاً ، ومنها العربية ، وهو ما يزال يمثل مشكلة عالقة في العربية ، ولا سيما أن معظم ألفاظ النص الواحد غير مشكولة ، ولذلك فإننا محتاجون إلى القرائن السياقية لدفع اللبس ، والاتكاء على أدلة "الاعتماد المتبادل" .

ومن ذلك أن سياق المقال الداخلي يكون دليلاً إلى دفع اللبس ، كما في الأمثلة التالية (ص: ٢٨٢) :

- وفي : الدواء السائل أسلم للأطفال .. يكون (السائل) اسم فاعل من (سال) .
- وفي : "والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .. يكون (السائل) اسم فاعل (من سال) .
- وفي : سائلِ العليا عنّا .. تكون (سائل) فعل أمر .

ولكن أدلة السياق تقصّر عن بلوغ المرام أحياناً كثيرة ، مما يقتضينا الانتقال إلى سياق أوسع من الاقتران النحوي المباشر ، وأدلة الاعتماد المتبادل .

أما تحولات المجاز فإنه معلوم أن ألفاظ اللغة تنتقل بين الحقيقة والمجاز ، حتى صار المجاز شطراً لا يستهان به من ألفاظ اللغة ، بل إن كثيراً منه قد رقي إلى مرتبة الحقيقة ، وأكثر ما تكون التحولات المجازية في لغة الشعر والأدب . فكيف للحاسوب أن يسد فجوة الميز بين الحقيقي والمجازي ؟ ولعل المعجم السياقي يكون دليلاً إلى تعرُّف الاستخدامات الحقيقية والمجازية ، وإن كان يظل مقصِّراً عن الطموح .

ثم إننا قد نحتاج إلى أدلة ظرفية من خارج النص تشبه ما يكون للقصيدة من مناسبة أو سيرة الشاعر أو صدر خبر ؛ إذ تكون أدلة مفتاحية لربط الجملة بسياقها الخارجي ، وإذا كان الإنسان يحتاج إلى ذلك ، فالحاسوب إلى ذلك أحوج .

واللغة دائمة التطور والنمو ، وهي تستدخل في نظامها كثيراً من الألفاظ والمعاني الجديدة التي أنجزتها الحضارة الحديثة ، وهكذا تبقى حال اللغة متنقلة متغيرة ، فتتمايز استعمالات الألفاظ والتراكيب الجُمْلية والأنماط اللغوية ، ولذلك فإن "برنامجاً منهجياً في متابعة المستحدث من الألفاظ على نحو لا يضير نقاء العربية يظل مطلباً أساسياً أجْلَ استيعاب العربية في الحاسوب أو تمام توصيفها" (ص : ٢٧٦) .

ويظل مثل هذا المعجم محتاجاً إلى أدلة من الكتب التي تدل على الدخيل والمعرَّب ومعاجم السياق . وذلك أن "ضبط تحولات اللغة وعلائق الكلم وأسرار النظم وأصول البيان والتعمية ونكت البلاغة وفرادة الأساليب تمثل غاية النهاية في توصيف اللغة وتمثيلها للحاسوب" (ص : ٢٨٧) .

وهكذا نستطيع استثمار معطيات البلاغة والأسلوبية والنقد الحديث في توصيف مثل هذه الاستعمالات .

* * *

أما وقد عرضت ما جاء في الكتاب ، فإنه حريٌّ بي أن أشير إلى بعض الملاحظ العامة في المادة والمنهج .

وأول ما يكون من هذه الملاحظ أن الكتاب يتكئ على "صدق" علمي كبير ، يتمثل في استيعابه معطيات الموضوع من جوانبه المنهجية والمضمونية ؛ وبيان ذلك أن منهجه مؤسس على ضبط المصطلح العلمي الذي يتداوله ، ومشهود للدكتور نهاد بذلك في

أعماله كلها ، بما لا يكون معه أي احتمال للغموض واللبس . وغير خاف على احد ما لقيمة هذه المزية في مشهد علمي تعمه فوضى المصطلحات ، وقلة ضبط سيرورتها.

ثم إنه ، في توصيفه العربية يأتي على أنظمتها الفرعية كلها متنبهاً إلى قوانينها الداخلية التي تضبطها وتسير حركتها ، إذ لا يكتفي بوصف "البنية السطحية" بل يغور في أعماقها ليستبطن العمق الخبيء فيها غير ماخوذ بالظاهر حسب ، وهذا شان اللغوي المتمرس .

فإذا ما فرغ من استيعاب مفردات موضوعه ، أتبعه بما ينبغي أن يقوم عليه نظام العربية، حين يتفطن إلى تعالق المستويات اللغوية وعدم انفصامها ، فإذا ما عَرَض للوظائف النحوية لم يفته أن البنية الصرفية تتدخل في ضبط الوظيفة النحوية وتحديدها، ومَثَلُ ذلك أن إقامة الفرق بين "الحال" و "الصفة" يكون بالتعريف والتنكير .

ثم إن من مقتضيات التوصيف، وهو يرمي إلى البلوغ بالحاسوب مَبْلغَ الإنسان، أن يُؤْخذ بالعناصر السياقية ومقتياضاتها؛ إن كانت سياقات لغوية بحتة ، أو سياقات ظرفية ، كمناسبة قصيدة، أو حال الشاعر عند قول القصيدة .. ويكون من ضرورات ذلك أن يستدخل الحاسوب النظم العرفية الاجتماعية واللغوية العربية ، وهي من مبادئ الكفاية بالعربية . فإذا ما أَدْخَل "د. نهاد" هذه الكفاية اللغوية في الحاسوب ، حاول أن يختبر تلك الكفاية باستكمال متطلباتها من مَيْز الصواب من الخطأ ، ليؤهل بعد ذلك للتواصل مع الناطقين بالعربية، أن تتوافر له شروط الكفاية التواصلية المعروفة .

وثالث هذه الملاحظ انه يستوعب الاحتمالات كلها ، ولو كان ذلك في مثال واحد

لا غير ، فهو يستقصي كل ما يمكن ان يمرَّ بالحاسوب من احوال الموضوع الموصَف ، فيكون ذلك تفطناً مُسَبَّقاً لما قد يعرض للحاسوب .

وكل ذلك يجري ببيان مُشْرقٍ واداء لغوي رشيق عُرف به د. نهاد في كتاباته كلها ، حتى ليصحَّ معه ان يقال : إن له اسلوباً بحثياً وادبياً يستقل به دون غيره ، كان له تاثيره في طلبته بالدراسات العليا .

دور المعلومات المحاسبية المنشورة في التنبؤ بأسعار الأسهم في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية: دراسة تطبيقية

د. خليل أبو حشيش

جامعة البترا - كلية العلوم الإدارية والمالية

ملخص

هدف البحث بشكل رئيس إلى تحديد أهم المتغيرات التي تؤثر على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية، ودور القوائم المالية في ذلك. ولتحقيق هذا الهدف فقد قام الباحث باختبار عشرين متغيرا مستقلا يعتقد أنها تؤثر على القيمة السوقية للأوراق المالية وقام بقياس معاملات الارتباط بين ١٥ متغيرا من هذه المتغيرات وبين سعر السهم في بورصة الأوراق المالية باعتباره متغيرا تابعا واستبعد المتغيرات الباقية لعدم توفر بياناتها . وقد اتضح نتيجة التحليل ان سعر السهم في بورصة الأوراق المالية يرتبط طرديا مع عائد السهم بمعامل ارتباط (٠,٨٤٣٢) ومع صافي الربح؛ حقوق الملكية (٠,٣٧٥١) ومع صافي الربح ؛إجمالي الأصول (٢٦٣٥,٠) ومع صافي الربح؛ إيرادات النشاط العادي (١٣٢,٠) ومع صافي التدفقات النقدية؛ إجمالي الأصول (٠,١١) ومع صافي الربح الموزع؛ صافي الربح المحقق (٠,٥٨١) ومع إنتاجية واحد دينار أجر (٠,٤٩١) ومع حقوق الملكية ؛إجمالي مصادر الأموال (٠,٦٩٢) ومع نسبة التداول (٠,٢٣١) ومع نسبة الفوائد؛إجمالي المصروفات (٠,٤٤٥) ومع القيمة السوقية ؛ القيمة الدفترية (٢٣٧,٠). كما أنه يرتبط عكسيا مع الأصول الثابتة؛إجمالي الأصول بمعامل ارتباط (٠,٣٧٨) ومع إجمالي الدائنين؛إجمالي مصادر الأموال (٠,٤٥٦) ومع نسبة الأجور ؛إجمالي المصروفات (٠,٢٦) .

كما وجد الباحث ان هناك خمسة متغيرات من المتغيرات المستقلة تربطها علاقة معنوية مع سعر السهم في السوق بمعدل ارتباط قدره (٠,٩٨٦٧٨) وهذه المتغيرات هي؛ عائد السهم والقيمة السوقية؛القيمة الدفترية وحقوق الملكية ؛ إجمالي مصادر الأموال والربح الموزع؛ الربح المحقق وصافي الربح ؛ إجمالي الأصول.

The Role of the Disclosed Financial Statements in Estimating the Share's Price of the Companies Enrolled in Amman Financial Market: An Applied Study

Dr. Khalil Abu Hashish
University of Petra

ABSTRACT

Accounting is concerned with providing information to decision-makers. An investor uses the accounting information to evaluate a company. Should he buy stock of this company. What are expected dividends? How risky is the company? How competitive has management been in products, prices and costs? The problem of this study is how can he measure the share's price of a company from the disclosed annual reports.

The main purpose of this research is to determine the variables that influence the company share's price then to build up an accounting model with which the investors can measure the share price easily and objectively.

The dependent variable of this study is the "**company share's price**". While the independent variables that influence it are: net profit/ owner's equity, net profit/total assets, net profit/operation revenue, net cash flow/total assets, dividends/net realized profit, one dinar productivity, owner's equity/total liability, current ratio, interests/total expenses, market value/book value, fixed assets/total assets, wages/total expenses, earning per share, management efficiency, the expected net profit, the actual net profit/the expected profit, and intangible assets/total assets.

Among the results that have been deduced are:

* There is a positive relationship between the company share's price and earning per share, net cash flow/total assets, net profit/owner's equity, net profit/total assets, net profit/ operation revenue, dividends/ net realized profit, one dinar productibity, owner's equity/ total liability, current ratio, interests/ total expenses and market value/book value.
* There is a negative relationship between the company share's price and fixed assets/ total assets, and wages/total expenses.
* The most important variable that influence company share's price with a correlation coefficient equals 0.98678. are earning per share, net profit/ total assets, dividends/net-realized profit, owner's equity/total liability, and market value/ book value.

١ . مقدمة ومشكلة البحث

يمكن النظر إلى بورصة الأوراق المالية على أنها تنظيم يتم من خلاله التقاء العرض بالطلب للتعامل بأوراق مالية معينة تتوافر فيها شروط محددة وفقا لقواعد ونظم معينة تهدف إلى وضع هذا التعامل على اسس سليمة ، بما يفيد أن بورصة الأوراق المالية هي السوق التي يتم فيها بيع وشراء جميع الأوراق المالية سواء أكانت أسهما وسندات أم أذون خزانة أو غيرها. وهي، أي السوق، إذ تقوم بذلك فإنها لا تقوم بعملية الشراء والبيع لنفسها ، وإنما توفر المناخ المناسب لعمليات الشراء والبيع للآخرين . والسوق بهذه المعنى تمثل المصدر الرئيسي الذي يلجأ إليه رجال الأعمال للحصول على مدخرات الأفراد الذين تتوافر لديهم الأموال والمدخرات النقدية ولكن لا تتوافر لديهم الخبرة الكافية لاستثمار هذه الأموال . وهي بذلك تؤدي دورا مهما وأساسيا في عملية التنمية الاقتصادية حيث تقوم بتوفير الأموال اللازمة لعمليات الاستثمار الهامة التي تتم في الدولة خلال فترة مالية معينة .

ولكي تستطيع الأسواق المالية القيام بدورها يجب أن تكون على درجة عالية من الكفاءة والفعالية ، وأحد أهم الأركان التي ترتكز عليها كفاءة السوق المالي هو وجود نظام فعال للمعلومات تتدفق من خلاله المعلومات المناسبة ، في الأوقات المناسبة وبالتكلفة المناسبة ، ليتمكن المستثمرين من اختيار افضل البدائل المتاحة للاستثمار بالسعر المناسب . فالمعلومات تعتبر أحد مقومات المستثمر الرئيسة عند اتخاذ قراره . بمعنى أن المعلومات تمثل الأساس الذي سيبني عليه المستثمر جميع قراراته الاستثمارية المتاحة في السوق والمتاجرة فيها ويحدد في ضوئها الفترة الزمنية اللازمة للاحتفاظ بكل بديل .

لذلك نجد أن الأسواق المالية العالمية تعطي اهمية كبرى لإعداد المعلومات والبيانات المالية ومن ثم نشرها بصفة دورية للمستثمرين لدرجة أنها اصدرت قوانين تلزم الشركات بإصدار هذه البيانات والإفصاح عنها في أوقات محددة من السنة. ويعود السبب في ذلك ليس لان المعلومات المحاسبية تعتبر المصدر الأساسي في وضع أو إنشاء أو تركيب هيكل الأسعار النسبي للأوراق المالية فحسب، بل لان التقارير المالية التي تنشرها الشركات المختلفة في بورصة الأوراق المالية تؤدي دورا اساسيا في تلك البورصة حيث تقوم بتوفير المعلومات الأساسية التي يجب ان يعتمد عليها المستثمر في تحديد اسعار الأسهم على اساس سليم . فالتقارير المالية يمكن أن تستخدم في تقييم اداء الشركات المسجلة في سوق الأوراق المالية تقييما دقيقا وبالتالي فإنها تمكن من تحديد السعر المناسب للأوراق المالية الخاصة بهذه الشركات.

ومن هنا فقد اشار Cochran & Defina 1995 (١) إلى ان الدراسات السابقة أوضحت ان اسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية في فترات مقبلة يمكن التنبؤ بها. وقد اضاف صلاح زين الدين (١٩٩٤)(٢) بان المعلومات المحاسبية تعتبر المصدر الأساسي في وضع أو إنشاء أو تركيب هيكل الأسعار النسبي للأوراق المالية، وقد اوضح Mitchell, Reid & Terry (1995) (٣) ان القوائم المالية المطلوبة لتحقيق هذا الغرض هي قائمة المركز المالي وقائمة الدخل وقائمة التدفقات النقدية . على حين اوضحت الدراسة التي قام بها Deitrich (1981) (٤) في الولايات المتحدة الأمريكية بهدف تقويم دور التقارير المالية السنوية الصادرة عن الشركات المساهمة كمصدر للمعلومات بالنسبة لمحللي الائتمان ان تلك القوائم قد احتلت المركز الثاني ضمن مصادر المعلومات المتاحة . وقد احتلت تلك القوائم المركز الأول في الدراسة التي اجراها

Anderson (1981) [5] بهدف استكشاف مدى اعتماد المستثمرين مـــن فئة المؤسسات Institutional - Investors على البيانات المالية وغير المالية التي تحتويها التقارير المالية السنوية للشركات المساهمة العامة البريطانية وقد أوضحت تلك الدراسة أن قائمة الدخل قد احتلت المركز الأول من بين تلك القوائم . أما دراسة Day (1986) [6] التي اجراها على عينة من المحللين الماليين المتخصصين والمستثمرين العاديين بهدف الوقوف على مدى استفادتهم من المعلومات المالية التي تحويها التقارير المالية السنوية فقد كشفت عن أن المستثمرين أو ستشاريهم يجدون في التقارير المالية السنوية مجرد مصدر من عدة مصادر للمعلومات يستخدمونها في اتخاذ قراراتهم كما كشفت عن أن متخذي قرارات الاستثمار عموما يولون أهمية قصوى لتقرير مجلس الإدارة نظرا لما يحتويه من معلومات (مالية وغير مالية) تتعلق بمستقبل الشركة . أما الدراسة التي قام بها مطر(١٩٨٨) [٧] التي هدفت إلى استكشاف الأهمية النسبية للبيانات المالية المدققة الصادرة عن الشركات المساهمة بدولة الكويت كمصدر للمعلومات المناسبة لاتخاذ القرارات من وجهة نظر المستثمرين والمقرضين فقد كشفت عن وجود خلاف جوهري في وجهات نظر المستثمرين والمقرضين تجاه الأهمية النسبية للقوائم المالية المدققة وبنود المعلومات التي تحويها هذه القوائم .

ونظرا لان المعلومات التي تتضمنها القوائم المالية تمثل دالة لاحتـيـــاجات المستثمرين لوضع قيم لأسعار الأوراق المالية Measurement، وفي توصيل المعلومات المالية Disclosure، فقد بينت دراسة Thomas & Keith (1986) [٨] أن احتياجات هؤلاء المستثمرين تتمثل في معرفة أساليب القياس المتبعة في قياس قيم البنود التي تحويها القوائم المالية وفي كيفية عرض هذه البنود أو الإفصاح عنها في تلك القوائم .

إذ ربما تتفق فئتان من مستخدمي البيانات المالية المدققة على أن أسلوب التكلفة التاريخية هو الأسلوب المناسب لقياس قيمة بند المخزون السلعي لشركة صناعية مساهمة لكنهما يختلفان في الوقت نفسه حول مدى الفائدة المحققة من إظهار مكونات هذا المخزون مفصلة في الميزانية أو حول مدى أهمية الإفصاح عن الأسلوب المتبع في تقويم هذا المخزون . وهذا يعني أن أي فئتين من مستخدمي البيانات المالية قد تتفق احتياجاتهما للمعلومات من زاوية القياس بينما تختلف من زاوية الإفصاح .

وبما يفيد أن تحديد السعر المناسب لغايات تحديد مجالات الاستثمار ، يتطلب أن يقوم المستثمر بتحليل القوائم المالية تحليلا دقيقا حتى يتمكن من اختيار افضل مجالات الاستثمار من وجهة نظره . ونظرا لان اغلب المستثمرين لا تتوافر لديهم الكفاءة والخبرة لتحليل القوائم المالية ، إضافة إلى أن بعضهم قد لا يتوافر لديهم الوقت المناسب لتحليل تلك القوائم ،فان أسعار الأوراق المالية الفعلية تكون غالبا اكثر من قيمتها الحقيقية . وقد أكد ذلك Partnership Development Project (1996) حين بين أن أسعار الأسهم الفعلية في سوق الأوراق المالية المصرية أعلى من الأسعار الحقيقية في اغلب الأحوال ، ويرجع ذلك إلى زيادة الطلب عن العرض ، فشركات قطاع الأعمال التي تطرح أسهمها في سوق الأوراق المالية تطرح فقط ما يعادل ١٠٪ من أسهمها للبيع في المرة الواحدة ، وهذا يؤدي إلى انخفاض حجم العرض عن الطلب ، مما يؤدي إلى زيادة الأسعار الفعلية عن الأسعار الحقيقية للأسهم الصادرة في سوق الأوراق المالية . وفي هذه الحالة يتوجب على المستثمرين الاعتماد اعتمادا كبيرا على المحللين الماليين الذين ينبغي أن يقوموا بتحليل القوائم المالية الخاصة بالشركات التي تتداول أوراقها في البورصة لتحديد افضل مجالات الاستثمار التي يجب أن توجه إليها أموال المستثمرين .

بمعنى أن المحلل المالي يؤدي دورا رئيسيا في عملية تحويل المعلومات المحاسبية إلى المستثمرين وفي تحديد الأسعار المناسبة للأوراق المالية [١٠].

وبالإضافة إلى ما سبق فان ندى(١٩٩٧) [١١] يرى ان من الأسباب الرئيسية لزيادة الأسعار الفعلية عن الأسعار الحقيقية للأسهم في سوق الأوراق المالية يرجع إلى حد كبير إلى محدودية البيانات والمعلومات المحاسبية التي يتم عرضها في القوائم المالية التي يتم إعدادها في نهاية كل سنة مالية ، مما يؤدي إلى عدم قدرة المستثمرين على التقييم الدقيق للوحدات الاقتصادية التي يرغبون في شراء أسهمها . ويؤيد هذا الراي Rippington & Taffler (1995) [١٢] عندما قالا أن التقارير المالية السنوية توفر معلومات محدودة جدا للمستثمرين ، مما يؤدي إلى عدم قدرة المستثمرين على الاعتماد على هذه المعلومات في تقييم أسعار الأسهم في بورصة الأوراق المالية ، وهذا قد يؤدي إلى قيام المستثمرين بتقييم الأسهم باسعار تزيد عن الأسعار الحقيقية .

وبناء على ما سبق فهل أسعار الأسهم الفعلية للمنشآت التي يتم تداول أوراقها المالية في بورصة عمان تمثل الأسعار الحقيقية لتلك الأوراق ؟ وهل المعلومات المحاسبية في سوق الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية كافية للحد الذي يمكن أن يعتمد عليها المستثمرون في تقييم أداء الوحدات الاقتصادية وبالتالي تحديد اسعار أسهمها ؟ ثم هل يعتمد سعر السهم في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية على القوائم المالية التي تعبر إلى حد كبير على الأداء المالي والاقتصادي ؟ أم أن هناك عوامل أخرى تؤثر على أسعار الأسهم؟ وهذا ما سيتناوله الباحث في الأجزاء التالية من البحث.

٢ـ الهدف من البحث

يهدف البحث إلى :

١ ـ تحديد اهم المتغيرات المستقلة التي يفترض انها تؤثر على أسعار الأسهم في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية .

٢ ـ تحديد معاملات الارتباط بين أسعار الأسهم من ناحية وبين المتغيرات المستقلة من ناحية أخرى .

٣ ـ إعداد نموذج كمي يمكن الاعتماد عليه في تحديد سعر السهم الحقيقي في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية .

٤ ـ تحديد المتغيرات المستقلة التي يجب أن تظهر في القوائم المالية الخاصة بالوحدات الاقتصادية التي تصدر أسهمها في سوق الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية .

٣ـ أهمية البحث

ترجع اهمية البحث للأسباب التالية :

١ ـ إن بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية بدات تزاول نشاطها بشكل فعال في بداية التسعينات ، وهي لذلك ما زالت تعاني من العديد من المشكلات التي قد تعيقها عن تحقيق أهدافها. وعلى راس هذه المشكلات عدم وجود تشريعات كافية تمكنها من تنظيم اعمالها. وقد نتج عن هذه المشكلة عدم قدرة البورصة على إلزام المؤسسات الاقتصادية بنشر التقارير المالية والإحصاءات والنسب المالية التي ترى ضرورتها لتفعيل اعمالها إضافة إلى عدم وضوح حاجة مستخدم بيانات البورصة من المعلومات التي تفعل دور البورصة في تنشيط الاقتصاد ، مما يعني أنها مازالت بحاجة

إلى العديد من البحث لمعالجة هذه المشكلات . وهذا البحث يعتبر أحد الأبحاث الضرورية التي تعتبر من الوسائل المهمة التي يمكن الاعتماد عليها في معالجة مشكلة رئيسة من المشاكل الخاصة بسوق الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية وهي مشكلة تسعير الأسهم . وهذا يوضح أيضا مدى أهمية هذا البحث .

٢ - يمكن أن يستفيد من نتائج هذا البحث جميع المتعاملين في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية وهم :

* المستثمرين الذين يقومون بشراء الأسهم من بورصة الأوراق المالية .

* أعضاء مجالس إدارة الوحدات الاقتصادية التي تصدر أسهمها في سوق الأوراق المالية .

* المسؤولين عن بورصة الأوراق المالية . وهذا يوضح أيضا مدى أهمية هذا البحث .

٣ - الزيادة المستمرة في أعداد الوحدات الاقتصادية المسجلة في بورصة الأوراق المالية، والزيادة المستمرة في أعداد المستثمرين الذين يقومون بشراء الأسهم ، يؤدي إلى الزيادة في أهمية البحث .

٤ - إن عدد الأبحاث التطبيقية السابقة في مجال تسعير الأسهم في سوق الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية يعتبر محدودا للغاية ، لذلك يعتبر هذا البحث بحثا إضافيا في مجال لا يزال يعاني من ندرة الأبحاث التي تتناوله بالدراسة ، وهذا يوضح أيضا مدى أهمية هذا البحث .

٤ ـ أسلوب البحث

٤-١ اختيار العينة

أ ـ لاختيار العينة قام الباحث بالاعتماد على النشرة الاقتصادية الشهرية التي تصدرها بورصة عمان للحصول على أسعار الأسهم الصادرة في سوق الأوراق المالية . وقد اختار لهذا البحث (٤٠) شركة من الشركات المساهمة المدرجة في بورصة عمان وكانت هذه الشركات موزعة على النحو التالي :

- الشركات العشر الأكثر تداولا في بورصة عمان .
- الشركات العشر الأكبر قيمة من حيث القيمة السوقية .
- الشركات العشر الأكثر ارتفاعا في أسعار أسهمها .
- الشركات العشر الأكثر انخفاضا في أسعار أسهمها .

ب ـ اعتمد الباحث على المعلومات المالية والإحصائية التي تتضمنها النشرة الإحصائية الشهرية التي تعدها بورصة الأوراق المالية في عمان وخاصة البيانات المتعلقة بعام ١٠٠٢ ،ذلك لان هذه النشرة تصدر دوريا وبمعدل كل شهر مرة وبما يفيد أن آثار المعلومات التي تتضمنها هذه النشرة تنعكس وتؤثر على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية .

ج ـ بالإطلاع على النشرة الاقتصادية الشهرية التي تصدر عن بورصة عمان وجد ان عدد الوحدات الاقتصادية المسجلة فيها والتي تقوم ببيع أسهمها بالعملة المحلية هو ١٦٣ وحدة مقسمة إلى اربعة قطاعات رئيسة هي :

١ ـ قطاع البنوك : وبلغ عدد الشركات في هذا القطاع ١٧ شركة .

٢ ـ قطاع التامين : وبلغ عدد الشركات في هذا القطاع ٢٥ شركة .

٣ ـ قطاع الخدمات : وبلغ عدد الشركات في هذا القطاع ٤٤ شركة .

٤ ـ قطاع الصناعة : وبلغ عدد الشركات في هذا القطاع ٧٧ شركة منها ٧ شركات أسهمها موقوفة عن التداول .

د ـ يمثل العدد (عينة البحث) الذي تم اختياره بتنوع مفرداته وشموليته ٢٥٪ من إجمالي عدد الوحدات المسجلة في البورصة وهذه النسبة يراها الباحث مناسبة جدا لموضوع البحث ويمكن تعميم نتائجها على جميع الوحدات المسجلة في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية . وباختيار الباحث نسبة من القطاعات السابقة فان عينة البحث تكون ممثلة لكل قطاع من القطاعات السابقة .

٤-٢- تجميع البيانات :

قام الباحث بتجميع التقارير المالية الخاصة بالوحدات الاقتصادية محل البحث بالاعتماد على المصادر التالية :

١ ـ التقارير المالية المعدة بواسطة الوحدات الاقتصادية التي تم اختيارها .

٢ ـ التقارير المالية الخاصة ببعض الوحدات الاقتصادية المنشورة في الصحف المالية .

٣ ـ التقارير المالية الخاصة ببعض الوحدات الاقتصادية المنشورة في النشرة الإحصائية الشهرية لبورصة عمان في أعدادها المختلفة .

٤ ـ التقارير الإحصائية التي تنشرها دائرة الإحصاءات العامة .

وقد تم الاعتماد على المصدر الثالث والرابع لاستكمال البيانات التي لم يتمكن الباحث من الحصول عليها من الوحدات الاقتصادية نفسها .

٤-٣- تحليل النتائج

لقد اتبعت المنهجية التالية لتحليل النتائج :

- قام الباحث بتقسيم متغيرات البحث إلى متغيرات مستقلة ومتغيرات تابعة . والمتغير التابع هو أسعار أسهم الوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث ، أما المتغيرات المستقلة فهي المتغيرات التي يفترض الباحث أنها تؤثر على أسعار أسهم الوحدات الاقتصادية ، وهذه المتغيرات سيتم دراستها بالتفصيل في أحد الأجزاء التالية من البحث .

- قام الباحث بافتراض علاقات مختلفة بين المتغير التابع من جهة وبين المتغيرات المستقلة من جهة أخرى (فرضيات البحث) .

- لدراسة مدى صحة هذه الفرضيات قام الباحث بقياس متغيرات البحث بالأسلوب الذي سيتم تحديده فيما بعد . ثم قام بإدخال هذه المتغيرات إلى الحاسب الآلي . ولتحليل البيانات فقد تم استخدام البرنامج الإحصائي *SPSS* ويعود السبب في ذلك إلى ما يتيحه هذا البرنامج من إجراء تحليلات متعددة ومفيدة في مجال البحث .

- لقد حاول الباحث التنويع في أسلوب تحليل البيانات لتحقيق أهداف البحث لذلك فقد تم استخدام المقاييس والاختبارات الإحصائية التالية :

١ ـ مقاييس النزعة المركزية لتلخيص وعرض البيانات الإحصائية المتاحة في التقارير السنوية الصادرة عن الوحدات الاقتصادية المدرجة في بورصة الأوراق المالية لإدخالها إلى الحاسب الآلي .

٢ ـ معامل ارتباط بيرسون .

٣ ـ إحصاء (ت) لاختبار معنوية معاملات الارتباط .

٤ ـ نموذج الانحدار المتعدد كأسلوب إحصائي يفيد في ترتيب الأولويات وإظهار الأهمية النسبية لعناصر متغيرات البحث المختلفة التي تؤثر على أسعار اسهم الوحدات الاقتصادية.

٥ ـ إحصاء (ف) لاختبار معنوية المتغيرات التي تظهر في معادلة الانحدار .

ولقد تم استخدام مستوى معنوية ٠,٠٥ كرقم ثابت في جميع اختبارات فرضيات البحث لتوحيد عملية المقارنة عند قبول أو رفض هذه الفرضيات .

٥ ـ محددات البحث .

يعاني البحث من المحددات التالية :

أ ـ لم يتمكن الباحث من الحصول على قائمة التدفقات النقدية لأغلب الوحدات الاقتصادية التي تمثل عينة البحث ، لذلك فضل قياس صافي التدفقات النقدية باستخدام الأسلوب التقليدي ،الذي يعتمد على المعادل التالية : صافي التدفقات النقدية = صافي الربح + الإهتلاك

وقد استخدم هذا الأسلوب لجميع الوحدات الاقتصادية سواء كان يتوافر لها قائمة تدفقات نقدية ام لا، وذلك بغرض توحيد أساس القياس في جميع الوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث.

ب ـ إن القوائم المالية لبعض الوحدات الاقتصادية التي حصل عليها الباحث لم تمكنه من قياس بعض المتغيرات المستقلة لذلك قرر استبعاد هذه المتغيرات من الدراسة .ومن هذه المتغيرات كفاءة الإدارة ، والأصول غير الملموسة:إجمالي الأصول ،وصافي الربح المتوقع ،والربح الفعلي: الربح التقديري .

ج ـ لم يتمكن الباحث من الحصول على أغلب الموازنات التخطيطية الخاصة بالوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث لذلك قرر استبعاد النسب التي تعتمد على هذه الموازنات من متغيرات البحث .

٦ ـ متغيرات البحث وفرضيات البحث .

قام الباحث في هذا الجزء من البحث بتحديد المتغيرات الخاضعة للدراسة سواء كانت متغيرات مستقلة أم متغيرات تابعة ، وطرق قياس كل منها ، في ضوء البيانات المتاحة ثم قام في ضوء العلاقات التي تربط هذه المتغيرات بتحديد فرضيات البحث .

٦-١- المتغير التابع : أسعار أسهم الوحدات الاقتصادية (ي) .

يرى الباحث أن المتغير التابع يمثل أسعار الأسهم الشهرية في سوق الأوراق المالية . وقد تم الحصول على أسعار الأسهم الشهرية للوحدات الاقتصادية التي تم اختيارها في عينة البحث من النشرة الإحصائية الشهرية التي تصدر عن بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية .

٦-٢- المتغيرات المستقلة .

إن التفاوت الحاصل في أسعار اسهم الوحدات الاقتصادية وتباينها من فترة لأخرى جاء انعكاسا لمجموعة متغيرات مستقلة سيتناولها الباحث تاليا بنوع من التفصيل:

٦-٢-١ القيمة الاسمية للسهم (س١): إن القيمة الاسمية للسهم تعتبر من المتغيرات التي تؤثر على سعره في السوق وذلك على اعتبار أن إدارة الوحدة الاقتصادية تقوم عادة بتقويم أصولها تقويما دقيقا قبل تحديد القيمة الاسمية للأسهم التي ترغب في

إصدارها ، ويرى الباحث انه كلما زادت القيمة الاسمية للسهم زاد سعره في سوق الأوراق المالية .ونظرا لان القيمة الاسمية لأسهم الشركات المدرجة في سوق عمان المالي دينار واحد فان هذا المتغير لن يؤثر على أسعار تداول اسهم تلك الشركات ولذلك فان الباحث سيستبعد اثر هذا المتغير عند التحليل .ويرى الباحث أن الفرضية التي تعبر عن العلاقة بين القيمة الاسمية للسهم وسعره يمكن أن تكون على الشكل التالي :

الفرضية الأولى: كلما زادت القيمة الاسمية للسهم زاد سعره في سوق الأوراق المالية .

٦-٢-٢ عائد السهم (س٢) : يعتبر صافي الربح من العناصر التي يعتمد عليها المستثمرين في تقييم أداء الوحدة الاقتصادية ، فكلما زاد صافي الربح كان ذلك دليلا على كفاءة إدارة الوحدة من وجهة نظر المستثمرين ، لذلك يرى الباحث انه كلما زاد نصيب السهم من الربح زاد سعره في سوق الأوراق المالية رغم أن بعض الدراسات السابقة اثبتت عكس ذلك . ففي هذا المجال قال Hennessey (1995) [١٣] ان الدراسات السابقة اثبتت أن هناك بعض الانحرافات في العلاقة بين أسعار الأسهم وارباح الأسهم، ووجد Schroeder (1995) [١٤] ان هناك علاقة طردية وقوية بين سعر السهم وربحيته بالنسبة لمجموعة من الوحدات الاقتصادية ، غير انه وجد ايضا أن هذه العلاقة كانت طردية وضعيفة جدا بالنسبة لمجموعة أخرى من الوحدات الاقتصادية بل وكانت هذه العلاقة سالبة بالنسبة لمجموعة أخرى.

وبالرغم من ذلك فإن اغلب الدراسات السابقة اثبتت أن هناك علاقة بين سعر السهم ونصيبه من الربح ، ومن ضمن هذه الدراسات الدراسة التي قام بها Ou & Penman(1989) [١٥] وكانت نتائجها أن أسعار الأسهم توفر معلومات عن الأرباح

المتوقعة في المستقبل وأن هذه الأرباح تؤثر على أسعار الأسهم . أما الفرضية التي تعبر عن العلاقة ما بين ربحية السهم وسعره فيمكن صياغتها على النحو التالي :

الفرضية الثانية : كلما زاد عائد السهم زاد سعره في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس ربحية السهم طبقا للمعادلة التالية :

ربحية السهم = صافي الربح بعد الضرائب ÷ عدد الأسهم المكتتب بها .

٦-٢-٣ صافي الربح: حقوق الملكية (س٣): تعتبر هذه النسبة من أكثر النسب قدرة على تقييم أداء الوحدة الاقتصادية ، ويرجع ذلك إلى أن هذه النسبة تأخذ في الاعتبار بالإضافة إلى رأس المال المدفوع الإحتياطيات والأرباح المحتجزة فكلما زادت هذه النسبة زاد الإقبال على شراء الأسهم .أما الفرضية التي تعبر عن العلاقة بين سعر السهم ونسبة صافي الربح إلى حقوق الملكية فيمكن تحديدها على النحو التالي :

الفرضية الثالثة: كلما زادت نسبة صافي الربح إلى حقوق الملكية زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

صافي الربح : حقوق الملكية = صافي الربح ÷ حقوق الملكية

حيث يقصد بصافي الربح هنا الربح القابل للتوزيع ، أما حقوق الملكية فيمكن قياسها كما يلي :

حقوق الملكية = رأس المال + الاحتياطيات + الأرباح المحتجزة

٦-٢-٤ صافي الربح : إجمالي الأصول (س٤): تعتبر هذه النسبة أيضا من أهم النسب التي يمكن الاعتماد عليها في تقييم أداء الوحدة الاقتصادية قبل اتخاذ قرار شراء أو عدم شراء أسهمها ، فكلما زادت هذه النسبة زاد الإقبال على شراء اسهم الوحدة

الاقتصادية . أما الفرض الذي يعبر عن هذه العلاقة فيمكن صياغته كالتالي :

الفرضية الرابعة : كلما زادت نسبة صافي الربح إلى إجمالي الأصول زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة باستخدام المعادلة التالية :

صافي الربح : إجمالي الأصول - صافي الربح ÷ إجمالي الأصول

٦-٢-٥ صافي الربح: إيراد النشاط الجاري (س٥): تعتبر هذه النسبة من اهم النسب التي يمكن الاعتماد عليها في قياس مدى قدرة الوحدة الاقتصادية على تحقيق أرباح من نشاطها الأساسي . وكلما زادت هذه النسبة زاد الإقبال على شراء الأسهم. أما الفرضية التي تعبر عن هذه العلاقة فيمكن صياغتها على النحو التالي:

الفرضية الخامسة : كلما زادت نسبة صافي الربح إلى إيراد النشاط الجاري زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كا يلي :

صافي الربح : إيرادات النشاط الجاري - صافي الربح ÷ إيرادات النشاط الجاري .

٦-٢-٦ صافي الربح: الأصول الثابتة (س٦): يرى الباحث أن هذه النسبة من النسب المهمة التي يمكن الاعتماد عليها في قياس قدرة الوحدة الاقتصادية على تحقيق أرباح ، ويرجع ذلك إلى ان الأصول الثابتة هي الأصول ذات القدرة الإنتاجية في الوحدة الاقتصادية من غير البنوك وشركات التامين .ويمكن صياغة الفرضية التي تعبر عن العلاقة ما بين سعر السهم ونسبة صافي الربح إلى الأصول الثابتة كما يلي :

الفرضية السادسة: كلما زادت نسبة صافي الربح إلى الأصول الثابتة زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

صافي الربح : الأصول الثابتة = صافي الربح ÷ صافي الأصول الثابتة

حيث أن : صافي الأصول الثابتة = إجمالي الأصول الثابتة - مجمع الإهتلاك

٦-٢-٧ صافي التدفقات النقدية: إجمالي الأصول (س٧): يرى Ward & Foster (1996) [١٦] ان قائمة التدفقات النقدية تعتبر ذات أهمية كبيرة في إمكانية التنبؤ بالأزمات المالية في الوحدات الاقتصادية قبل حدوثها بسنة واحدة أو سنتين . كما أضاف Lorek & Willinger (1996) [١٧] أنه يمكن الاعتماد على التدفقات في التنبؤ بمعدلات المديونية المتوقع حدوثها في المستقبل.... الخ . لذلك يرى الباحث أن صافي التدفقات النقدية من أهم المتغيرات التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية ويمكن التعبير عن العلاقة التي تربط صافي التدفقات النقدية بسعر السهم بالفرضية التالية :

الفرضية السابعة: كلما زادت نسبة صافي التدفقات النقدية إلى إجمالي الأصول زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس نسبة صافي التدفقات النقدية إلى إجمالي الأصول باستخدام المعادلة التالية:

صافي التدفقات النقدية : إجمالي الأصول = صافي التدفقات النقدية ÷ إجمالي الأصول

ونظرا لأن الباحث لم يتمكن من الحصول على قائمة التدفقات النقدية لبعض الوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث فان الباحث فضل ، لغايات هذا البحث، الاعتماد على الطريقة التقليدية لقياس صافي التدفقات مستخدما المعادلة

التالية :

صافي التدفقات النقدية = صافي الربح + الإهتلاك

ولغايات استخدام أساس واحد في القياس لجميع الوحدات الاقتصادية التي شملتها عينة البحث فقد تم الاعتماد على هذه المعادلة في قياس صافي التدفقات النقدية ، سواء كانت الوحدات الاقتصادية تقوم بإعداد قائمة تدفقات نقدية أم لا . ويرى Latinen (1994) [١٨] أن هذه المعادلة المستخدمة في قياس صافي التدفقات النقدية ما هي إلا طريقة تقوم بتحويل التدفقات المالية التي تم حسابها طبقا لأساس الاستحقاق إلى التدفقات النقدية المحسوبة طبقا للأساس النقدي ، ويرى الباحث انه كلما زادت صافي التدفقات النقدية فإن احتمال الأزمات التي تتعرض لها الوحدة الاقتصادية سيقل ، ونتيجة لذلك ستزيد أرباح الوحدة الاقتصادية .

٦-٢-٨ صافي الربح الموزع: صافي الربح المحقق (س٨): توضح هذه النسبة سياسة الوحدة الاقتصادية في توزيع أرباحها ، وكلما زادت هذه النسبة قد يكون ذلك في مصلحة المساهمين لأنها تؤدي إلى زيادة نصيب السهم من الأرباح الموزعة ، ولكن نقص هذه النسبة قد يكون في مصلحة الوحدة الاقتصادية في الأمد الطويل لأنه يترتب عليها الاحتفاظ بقدر من الأرباح المحققة في نهاية كل سنة مالية يمكن استخدامها في إجراء توسعات في نشاط الوحدة الاقتصادية في المستقبل .ويمكن التعبير عن العلاقة ما بين صافي سعر السهم ونسبة صافي الربح الموزع إلى صافي الربح المحقق بالفرضية التالية :

الفرضية الثامنة: كلما زادت نسبة صافي الربح الموزع إلى صافي الربح المحقق زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

صافي الربح الموزع : صافي الربح المحقق - صافي الربح الموزع ÷ صافي الربح المحقق

ويقصد بصافي الربح المحقق هنا صافي الربح القابل للتوزيع . ونظرا لأن الباحث ينظر إلى وجهة نظر المساهم الذي يرغب في شراء الأسهم الخاصة بالوحدة الاقتصادية، فانه يرى أنه بزيادة هذه النسبة يزداد إقبال المستثمرين على شراء أسهم جديدة لأنها ستؤدي إلى زيادة نصيب السهم من الأرباح الموزعة.

٦-٢-٩ إنتاجية واحد دينار أجر (س٩): كلما زادت إنتاجية واحد دينار أجر زادت قدرة الوحدة الاقتصادية على تحقيق ارباح، وزاد نتيجة لذلك سعر السهم في سوق الأوراق المالية . أما الفرضية التي تعبر عن هذه العلاقة فيمكن صياغتها على النحو التالي :

الفرضية التاسعة: كلما زادت إنتاجية واحد دينار اجر زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس إنتاجية واحد دينار أجر باستخدام المعادلة التالية :

إنتاجية واحد دينار أجر= إيرادات النشاط الجاري ÷ إجمالي الأجور

٦-٢-١٠ الأصول الثابتة: إجمالي الأصول (س١٠): يرى الباحث ان نسبة الأصول الثابتة إلى إجمالي الأصول من أهم النسب من وجهة نظر المستثمر الذي يرغب في شراء أسهم إحدى الوحدات الاقتصادية ، لأنه كلما زادت هذه النسبة زادت قدرة الوحدة الاقتصادية على الإنتاج وبالتالي تزيد قدرتها على تحقيق ارباح في المستقبل.ويؤيد هذا الراي Kerstein (1995) &Kim [١٩] عندما قالا بان المصروفات الراسمالية تعتبر مؤشرا على قدرة الوحدة على تحقيق أرباح في المستقبل ، كما اضافا

بأن العلاقة بين التغيرات في المصروفات الراسمالية والتغيرات في الأرباح المتوقع تحقيقها في المستقبل علاقة طردية . بمعنى أن الوحدات الاقتصادية التي تعاني من نقص في أصولها الثابتة أو كانت أصولها قديمة يعني ان صافي قيمة الأصول الثابتة المسجلة في هذه الوحدات ذات قيمة منخفضة جدا ، مما يعكس أن هذه الوحدات ذات قدرة إنتاجية ضعيفة ، إضافة إلى ان قدرتها على تحقيق ارباح في المستقبل محدود للغاية . ويمكن صياغة الفرضية التي تعبر عن العلاقة ما بين سعر السهم ونسبة الأصول الثابتة إلى إجمالي الأصول كما يلي :

الفرضية العاشرة: كلما زادت نسبة الأصول الثابتة إلى إجمالي الأصول زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

نسبة الأصول الثابتة : إجمالي الأصول - صافي الأصول الثابتة ÷ إجمالي الأصول

يث ان صافي الأصول الثابتة - إجمالي الأصول الثابتة - مجمع الإهتلاك

٦-٢-١١ **إجمالي الدائنين: إجمالي مصادر الأموال (س١١):** ان زيادة هذه النسبة تشكل خللا في الهيكل المالي للوحدة الاقتصادية ، فزيادة هذه النسبة تعني أن إجمالي الدائنين تمثل النسبة العظمى من إجمالي مصادر الأموال ، ويؤيد ذلك Nestor & Thomas (1995) [٢٠] عندما بينا أن الوحدات الاقتصادية التي كانت تخضع للإشراف الحكومي تواجه مشاكل شديدة في جميع الدول التي بدات في تطبيق برنامج الخصخصة ، وعلى راس هذه المشاكل كبر حجم المديونية. إضافة إلى ما سبق فان حجم المديونية يؤدي إلى زيادة الأعباء التي تتحملها الوحدة الاقتصادية، حيث يلزم أن تقوم بدفع مبالغ كبيرة كفوائد لهذه الديون ، مما يؤدي إلى زيادة

التكاليف وانخفاض الأرباح المتوقع حدوثها في المستقبل ، وهذا يؤدي إلى انخفاض أسعار أسهم هذه الوحدات .ويمكن التعبير عن هذه العلاقة بالفرضية التالية:

الفرضية الحادية عشر : كلما زادت نسبة إجمالي الدائنين إلى إجمالي مصادر الأموال انخفض سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة على النحو التالي :

إجمالي الدائنين: إجمالي مصادر الأموال - إجمالي الدائنين ÷ إجمالي مصادر الأموال

٦-٢-١٢ حقوق الملكية : إجمالي مصادر الأموال (س٢١) : يرى الباحث ان هذه النسبة لها تأثير كبير على أسعار الأسهم فكلما زادت هذه النسبة زادت ثقة المستثمرين في الهيكل التمويلي للوحدة الاقتصادية ، ومن ثم زادت قدرة الوحدة الاقتصادية على الاستمرار في النشاط لفترات طويلة في المستقبل . ويمكن التعبير عن العلاقة التي تربط سعر السهم بنسبة حقوق الملكية إلى إجمالي مصادر الأموال بالفرضية التالية:

الفرضية الثانية عشر: كلما زادت نسبة حقوق الملكية إلى إجمالي مصادر الأموال زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

حقوق الملكية : إجمالي مصادر الأموال : حقوق الملكية ÷ إجمالي مصادر الأموال .

٦-٢-١٣ نسبة التداول (س١٣): تعتبر نسبة التداول من أهم النسب التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد سعر السهم في سوق الأوراق المالية ، لأنه في حالة وجود نقص في نسبة التداول فان ذلك يعنى وجود خلل في الهياكل المالية للوحدات الاقتصادية ، مما قد يؤدي إلى لجوء الوحدات الاقتصادية إلى الاقتراض من البنوك (سحب على المكشوف)، فتتحمل الشركة نتيجة لذلك أعباء مالية إضافية نتيجة

معدلات الفائدة المرتفعة الخاصة بهذا النوع من القروض مما يعرض الشركة إلى تخفيض أرباحها . وبالإضافة إلى ما سبق فان زيادة نسبة التداول عن المعدلات المتعارف عليها يعني ان هناك أموالا في المنشاة غير مستغلة فتقل الأرباح وينعكس ذلك على أسعار الأسهم في السوق . ويمكن صياغة الفرضية التي تعبر عن العلاقة ما بين نسبة التداول وسعر السهم كما يلي :

الفرضية الثالثة عشر : هناك علاقة ذات دلالة إحصائية ما بين نسبة التداول وسعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس نسبة التداول كما يلي :

نسبة التداول = الأصول المتداولة ÷ الخصوم المتداولة

٦-٢-١٤ نسبة الأجور: إجمالي المصروفات (س ١٤): تعني الزيادة في نسبة الأجور مقارنة بمصروفات المنشاة أن هناك زيادة كبيرة في حجم العمالة إذا ما قورنت باحتياجاتها الحقيقية وخاصة في الشركات التي تملكها الدولة. ويرجع ذلك إلى القوانين الحكومية التي تفرض على هذه الشركات تعيين عمال إضافيين دون حاجتها إليهم مما يرتب على ذلك زيادة الأجور التي تتحملها هذه الشركات فتنخفض ارباحها أو تزيد خسائرها ويتأثر سعر سهمها في السوق. لذلك يرى الباحث أن الفرضية التي تعبر عن هذه العلاقة يمكن صياغتها كما يلي :

الفرضية الرابعة عشر : هناك علاقة عكسية ما بين نسبة الأجور إلى إجمالي المصروفات وسعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

نسبة الأجور : إجمالي المصروفات = إجمالي الأجور ÷ إجمالي المصروفات

٦-٢-١٥ كفـــاءة القائمـــين عـــلى إدارة الوحدة الاقتصادية (س١٥): يرى Sridhar (1994) [٢١] انه كلما زادت كفاءة المديرين زادت قدرة الوحدة الاقتصادية على النجاح وعلى تحقيق أرباح فتزيد أسعار أسهمها في المستقبل ، لذلك يرى الباحث ان الفرضية التي تعبر عن هذه العلاقة يمكن صياغتها على النحو التالي :

الفرضية الخامسة عشر : هناك علاقة طردية ما بين كفاءة الإدارة وسعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذا العنصر بالاعتماد على متوسط الأجور الخاصة بالقائمين على إدارة الوحدة الاقتصادية على افتراض أنه كلما زادت كفاءة المديرين زادت الأجور والمكافآت التي يحصلون عليها . ويؤيد هذا الراي Kren &Kerr (1993)[٢٢] عندما قالا إن المكافآت والرواتب التي يحصل عليها القائمون على إدارة الوحدة الاقتصادية يرتبط ارتباطا شديدا بمستوى أدائهم. وبالإطلاع على القوائم المالية الخاصة بالوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث لم يجد الباحث اي معلومات عن أجور القائمين على إدارة الوحدات الاقتصادية لذلك قرر استبعاد هذه النسبة من متغيرات البحث.

٦-٢-١٦ الأصول غير الملموسة: إجمالي الأصول (س١٦): كلما زادت نسبة الأصول غير الملموسة إلى إجمالي الأصول انخفض سعر السهم في سوق الأوراق المالية ، ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية :

- انخفاض ثقة المستثمرين في هذا النوع من الوحدات الاقتصادية مما يؤدي إلى نقص الطلب على شراء اسهم هذه الوحدات .

- يرى Munro (1996)[٢٣] أن التدفقات النقدية الداخلة من الوحدات الاقتصادية

التي تمثل أصولها الملموسة النسبة العظمى من إجمالي الأصول اكثر تاكيدا واكثر احتمالا من التدفقات الداخلة من الوحدات الاقتصادية التي تمثل أصولها غير الملموسة النسبة العظمى من إجمالي الأصول .

- انه في حالة إفلاس الوحدة الاقتصادية التي تحتوي على أصول غير ملموسة ذات قيمة كبيرة فان العائد من بيع هذه الوحدات سيكون منخفضا للغاية. ونتيجة لذلك فان المبلغ الذي سيحصل عليه المستثمر سيكون منخفضا جدا . وهذا يقودنا إلى ان هناك علاقة ما بين نسبة الأصول غير الملموسة وسعر السهم يمكن التعبير عنها بالفرضية التالية:

الفرضية السادسة عشر: كلما زادت نسبة الأصول غير الملموسةإلى إجمالي الأصول انخفض سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس نسبة الأصول غير الملموسة إلى إجمالي الأصول كما يلي :

الأصول غير الملموسة : إجمالي الأصول - الأصول غير الملموسة ÷ إجمالي الأصول .

وبالاطلاع على الميزانيات الخاصة بالوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث لم يجد الباحث بندا يمثل الأصول غير الملموسة لذلك قرر استبعاد هذه النسبة من متغيرات البحث .

٦-٢-١٧ صافي الربح المتوقع : رأس المال (س١٧): يعتبر صافي الربح المتوقع اكثر أهمية من وجهة نظر المستثمرين المحتملين إذا ما قورن بصافي الربح الفعلي ذلك لان الربح الفعلي قد تحقق فعلا واستفاد منه المستثمرون الحاليون. أما الربح المتوقع فسيحدث في المستقبل ويمكن للمستثمر الذي سيقوم بشراء أسهم في الوقت الحالي أن يستفيد من الربح المتوقع، غير انه يمكن للمستثمرين المحتملين أن يعتمدوا على الأرباح

الفعلية التي تحققت في الفترات السابقة في التنبؤ بالأرباح المتوقع حدوثها في المستقبل. وينادي Hartnett (1993)[٢٤] بضرورة العناية بالتنبوءات في الوحدات الاقتصادية التي في مرحلة التوسع أو في مرحلة التغيير ، وأضاف Mills (1995)[٢٥] ان التنبؤ بالعائد المتوقع للسهم يرتبط ارتباطا شديدا بسعر السهم . ويمكن التعبير عن العلاقة التي تربط بينهما بالفرضية التالية :

الفرضية السابعة عشر: هناك علاقة ما بين نسبة صافي الربح المتوقع إلى راس المال وسعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس نسبة صافي الربح المتوقع إلى راس المال كما يلي :

صافي الربح المتوقع : رأس المال= صافي الربح المتوقع ÷ رأس المال

ونظرا لان الباحث لم يستطع الحصول على أغلب الموازنات التخطيطية الخاصة بالوحدات الاقتصادية التي تشتمل عليها عينة البحث فقد قرر استبعاد هذه النسبة من متغيرات البحث .

٦-٢-١٨ صافي الربح الفعلي: صافي الربح التقديري (س١٨): تعكس هذه النسبة إلى حد كبير مدى كفاءة إدارة الوحدات الاقتصادية في التنبؤ بالأرباح المستقبلية ، وهذا يعكس إلى حد كبير درجة ثقة المستثمرين في الوحدة الاقتصادية ومن ثم درجة إقبالهم على شراء أسهمها. بمعنى كلما اقتربت هذه النسبة من ١٠٠٪ زادت ثقة المستثمرين في الوحدة الاقتصادية وزاد إقبالهم على شراء أسهمها. ويؤيد هذا الرأي Williams (1996)[٢٦] عندما قال بأن دقة التنبوءات عن الفترات السابقة يعطى انطباعا عن دقة التنبوءات بالفترات المقبلة . وهذا يقودنا إلى أن هناك علاقة ما بين نسبة صافي الربح الفعلي إلى صافي الربح التقديري وسعر السهم يمكن التعبير عنها بالفرضية

التالية :

الفرضية الثامنة عشر: هناك علاقة ما بين نسبة صافي الربح الفعلي إلى صافي الربح التقديري وسعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

صافي الربح الفعلي: صافي الربح التقديري = صافي الربح الفعلي ÷ صافي الربح التقديري

٦-٢-١٩ نسبة الفوائد: إجمالي المصروفات (س ١٩) : تعكس هذه النسبة إلى حد كبير مدى اعتماد المنشاة في تمويل أعمالها ودفع مصاريفها من مصادرها الذاتية ومن الأرباح التي تحققها في نهاية كل عام ، وبالتالي كلما زادت الفوائد مقارنة بالمصاريف قلت الأرباح وزاد تعرض المنشاة إلى خسائر محتملة بما ينعكس على سعر السهم بالانخفاض . وهذا يعني أن هناك علاقة ما بين نسبة الفوائد : إجمالي المصروفات وسعر السهم يمكن التعبير عنها بالفرضية التالية :

الفرضية التاسعة عشر: كلما زادت نسبة الفوائد إلى إجمالي المصروفات انخفض سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

الفوائد : إجمالي المصروفات = الفوائد ÷ إجمالي المصروفات

٦-٢-٢٠ :القيمة السوقية: القيمة الدفترية (س٢٠): تعتبر القيمة السوقية لأسهم الوحدة الاقتصادية اكثر اهمية من وجهة نظر المستثمرين المحتملين إذا ما قورنت بالقيمة الدفترية ذلك لان القيمة السوقية تعكس قيمة سهم المنشاة في السوق وقد تكون معبرة بنسبة اكبر من القيمة الدفترية التي تبنى على أرقام تاريخية غير

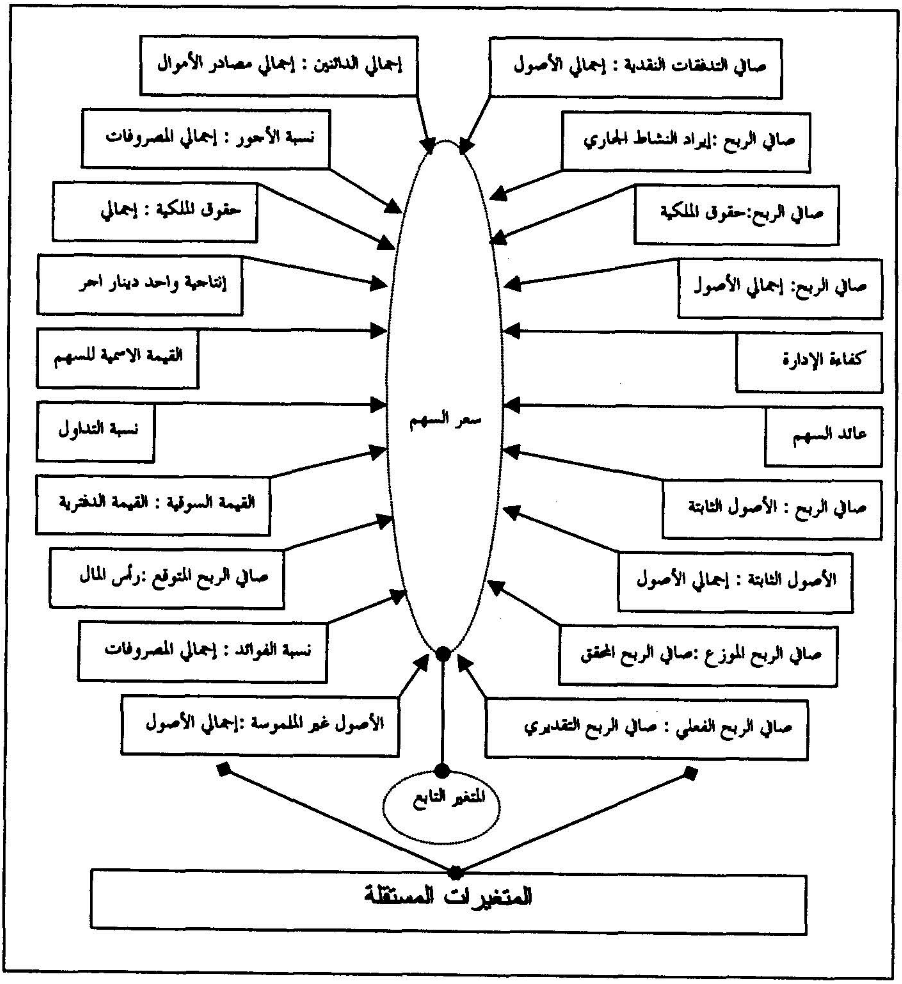
انه يمكن للمستثمرين المحتملين أن يعتمدوا على القيمة الدفترية لأسهم المنشأة في الفترات السابقة في التنبؤ بالقيمة السوقية في المستقبل ، وكلما زادت القيمة الدفترية للأسهم زادت قيمتها السوقية .بمعنى أن هناك علاقة ما بين نسبة القيمة السوقية إلى القيمة الدفترية وسعر السهم يمكن التعبير عنها بالفرضية التالية :

الفرضية العشرون : كلما زادت نسبة القيمة السوقية إلى القيمة الدفترية زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية .

ويمكن قياس هذه النسبة كما يلي :

نسبة القيمة السوقية: القيمة الدفترية - القيمة السوقية ÷ القيمة الدفترية

وفيما يلي شكل يعبر عن العلاقة ما بين المتغير التابع والمتغيرات المستقلة السابقة :



٧. النموذج المقترح لقياس سعر السهم .

بناء على العلاقات السابقة بين المتغير التابع والمتغيرات المستقلة فان الباحث يحدد النمــوذج التــالـــي لقياس سعر سهم الوحدة الاقتصادية المدرجة في بورصة الأوراق المالية :

ي = أ + ب١(س١) +ب٢(س٢) + ب٣(س٣) + ب٤(س٤) + ب٥(س٥) + ب٦(س٦) +

ب٧(س٧) + ب٨(س٨) + ب٩(س٩) + ب٠١(س٠١) + ب١١(س١١) + ب٢١(س٢١)+ ب٣١(س٣١)

+ب٤١(س٤١) + ب٥١(س٥١) + ب٦١(س٦١) + ب٧١(س٧١) + ب٨١(س٨١) + ب٩١(س٩١)+

ب٠٢(س٠٢) .

٨. معاملات الارتباط واختبار الفرضيات .

٨-١- معاملات الارتباط : بعد أن قام الباحث بقياس كل من المتغيرات المستقلة والمتغير التابع فقد تم إدخال النتائج إلى الحاسب الآلي وباستخدام البرنامج الإحصائي *SPSS* وعند مستوى معنوية ٠,٠٥ تم حساب معاملات الارتباط بين المتغيرات السابقة جميعا وكانت مخرجات الحاسب كما تظهر في الجدول التالي .

جدول رقم (١)

معاملات الارتباط بين المتغير التابع والمتغيرات المستقلة

المتغير/الإحصاء	ر	المتغير/الإحصاء	ر
س٢	٠,٨٤٣٢	س١٠	٠,٣٧٨-
س٣	٠,٣٧٥١	س١١	٠,٤٥٦-
س٤	٠,٥٣٦٢	س١٢	٠,٦٩٢
س٥	٠,٢٣١	س١٣	٠,٣٢١
س٦	٠,١١	س١٤	٠,٢٦-
س٧	٠,١٢	س١٩	٠,٤٤٥
س٨	٠,٥٨١	س٢٠	٠,٧٣٢
س٩	٠,٤٩١		

المصدر: تم الحصول على بيانات هذا الجدول من مخرجات الحاسب الآلي باستخدام برنامج *SPSS*

٨-٢- اختبار الفرضيات : قام الباحث بالمقرنة بين الفرضيات التي سبق تحديدها وبين النتائج الفعلية لمعاملات الارتباط التي توضح العلاقة الحقيقية بين المتغير التابع والمتغيرات المستقلة للتحقق من مدى صحة كل فرضية ، وتمت هذه الدراسة كما يلي :

الفرضية الأولى :

HO: لا يوجد علاقة ما بين عائد السهم وسعره في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زاد عائد السهم زاد سعره في سوق الأوراق المالية HA: P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٨٤٣٢) مما يعني وجود علاقة موجبة بين المتغير التابع :سعر السهم (ي) وعائد السهم (س ٢) . وان عائد السهم قادر على تفسير ما نسبته (٠,٧١) من التغيرات الحاصلة في سعر السهم كما اظهر معامل التحديد (ر٢). أما الانحرافات التي لم يتم تفسيرها من خلال هذا المتغير فقد بلغت (٠,٢٩) مشيرة بذلك إلى وجود متغيرات أخرى تؤثر على سعر السهم. وهذه

النتيجة ترفض الفرضية العدمية وتؤكد الفرضية البديلة وتفيد أن زيادة عائد السهم تزيد الطلب عليه ويزيد سعره .

الفرضية الثانية :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة صافي الربح إلى حقوق الملكية وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة صافي الربح إلى حقوق الملكية زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA: P > 0

اظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٣٧٥١) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع :سعر السهم (ي) ونسبة صافي الربح إلى حقوق الملكية (س ٣) . وان نسبة صافي الربح إلى حقوق الملكية قادرة على تفسير ما نسبته (٠,١٤) من التغيرات الحاصلة في سعر السهم كما اظهر معامل التحديد (ر٢). أما الانحرافات التي لم يتم تفسيرها من خلال هذا المتغير فقد بلغت (٠,٨٦) مشيرة بذلك إلى وجود متغيرات أخرى تؤثر على سعر السهم. وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية HO: P= 0 فإنها تؤكد الفرضية البديلة HA : P > 0 وتفيد أن زيادة عائد السهم منسوبا إلى حقوق الملاك تزيد الطلب عليه ويرتفع سعره .

الفرضية الثالثة:

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة صافي الربح إلى إجمالي الأصول وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة صافي الربح إلى إجمالي الأصول زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (0.5362) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع :سعر السهم (ي) ونسبة صافي الربح إلى إجمالي الأصول (س ٤) . وان نسبة صافي الربح إلى إجمالي الأصول قادرة على تفسير ما نسبته (٠,١٣٦٨) من التغيرات الحاصلة في سعر السهم كما اظهر معامل التحديد (ر٢). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية $HO: P= 0$ فإنها تقبل الفرضية البديلة $HA : P > 0$ وتفيد انه كلما زادت الأصول في المنشأة زاد استخدامها بعمليات تؤدي إلى زيادة الأرباح فتزيد تبعا لذلك قيمة السهم السوقية .

الفرضية الرابعة :

HO : لا يوجد علاقة ما بين نسبة صافي الربح إلى إيراد النشاط الجاري وسعر السهم في سوق الأوراق المالية $HO : P = 0$

HA: كلما زادت نسبة صافي الربح إلى إيراد النشاط الجاري زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية $HA : P > 0$

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٢٣١) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع :سعر السهم (ي) ونسبة صافي الربح إلى إيرادات النشاط (س ٥) . وان نسبة صافي الربح إلى إيرادات النشاط قادرة على تفسير ما نسبته (٠,٠٥٣٣) من التغيرات الحاصلة في سعر السهم كما اظهر معامل التحديد (ر٢) . وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة وان كانت ضعيفة فإنها ترفض الفرضية العدمية التي تقول أن الارتباط بين المتغيرين يساوي صفر $HO: P= 0$ وتقبل الفرضية البديلة $HA : P > 0$

الفرضية الخامسة :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة صافي الربح إلى الأصول الثابتة وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة صافي الربح إلى الأصول الثابتة زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,١١) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع : سعر السهم (ي) ونسبة صافي الربح إلى الأصول الثابتة (س ٦) . وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة وان كانت ضعيفة فإنها ترفض الفرضية العدمية التي تقول أن الارتباط بين المتغيرين يساوي صفر HO: P= 0 وتقبل الفرضية البديلة . HA : P > 0 ولم يجد الباحث مبررا لضعف العلاقة ما بين سعر السهم ونسبة صافي الربح إلى الأصول الثابتة فصافي الربح منسوبا إلى الأصول الثابتة تعتبر من المتغيرات التي تكشف عن مدى قدرة المنشاة على تحقيق أرباح في المستقبل وبالتالي تؤثر على قرار المستثمرين باستثمار أو عدم استثمار أموالهم في الوحدة الاقتصادية .

الفرضية السادسة :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة صافي التدفقات النقدية إلى إجمالي الأصول وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة صافي التدفقات النقدية إلى إجمالي الأصول زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,١٢) مما يعني وجود

علاقة طردية بين المتغير التابع : سعر السهم (ي) ونسبة صافي التدفقات النقدية إلى إجمالي الأصول (س٧). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة وان كانت ضعيفة فإنها ترفض الفرضية العدمية التي تقول أن الارتباط بين المتغيرين يساوي صفر $HO: P = 0$ وتقبل الفرضية البديلة . $HA : P > 0$ أما ضعف العلاقة فيرى الباحث أنها ترجع إما إلى عدم اهتمام المستثمرين بصافي التدفقات النقدية وأما ترجع إلى الأسلوب المتبع في البحث لحساب صافي التدفقات النقدية والناتج عن عدم تمكن الباحث من الحصول على قائمة التدفقات النقدية لأغلب الوحدات الخاضعة للدراسة .

الفرضية السابعة :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة صافي الربح الموزع إلى صافي الربح المحقق وسعر السهم في سوق الأوراق المالية $HO: P = 0$

HA: كلما زادت نسبة صافي الربح الموزع إلى صافي الربح المحقق زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية $HA : P > 0$

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين التغيرين بلغ (٠,٥٨١) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع : سعر السهم (ي) ونسبة صافي الربح الموزع إلى صافي الربح المتحقق (س٨). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية $HO: P = 0$ فإنها تقبل الفرضية البديلة $HA : P > 0$ وتفيد ان أسعار الأسهم ترتفع بزيادة النسبة التي تقوم بتوزيعها المنشاة من الأرباح التي تحققها. بمعنى كلما زادت الأرباح التي توزعها المنشاة من الأرباح التي تحققها يزيد الإقبال على اسهم تلك المنشاة فترتفع أسعارها . أما ندى(١٩٩٧)[٢٧] فقد توصل إلى أن العلاقة بين هذين المتغيرين علاقة عكسية وارجع السبب إلى وعي المستثمرين الذين ادركوا أن نقص الأرباح

الموزعة حاليا يؤدي إلى زيادة في أصول الوحدة الاقتصادية وزيادة قدرتها الإنتاجية في المستقبل مما يؤدي إلى زيادة إقبال المستثمرين على شراء اسهم هذه الوحدة وبالتالي زيادة أسعارها .

الفرضية الثامنة :

HO: لا يوجد علاقة ما بين إنتاجية واحد دينار اجر وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت إنتاجية واحد دينار اجر زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية

HA : P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٤٩١) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع إلى سعر السهم(ي)وإنتاجية واحد دينار اجر(س٩). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية HO: P= 0 فإنها تقبل الفرضية البديلة HA : P > 0 وبما يفيد أن أسعار الأسهم ترتفع بزيادة إنتاجية دينار واحد اجر حيث تزيد قدرة المنشاة على تحقيق أرباح وتزيد بالتالي اسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية .

الفرضية التاسعة :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة الأصول الثابتة إلى إجمالي الأصول وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة الأصول الثابتة إلى إجمالي الأصول زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (-٠,٣٧٨) مما يعني وجود

علاقة عكسية بين المتغير التابع إلى سعر السهم(ي) ونسبة الأصول الثابتة إلى إجمالي الأصول (س١٠). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية HO: P= 0 فإنها لا تقبل الفرضية البديلة HA : P > 0 حيث أن معامل الارتباط اقل من صفر .فالعلاقة العكسية لا تتفق مع الواقع الذي يفترض انه كلما زادت الأصول الثابتة زادت قدرة المنشاة على الإنتاج وبالتالي زادت قدرتها على تحقيق أرباح في المستقبل . أما سبب العلاقة العكسية فتعود في نظر الباحث إلى أن الأصول الثابتة يتم تقييمها على أساس التكلفة التاريخية وهذا يختلف اختلافا كبيرا عن قيمتها الحقيقية وقت إعداد القوائم المالية .

الفرضية العاشرة :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة إجمالي الدائنين إلى إجمالي مصادر الأموال وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة إجمالي الدائنين إلى إجمالي مصادر الأموال انخفض سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P < 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (-٤٥٦,) مما يعني وجود علاقة عكسية بين المتغير التابع إلى سعر السهم (ي) إجمالي الدائنين إلى إجمالي مصادر الأموال (س١١). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية HO : P= 0 فإنها تقبل الفرضية البديلة HA : P < 0 وتتفق مع الواقع الذي يفترض انه كلما زاد الدائنين إلى مصادر الأموال زادت الأعباء التي تتحمل بها المنشاة والناتجة عن دفع فوائد كبيرة لهذه الديون فتزيد التكاليف وتنخفض الأرباح المتوقع حدوثها فتقل بذلك أسعار الأسهم .

الفرضية الحادية عشر :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة حقوق الملكية إلى إجمالي مصادر الأموال وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة حقوق الملكية إلى إجمالي مصادر الأموال زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P > 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٢٩٦) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع : سعر السهم (ي) ونسبة حقوق الملكية إلى إجمالي مصادر الأموال (س١٢). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية HO: P= 0 فإنها تقبل الفرضية البديلة HA : P > 0 كما اظهر معامل التحديد (ر٢) أن المتغير المستقل قادر على تفسير ما نسبته (٠,٤٧٩) من الانحرافات في سعر السهم أما الانحرافات التي لم يتم تفسيرها من خلال هذا المتغير فقد بلغت (٠,٥٢١) مشيرة بذلك إلى وجود متغيرات أخري تؤثر على المتغير التابع .

الفرضية الثانية عشر :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة التداول وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: هناك علاقة ذات دلالة إحصائية ما بين نسبة التداول وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P = 0

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٣٢١) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع سعر السهم(ي) ونسبة التداول (س١٣). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية HO: P= 0 فإنها تقبل الفرضية البديلة

HA : P = 0 كما اظهر معامل التحديد (ر٢) أن المتغير المستقل قادر على تفسير ما نسبته (٠,١٠٣) من التغيرات في المتغير التابع ، أما الانحرافات التي لم يتم تفسيرها من خلال هذا المتغير فقد بلغت (٠,٨٩٧) مشيرة بذلك إلى وجود متغيرات أخرى تؤثر على المتغير التابع.

الفرضية الثالثة عشر :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة الأجور إلى إجمالي المصروفات وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO : P = 0

HA: هناك علاقة عكسية ما بين نسبة الأجور إلى إجمالي المصروفات وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HA : P < 0

اظهرت النتائج ان معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (-٠,٠٢٦) مما يعني وجود علاقة عكسية بين المتغير التابع سعر السهم(ي) ونسبة الأجور إلى إجمالي المصروفات (س١٤) وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ، وان كانت ضعيفة ، ترفض الفرضية العدمية HO: P= 0 فإنها تقبل الفرضية البديلة . HA : P < 0 وقد ظهر ضعف العلاقة من مقدار معامل التحديد (ر٢) حيث اظهر هذا المعامل أن المتغير المستقل قادر على تفسير ما نسبته (٧٦٠,٠) من التغيرات في المتغير التابع ، أما الانحرات التي لم يتم تفسيرها من خلال هذا المتغير فقد بلغت (٠,٩٣٢٤) مشيرة بذلك إلى وجود متغيرات أخرى تؤثر على المتغير التابع.

الفرضية الرابعة عشر :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة الفوائد إلى إجمالي المصروفات وسعر السهم في سوق الأوراق المالية HO: P= 0

HA: كلما زادت نسبة الفوائد إلى إجمالي المصروفات انخفض سعر السهم في سوق الأوراق المالية $HA : P < 0$

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٤٤٥) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع سعر السهم (ي) ونسبة الفوائد إلى إجمالي المصروفات (س١٩) وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة لا تتفق مع الواقع الذي يفترض انه كلما زاد الدائنين إلى مصادر الأموال زادت الأعباء التي تتحمل بها المنشاة والناتجة عن دفع فوائد كبيرة لهذه الديون فتزيد التكاليف وتنخفض الأرباح المتوقع حدوثها فتقل بذلك أسعار الأسهم فإنها ترفض الفرضية العدمية التي تحدد أن معامل الارتباط بين المتغيرين يساوي صفر $HO: P= 0$ غير انها لا تقبل الفرضية البديلة $HA : P < 0$ أما العلاقة الطردية التي أظهرتها النتائج فقد تشير إلى أن الفوائد في الوحدات الاقتصادية الواقعة في عينة البحث لا تمثل عبئا كبيرا عليها نظرا لان لها مدة طويلة في العمل وتخلصت من جزء كبير من ديونها .

الفرضية الخامسة عشر :

HO: لا يوجد علاقة ما بين نسبة القيمة السوقية إلى القيمة الدفترية وسعر السهم في سوق الأوراق المالية $HO: P= 0$

HA: كلما زادت نسبة القيمة السوقية إلى القيمة الدفترية زاد سعر السهم في سوق الأوراق المالية $HA : P > 0$

أظهرت النتائج أن معامل الارتباط (ر) بين المتغيرين بلغ (٠,٧٣٢) مما يعني وجود علاقة طردية بين المتغير التابع سعر السهم (ي) ونسبة القيمة السوقية إلى القيمة الدفترية (س٢٠). وبالإضافة إلى أن هذه النتيجة ترفض الفرضية العدمية $HO: P= 0$

فإنها تقبل الفرضية البديلة $HA : P > 0$ وتفيد انه كلما زادت القيمة الدفترية تزيد تبعا لذلك قيمة السهم السوقية.

٩ - معادلة الانحدار

لإعداد معادلة توضح العلاقة بين المتغير التابع والمتغيرات المستقلة قام الباحث بإدخال المتغيرات المستقلة السابقة والمتغير التابع إلى الحاسب الآلي في البرنامج الإحصائي SPSS مع امر بإعداد معادلة الانحدار باستخدام اسلوب Enter حيث دخلت كافة المتغيرات في المعادلة ، ونظرا لكثرة المتغيرات فيها فقد قام الباحث باستخدام اسلوب STEPWISE حيث تبين ان اكثر المتغيرات تاثيرا على أسعار الأسهم في بورصة الأوراق المالية هي : عائد السهم (س٢) والقيمة السوقية:القيمة الدفترية (س٢٠) وحقوق الملكية:مصادر الأموال (س٢١) والربح الموزع:الربح المحقق (س٨) وصافي الربح: إجمالي الأصول (س٤) وقد بلغ معامل الارتباط بين المتغير التابع وهذه المتغيرات٠,٩٨٦٧٨ كما ان هذه المتغيرات قادرة على تفسير ما نسبته ٠,٩٧٣٧٣(ر٢) من التغيرات الحاصلة في المتغير التابع. أما التغيرات التي لم يتم تفسيرها فقد بلغت ٠,٠٢٦٢٦ فيرجعها الباحث إلى المتغيرات الأخرى. ومن قيمة اختبار ف = ٥٢٧,٥٢٣ يظهر ان معامل التحديد ذو معنوية على مستوى ثقة ٠,٩٦٨٩ وعليه فان الباحث يحدد النموذج التالي لحساب سعر السهم في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية :

ي = ا + ب١ (س٢) + ب٢ (س٢٠)- ب٣ (س١٢) + ب٤ (س٨) + ب٥ (س٨)

أما قيم هذه المعاملات فتظهر في الجدول التالي :

جدول رقم (٢)

معاملات المعادلة التي حددها الباحث لسعر السهم في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية

المعامل	أ	ب١	ب٢	ب٣	ب٤	ب٥
القيمة	١٢,٧٠١٨٧٦	١٠٥,٧٤٦٢	٤٨,٢٣٥٤	١٣٥,٥٢٥٤٢	٤٢,٢٣٦٨١	١٢٠,٢٣٥٨

المصدر: تم الحصول على بيانات هذا الجدول من مخرجات الحاسب الآلي باستخدام برنامج *SPSS*

وبناء على ما سبق فإن المستثمرين يمكنهم الاستفادة إلى حد كبير من القوائم المالية المنشورة ، وان أهم المتغيرات التي يمكن لهؤلاء المستثمرين الاطلاع عليها قبل اتخاذ قرار باستثمار أموالهم في إحدى الوحدات الاقتصادية أو غيرها هي :

- عائد السهم .
- القيمة السوقية:القيمة الدفترية .
- حقوق الملكية : إجمالي مصادر الأموال .
- الربح الموزع:الربح المحقق .
- صافي الربح إلى إجمالي الأصول .

وهذا يتطلب ان يكون هناك نص في التشريعات المالية على ضرورة نشر هذه النسب على الأقل بالإضافة إلى القوائم المالية المنشورة ، وذلك لمساعدة المستثمرين في اتخاذ قراراتهم بشأن استثمار أموالهم أو عدم استثمارها في إحدى الوحدات الاقتصادية أو في غيرها.

١٠ – الخلاصة والتوصيات :

١٠-١ الخلاصة :

هدف البحث بشكل رئيس إلى تحديد أهم المتغيرات التي تؤثر على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية ، ودور القوائم المالية في ذلك . ولتحقيق هذا الهدف فقد قام الباحث باختبار عشرين متغيرا مستقلا يعتقد أنها تؤثر على القيمة السوقية للأوراق المالية، وقام بقياس معاملات الارتباط بين ١٥ متغيرا من هذه المتغيرات وبين سعر السهم في بورصة الأوراق المالية باعتباره متغيرا تابعا واستبعد المتغيرات الباقية لعدم توفر بياناتها . وقد اتضح نتيجة التحليل ان سعر السهم في بورصة الأوراق المالية يرتبط طرديا مع عائد السهم بمعامل ارتباط (٠,٨٤٣٢) ومع صافي الربح: حقوق الملكية (٠,٣٧٥١)، ومع صافي الربح :إجمالي الأصول (٠,٥٣٦٢)، ومع صافي الربح:إيرادات النشاط العادي (٠,٣٣١)، ومع صافي التدفقات النقدية:إجمالي الأصول (٠,١١)، ومع صافي الربح الموزع :صافي الربح المحقق (٠,٥٨١)، ومع إنتاجية واحد دينار أجر (١٩٤,٠)، ومع حقوق الملكية :إجمالي مصادر الأموال (٠,٦٩٢)، ومع نسبة التداول (٠,٣٢١)، ومع نسبة الفوائد:إجمالي المصروفات (٠,٤٤٥)، ومع القيمة السوقية : القيمة الدفترية (٠,٧٣٢). كما أنه يرتبط عكسيا مع الأصول الثابتة:إجمالي الأصول بمعامل ارتباط (٠,٣٧٨)، ومع إجمالي الدائنين:إجمالي مصادر الأموال (٠,٤٥٦)، ومع نسبة الأجور :إجمالي المصروفات (٠,٢٦) .

كما وجد الباحث ان هناك خمسة متغيرات من المتغيرات المستقلة تربطها علاقة معنوية مع سعر السهم في السوق بمعدل ارتباط قدره (٠,٩٨٦٧٨). وهذه المتغيرات هي : عائد السهم والقيمة السوقية:القيمة الدترية وحقوق الملكية: إجمالي مصادر الأموال، والربح الموزع:الربح المحقق، وصافي الربح : إجمالي الأصول .

١٠-٢ التوصيات :

بناء على ما سبق فإن الباحث يوصي بما يلي :

١ ـ يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية بمطالبة الوحدات الاقتصادية المسجلة بها بأن تقوم بإعداد قوائمها المالية التي تنشرها في البورصة طبقا لمعايير المحاسبة الدولية ، ويرجع ذلك إلى تواجد عدد كبير من المستثمرين الأجانب الذين يستثمرون أموالهم في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية ، كما أنه من المتوقع أن يزيد عدد الأجانب الذين يرغبون في استثمار أموالهم في سوق الأوراق المالية في الأردن . بالإضافة إلى ذلك فان إعداد القوائم المالية وفق معايير المحاسبة الدولية يوحد الأسس والقواعد المحاسبية التي يتم الاعتماد عليها في إعداد تلك القوائم لجميع الوحدات الاقتصادية المسجلة بها ، وهذا يساعد المستثمرين في إجراء المقارنات بين الوحدات الاقتصادية للمفاضلة بينها.

٢ ـ يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية بمطالبة الوحدات الاقتصادية المسجلة بها بأن تقوم بالفصل بين إيرادات النشاط الجاري والإيرادات الأخرى عند إعداد قوائمها المالية ، لان ذلك يؤدي إلى زيادة قدرة المستثمرين على التنبؤ بالأرباح المتوقع حدوثها مستقبلا ، وهذا يؤدي ايضا إلى زيادة قدرة المستثمرين على الاختيار المناسب لاستثماراتهم .

٣ ـ يوصي الباحث بأن تقوم بورصة الأوراق المالية بتحديد القوائم المالية التي يجب أن تقوم بنشرها الوحدات الاقتصادية المسجلة بها بحيث تشتمل بالإضافة إلى الميزانية وحسابات النتيجة على قائمة التدفقات النقدية ، ذلك لان قائمة التدفقات النقدية ذات أهمية كبيرة للمستثمر عند اتخاذ قراره بشراء أسهم جديدة .

٤ ـ يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية بمطالبة الوحدات الاقتصادية

المسجلة بها بإعداد ونشر موازنات تخطيطية عن الفترات المالية المقبلة،لان المستثمرين يهتمون بالأرباح المتوقعة اكثر من اهتمامهم بالأرباح الفعلية، كما أن أغلب المستثمرين في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية لا تتوافر لديهم الكفاءة والخبرة التي تمكنهم من التنبؤ بالأرباح المستقبلية، لذلك فإن نشر الموازنات التخطيطية التي توضح الأرباح المتوقعة في الفترات المقبلة سيكون له تاثير كبير على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية.

٥ - يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية بمطالبة الوحدات الاقتصادية المسجلة بها والتي تحتوي على عدة فروع أو أقسام أن تقوم بإعداد قوائم مالية لكل قسم أو لكل فرع وذلك بالإضافة إلى القوائم المالية الموحدة على مستوى الوحدة الاقتصادية بالكامل، لان ذلك يؤدي أيضا إلى زيادة قدرة المستثمر على التنبؤ بالأرباح المستقبلية وبالتالي زيادة قدرته على اختيار الاستثمار الأفضل .

٦ - يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية بمطالبة الوحدات الاقتصادية المسجلة بها بضرورة الاعتماد على الأسعار الجارية عند تقييم أصولها والتزاماتها ، وذلك لأن تطبيق مبدأ التكلفة التاريخية يؤدي إلى أن الميزانية لا تعبر عن المركز المالي الحقيقي للوحدة الاقتصادية في تاريخ معين، كما إنها تؤدي إلى أن حسابات النتيجة لا تعبر عن نتيجة الأعمال الحقيقية عن فترة مالية معينة. إضافة إلى ما سبق فان اعتماد الأسعار الجارية يحسن نوعية المعلومات المحاسبية ويزيد من درجة الاستفادة منها بواسطة كل من المستثمرين وإدارة المنشاة.

٧ - يوصي الباحث بأن تقوم بورصة الأوراق المالية بتحديد تاريخ موحد يتم فيه نشر جميع القوائم المالية الخاصة بالوحدات الاقتصادية المسجلة بها، ويعتبر هذا الأمر ضروريا بالنسبة للمستثمر الصغير حتى يمكنه من إجراء المقارنات بين الوحدات

الاقتصادية للمفاضلة بينها.

٨ ـ يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية بمطالبة الوحدات الاقتصادية المسجلة بها بإعداد قوائم مالية عن فترات ربع سنوية، لان القوائم المالية التي تعد في نهاية كل سنة لا توفر بيانات مالية كافية للاعتماد عليها في تحديد سعر السهم في سوق الأوراق المالية. فالقوائم المالية الربع سنوية تقوم بتوفير معلومات مستمرة تساعد المستثمرين على تقييم أداء الوحدات الاقتصادية باستمرار خلال السنة ، وهذا يؤدي إلى زيادة تأثير القوائم المالية على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية.

٩ ـ يوصي الباحث بضرورة قيام بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية بمطالبة الوحدات الاقتصادية المسجلة بها بنشر مجموعة موحدة من النسب المحاسبية مع قوائمها المالية حتى يتمكن المستثمر من تقييم أداء الوحدات الاقتصادية قبل اتخاذ قرار بشراء اسهم هذه الوحدات أو عدم الشراء، ويجب أن تتضمن النسب الخمس التي وجد الباحث أنها تؤثر تأثيرا كبيرا على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية وهي:

- عائد السهم .
- القيمة السوقية: القيمة الدفترية.
- حقوق الملكية: إجمالي مصادر الأموال.
- الربح الموزع: الربح المحقق.
- صافي الربح: إجمالي الأصول.

١٠ ـ يوصي الباحث بإمكانية نشر المعادلة ذات الخمسة متغيرات والتي توضح العلاقة بين المتغير التابع (سعر السهم في السوق) وبين المتغيرات المستقلة السابقة حتى يتمكن المستثمر من استخدامها لتحديد مدى مناسبة سعر السهم في السوق ، وبالتالي تساعده في اتخاذ قرار بشراء أو عدم شراء أسهم إحدى الوحدات الاقتصادية المسجلة في بورصة الأوراق المالية في المملكة الأردنية الهاشمية .

الحواشي

١. Cochran , S.J. & Defina , R.H., 1995, " New Evidence On Predictability In World Equity Markets", Journal of Business Finance & Accounting , Vol.22, No.6, (September 1995) , p. 53.

٢ ـ صلاح زين الدين ، "سوق الأوراق المالية المصرية ودورها التنموي المنشود - دراسة لبعض مشكلات عرض الأوراق المالية والطلب عليها"، مؤتمر تمويل التنمية في ظل اقتصاديات السوق ، المؤتمر العلمي السنوي الثامن عشر للاقتصاديين المصريين (الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع ، إبريل ١٩٩٤)، ص١٣ .

3. Mitchell , F.Reid , G.C. & Terry , N.G., 1995, Post Investment Demand for Accounting Information by Venture Capitalists" , Accounting and Business Research , Vol.25, No.99 (1995), p. 99.

4 . James W. Deitrich and Jenniver L. Stamps, " The Use of Accounting Information by Bank Loan Officers," The Journal of Commercial Bank Lending, (November 1981), pp. 51-63.

5. Ray Anderson, " The Usefulness of Accounting and Other Information Disclosed in Corporate Annual Reports to Institutional Investors," Accounting and Business Research ,(Autumn 1981), pp.359-365.

6. Judith F. Day, " The Use of Annual Reports by U.K. Investment Analyst ," Accounting and Business Research ,(Autumn 1986), pp.295-307.

٧ ـ محمد مطر، " الأهمية النسبية للبيانات المالية المدققة الصادرة عن الشركات المساهمة بدولة الكويت كمصدر للمعلومات لمتخذي قرارات الاستثمار وقرارات الإقراض " ، دراسات ، المجلد الخامس عشر ، العدد الثاني (الجامعة الأردنية، ٨٨٩١)، ص٣٢-٥٦.

8.Thomas E. McCaslin and Keith G. Stanga, " Similarities in Measurement Needs of Equity Investors and Creditors," , Accounting and Business Research (Spring 1986), p.151 .

9. Partnership in Development Project, Capital Market Orientation Guide, 4th. Ed., Sponsored by the Government of Egypt & The U.S Agency for International Development , World Trade Center , (Cairo, April 1996) p.6.

10. Breton , G. & Taffler , R. J., " Creative Accounting and Analyst Response", Accounting and Business Research , Vol.25,No.99 (1995), p.82.

١١ ـ محمد صبري إبراهيم ندا ، " اثر القوائم المالية المنشورة على أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية في جمهورية مصر العربية - دراسة تطبيقية "، الفكر المحاسبي ، جامعة عين شمس، العدد الأول (٧٩٩١)، ص ٤-٢١.

12.Rippington , F.A.& Taffler , R.J., 1995, " The Information Content Of Firm Financial Disclosures" , Journal of Business Finance & Accounting , Vol.22, No.3, (April 1995), p. 356.

13. Hennessey , S .M., " Earnings Forecast Revisions and Security Returns : Canadian Evidence" , Accounting and Business Research , Vol.25, No.100 (1995), p.240.

14. Schroeder , D.A., " Evidence On Negative Earnings Response Coefficients" , Journal of Business Finance & Accounting , Vol.22, No.27, (October 1995), pp. 955-956.

15. Ou , J.A. & Penman , S.H., "Accounting Measurement Price-Earnings Ratio, and the Information Content of Security Prices" , Journal of Accounting Research , Vol.27 (1989), Supplement , p.111.

16. Ward, T.J. & Foster , B.P., " An Emprical Analysis of Thomass Financial Accounting Allocation Fallacy Theory in a Financial Distress Context" , Accounting and Business Research , Vol.26, No.2. (1996), p.138.

17. Lorek , K . S . & Willinger , G . L., " Ammultivariate Time - Series Prediction Model for

Cash - Flow Data , The Accounting Review, Vol.71, No . 1 (January 1996), p.82.
18. Latinen , E . K., " Traditional Versus Operating Cash Flow in Failure Prediction" , Journal of Business Finance & Accounting , Vol.21, No.2 , (March 1994), p.195.
19 .Kerstein , J. & Kim , S., " The Incremental Information Content of Capital Expenditures " , The Accounting Review , Vol.70, No.3, (July 1995) , pp.514-515.
20.Nestor , S. & Thomas , S., " Privatization Through Liquidation", The OECD Observer , No. 192, (February / March 1995) , p.36.
21. Sridhar , S.S., " Managerial Reputation and Internal Reporting" , The Accounting Review , Vol.69, No.2, (April 1994) , p.346.
22. Kren , L.& Kerr , J . L. " The Effect of Behaviour Monitoring and Uncertainty on the Use of Performance - Contingent Compensation", Accounting and Business Research , Vol.23, No.90 (1993),p159.
23.Murno , J.W., " Convertible Debt Financing An Empirical Analysis" , Journal of Business Finance & Accounting , Vol.23, No.2, (March 1996) , p 322.
24. Hartnett, N. A., " Corporate Financial Forecast Accuracy : An Australian Study " , The International Journal of Accounting , Vol.28, No.3 (1993), p.249.
25. Mills , T.C., " Estimating The Permanent Component of UK Stock Prices Using Multivariate Evidence on Both Prices And Dividends " , Journal of Business Finance & Accounting , Vol.22, No.5, (July 1995), p.641.
26. Williams , P.A., 1996, " The Relation Between a Prior Earnings Forecast by Management and Analyst Response to a Current Management Forecast", The Accounting Review , Vol.71,No.1, (January 1996), p. 105.

٢٧ - محمد صبري إبراهيم ندا ,مرجع سابق، ص ٤-١٢ .